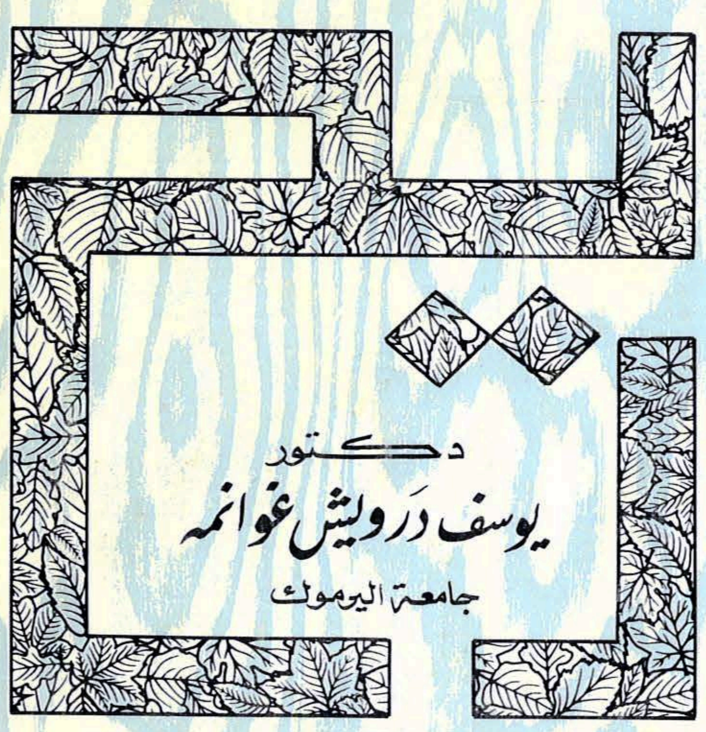
وزارة
الثقافة والشباب

شرقي الأردن

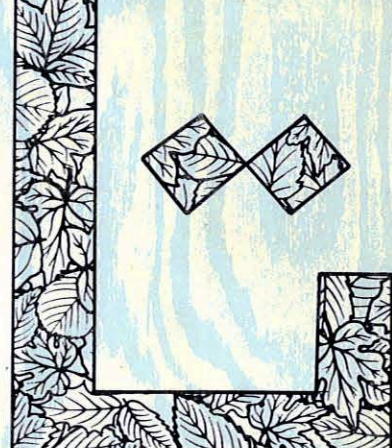
في عصر دولة المماليك الأولى

«القسم السياسي»





دكتور
يوسف درويش غوانمه
جامعة اليرموك



١٩٧٩

تاريخ شرقي الاردن

في عصر دولة المماليك الاولى

(القسم السياسي)

تأليف

الدكتور يوسف درويش غوانمة

استاذ مساعد بكلية العلوم والآداب

جامعة اليرموك

١٩٧٩

وزارة الثقافة والشباب

عمان

المملكة الاردنية الهاشمية

الطابعون
جمعية عمال المطابع التعاونية
عمان ـ هاتف ٣٧٧٧١

الاهـــداء

الى التي وقفت الى جانبـــي سنوات عديدة ، تشجعنـــي وتدفعني للوصول الى ما أصبو اليه .

الى الانسانـــة التي هيأت لي الظروف المناسبة للدراســـة والبحث ، وقاسمتني اعباء الحياة ، طيلة مرحلة دراستي .

الى هذا النموذج الفذ للمرأة الاردنية ، التي تعودت على العطاء والتضحية والايثار .

الى زوجتي ورفيقة عمري (هيام رشدي مريش) ، أهدي هذا الكتاب ، حبا ووفاء وعرفانا بالجميل .

المؤلف



كلمة شكر

هذا الكتاب هو بحث قدمته الى جامعة الاسكندرية ، ونلت بموجبه درجة الدكتوراه في الآداب من قسم التاريخ في ٢٠/٤/١٩٧٨م ، بمرتبة الشرف الاولى ٠

ولا يفوتني ان أسجل امتناني لسيادة وزير الثقافة والشباب الاردنية ، الذي أبدى حماسا واهتماما في نشر مادة هذا البحث ، كي تكون في متناول كل من يود قراءة تاريخ الاردن ٠

وأود كذلك أن أتقدم بالشكر لمدير دائرة الثقافة والشباب ، وكل الاخوة في الوزارة ودائرة الثقافة الذين قدموا لي يد العون والمساعدة والتشجيع ، وعملوا على تذليل كل العقبات التي اعترضت طباعة هذا الكتاب ٠

الشكر والتقدير لاستاذنا الكبير الدكتور عبد العزيز الدوري ، على توجيهاته القيمة وتوصيته بنشر الكتاب ٠

ولكل من أسهم في اخراج هذا البحث ، وجعله في متناول الجميع ، أتوجه بالشكر والاعتراف بالجميل ٠

اربد في ١٩٧٨/١١/٥ م

يوسف درويش غوانمة

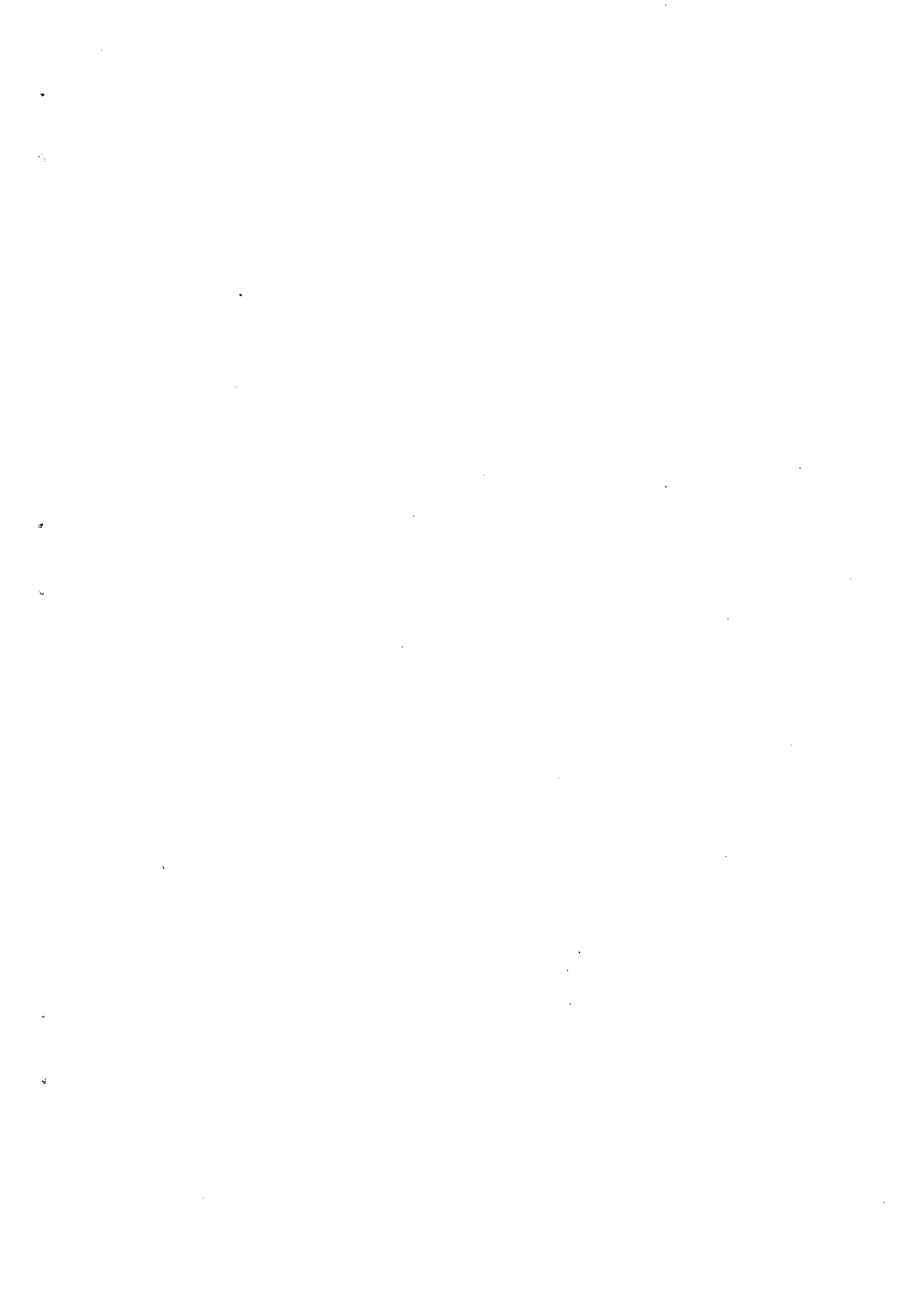
جامعة اليرموك

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

١ ـ أهمية البحث ومنهج الدراسة .

٢ ـ عرض وتحليل لأهم مصادر البحث .



(١)

أهمية البحث ومنهج الدراسة

لعبت منطقة شرقي الاردن دورا هاما وخطيرا في عصر دولة المماليك الاولى ، فقد ظلت حلقة الاتصال الوحيدة بين حاضرتيها القاهرة ودمشق • كما شكلت قلاعها وحصونها المنيعة خط الدفاع الرئيسي عن الديار المصرية وحواضر الشام في وجه المد التتاري الذي ما فتيء يهدد دولتهم منذ قيامها ، كما كانت هذه القلاع والحصون خزائن للسلاح (الزردخاناه) ومخازن للمؤن تتزود منها الجيوش المملوكية في اوقات تحركها لمواقعة قوى الفرنج المتربصين في جيوبهم على الساحل الشامي ، وكانت الى جانب ذلك كله تتصدى لحماية بيت المقدس من اطماع الطامعين ، ولم تتردد في الاشتراك في معارك التحرر الاخيرة ، فاسهمت في تطهير عكا ، آخر المعاقل الصليبية في شرقنا العربي • ثم ان دروبها ومسالكها ظلت تواصل دورها الطليعي في خدمة القوافل التجارية ، كما ان ايلة ، ميناءها في العقبة استمرت تخدم حركة التجارة العالمية ، بين الشرق والغرب ، عبر البحر الاحمر والجزيرة العربية •

ومن جهة ثانية كانت قاعدة للنضال السياسي ، ومنطلقا لعديد من الثورات ، بدأها السعيد والمسعود ، اولاد الظاهر بيبرس ، بهدف اعادة امارة الكرك الايوبية التي تجسد الكيان الاردني الحالي ، كما اتخذها الناصر محمد بن قلاوون ملاذا امينا يلوذ به ، وتنطلق منه حركته البارعة لاستعادة ملكه • ومن بعده كانت مركزا لثورة شعبية قومية عارمة ضد المماليك قام بها اهل الكرك وعلى رأسهم السلطان الناصر احمد بن قلاوون ، الذي اعتبرها وطنا له ، ومقرا لاقامته ، وسعى لاتخاذها حاضرة لدولته • ولم ينته دورها بنهاية دولة المماليك الاولى ، وانما تجدد هذا الدور في عصر دولة المماليك الثانية ، ففيها ثار برقوق وبمؤازرة اهلها ، ووقوفهم الى جانبه استعاد سلطنته ، واستمرت منطقة الاردن مركزا هاما لحركات التحرير والثورات الشعبية طوال عصر دولتي المماليك الاولى والثانية •

من هذا المنطلق يكمن العامل الرئيسي في اختياري لموضوع البحث ، ثم انني اردت ان يكون استكمالا للموضوع الذي حصلت به على درجـــة الماجستير ، ويقتصر على دراسة تاريخ هذه المنطقة في عصر الدولة الايوبية ، كان من الطبيعي على هذا الاساس ان اواصل دراستي في هذا المجال ، مستهدفا توضيح الدور الذي لعبته منطقة شرقي الاردن في عصر دولة المماليك الاولى ، وهو امر اغفله المؤرخون[1] ، مع اقرارهم بطبيعة هذا الدور وخطورته بالنسبة لتاريخ الشرق الادنى الاسلامي ، في تلك المرحلة الحاسمة من تاريخ الحركة الصليبية من جهة ، وامام الاخطار الممثلة في الغزو المغولي لبلاد الشرق الاسلامي من جهة ثانية ، وكان من الضروري أن أبدأ دراستي لتاريخ منطقة شرقي الاردن في عصر دولة المماليك الاولى ، منذ قيامها في سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) ، بدراسة تمهيدية أتحدث فيها عن قيام دولة المماليك في مصر ، مبرزا الدور الذي قدر لامارة الكرك الايوبية ان تقوم به لاستعادة ملك الايوبيين في مصر باعتبارها آخر الامارات الايوبية الهامة في بلاد الشام · كما كان علي أن اسلط الضوء على الموقف العدائي الذي وقفه السلطان الملك الظاهر بيبرس ضد هذه الامارة ، بحيث تمكن من القضاء عليها سنة ٦٦١هـ (١٢٦٣م) · ولما كنت قد عالجت هذه الموضوعات في رسالتي للماجستير بشيء من التفصيل ، فقد رأيت لزاما علي أن أعرضها عرضا سريعا ، مراعيا فيه الايجاز والتركيز تجنبا للتكرار ، وحاولت ما وسعني الجهد في هذا البحث أن أسجل صورة أقرب ما تكون الى الكمال لتاريخ هذه المنطقة الذي يعتبر جزءا لا يتجزأ من تاريخ مصر والشام في العصور الوسطى ، وكنت أقف طويلا عند كثير من الحوادث المعقدة ، والظواهر الغامضة المبهمة وأحاول بقدر الامكان تفسيرها وتركيز الاضواء عليها ، وبعث الحياة في أوصالها مستخدما في ذلك كل طرائق البحث العلمي من تحليل وتدليل ومقابلات بين النصوص ، ومقارنات بين الروايات وتخريج أفكار واستنباط حقائق · واكثر ما اجهدني في ذلك ما يتعلق

---

(١) هذا الموضوع رغم اهميته لم يحظ باهتمام الباحثين والدارسين ، فلم اعثر على كتاب شامل تعرض باسهاب لتاريخ منطقة شرقي الاردن في عصر دولة المماليك ، لذا فان هذه الدراسة الشاملة الوافية لتاريخ هذه المنطقة تعتبر الاولى من نوعها · ·

بمظاهر الحضارة فقد جمعت شذرات متباينة من بطون المصادر التاريخية والادبية تختلف في موضوعاتها وأغراضها لاصفيها من شوائبها ، واستخلص منها دراسة علمية ، تعينني على تسجيل صورة واضحة المعالم لحضارة هذه المنطقة في العصر المملوكي • مستعينا في ذلك ايضا بالشواهد المادية الحية على مختلف أنواعها • واعني بها الآثار الباقية من المنشآت المعمارية في الاغراض المتنوعة ، وهكذا أمكنني بفضل ذلك المنهج أن أقدم في جملة ما قدمته دراسة لاهم آثار هذا العصر في المنطقة موضوع الرسالة ، كما أمكنني تصحيح كثير من المعلومات الخاطئة المتعلقة بنسبتها وتاريخ انشائها •

وقد قسمت هذه الدراسة قسمين رئيسيين : أحدهما للتاريخ السياسي والآخر لنظم الحكم وأهم مظاهر الحضارة ، فشمل الباب الاول ستة فصول أفردت أولها لدراسة تاريخ شرقي الاردن في عهد الملك الظاهر بيبرس ، مبتدئا بدراسة طبوغرافية المنطقة التاريخية ، مشيرا لتاريخ تسميتها (بشرقي الاردن) • ثم تعرضت بايجاز لذكر الظروف التي أدت الى سقوط امارة الكرك الايوبية ، ثم اتبعت ذلك بدراسة مكثفة عن اهمية هذه المنطقة من الوجهة الاستراتيجية في كل من مرحلتي الوجود الصليبي في المنطقة وتحكمه فيها ، ومرحلة دخول الاردن في فلك الحكم الايوبي ثم المملوكي موضحا في نفس الوقت تجدد الاهمية الاستراتيجية لهذه المنطقة طيلة الحكم المملوكي لاعتبارات : عسكرية وسياسية واقتصادية • ثم عرضت لمظاهر اهتمام الظاهر بيبرس بالمنطقة ، وزياراته المتكررة اليها ، وحرصت على تسجيل منشآته المعمارية في : عجلون والصلت والاغوار ، والكرك ومؤتة والشوبك •

وخصصت الفصل الثاني لدراسة أبرز أحداث الكرك بعد وفاة الظاهر بيبرس ، ابتداء من سلطنة الملك السعيد ثم نفيه الى الكرك ، فالاخطار الداخلية والخارجية التي طوقت دولة المماليك في مصر والشام • وأهمها ثورة السعيدوالمسعود ولدي الظاهر في الكرك وسعيهما الى احياء امارة الكرك الايوبية ،تضامنا مع الامير سنقر الاشقر ، وبعض الامراء الظاهرية

الذين حاولوا الاستعانة بفرنج عكا . ثم تعرضت للحديث عـن موقف المنصور قلاوون من هذه الثورة ، والاسلوب الذي اتبعه لاخماد هذه الثورة ودوره في توحيد الجبهة الداخلية في مصر والشام ، وجهوده في تمكين نفوذه وتثبيت ملكه ،وتقديره لمزايا الموقع الاستراتيجي لمنطقة شرقي الاردن ومظاهر اهتمامه بها .

ويتضمن الفصل الثالث دراسة لتاريخ المنطقـة في عهد السلطان قلاوون وابنه الاشرف خليل . وفي هذا الفصل اهتممت بتسجيل مظاهر اهتمام قلاوون بهذه المنطقة ، ثم انتقلت الى الحديث عن فتح عكا ، واشتراك بيبرس الدوادار نائب الكرك وقواته في تحرير الساحل الشامي من بقايا الفرنج ، وضمنت هذا الحديث أهمية استيلاء المماليك على عكا كاجراء حاسم لوضع حد للسيطرة الصليبية على مناطق من الشرق الادني الاسلامي ، طال أمدها ما يقرب من قرنين من الزمان . واختتمت حديثي في هذا الفصل بتوضيح موقف الاشرف خليل من هدم قلعة الشوبك ، وذلك بعد ان ناقشت الآراء التي قيلت حول هذا الموضوع .

وخصصت الفصل الرابع لدراسة تاريخ منطقة شرقي الاردن في عهد الناصر محمد بن قلاوون . وشرعت قبل كل شيء في الحديث عن سلطنته الاولى ، الى أن تم عزله ونفيه الى الكرك . ثم انتقلت الى الحديث عن حسام الدين لاجين واعماله بالشوبك الى أن استرد الناصر محمد بن قلاوون عرشه للمرة الثانية ، ثم تحدثت عن واقعة الخزندار ودخول قوات غازان خان دمشق وعيثه في شمالي الاردن والاغوار . وتطرقت في دراستي الى اضطرار الناصر محمد الى الالتجاء الى الكرك ، وناقشت قضية تنازله عن العرش ، واثبت تزييف كتاب التنازل المزعوم من قبل الامراء ، وأخيرا تحدثت عن ثورته في الكرك ، وتمكنه من استرجاع العرش للمرة الثالثة . وقد أسهبت في عرضي لطبيعة اتصالاته التي أجراها مع نوابه في بلاد الشام ، وأثبت بعض تلك المراسلات ،وعن خط سيره من الكرك الى دمشق ، وموقف اهالي الاردن وحوران ودمشق من ثورته . واختتمت هذا الفصل بدراسة مظاهر اهتمام الناصر محمد بالمنطقة ، وتتمثل في زياراته المتتابعة الى كل من

الكرك وحسبان واتخاذه من الكرك مقرا له ولبنيه ، كما تتمثل في عنايته بسكان الاردن وحرصه على توفير الامن والسلام بين ربوعها ، وفي اعماله الانشائية والعمرانية الكثيرة في الكرك والعقبة والصلت وعجلون والاغوار ٠

وخصصت الفصل الخامس لدراسة أحداث المنطقة في عهد الناصر أحمد ابن قلاوون ، واول هذه الاحداث الثورة التي قام بها الناصر أحمد بالكرك ، وتأييد نواب الشام له ، ومن ابرز أحداث هذا العهد أيضا تمكنه من الظفر بالعرش ، وقيامه بحركة تطهير شملت صفوف أمراء المماليك ، وانتقامه من قتلة اخيه المنصور ابي بكر ٠ ومنها انقلاب الامراء عليه عندما هم باتخاذ الكرك حاضرة لسلطنته ، وقيامهم بتوجيه عدد من التجاريد المصرية والشامية اليه بلغ ثمان ٠ وقد أنهيت هذا الفصل بدراسة أسباب عزل الناصر احمد وعوامل صموده لحصار دام سنتين كاملتين ، وأهمها استعماله للسلاح الجديد «المدافع» ، وهي أول اشارة صريحة لاستعمال هذا السلاح في بلاد الشام ، ثم حللت أسباب ثورته ودوافعها ٠

أما الفصل السادس فقد عالجت فيه تاريخ منطقة شرقي الاردن حتى قيام دولة المماليك الثانية ، متتبعا الاحداث الخطيرة التي شهدتها المنطقة موضوع الدراسة في هذه الفترة وأهمها الفناء الكبير (الطاعون) ، الذي اجتاح العالم كله ، ولم تسلم منه منطقة شرقي الاردن ٠ كما تعرضت لذكر النتائج التي ترتبت على هذا الفناء سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ٠ كذلك تحدثت عن أعمال كل من الملك الصالح بن محمد بن قلاوون واخيه الناصر حسن في المنطقة ٠ وعن تاريخ المنطقة في عهد الملك الاشرف شعبان والمؤامرة التي تعرض لها في العقبة وانتهت بمصرعه ، واختتمت هذا الفصل بالحديث عن الظاهر برقوق ، منذ ان تدرج في المناصب حتى تمكن من الاستيلاء على أزمة الحكم في مصر وأصبح سلطانا مؤسسا بذلك دولة المماليك الثانية ، مبرزا أهم أعماله الانشائية في المنطقة ٠

أما الباب الثاني فقد أفردته لدراسة بعض مظاهر الحضارة في المنطقة ، ويشتمل هذا الباب بدوره على ستة فصول : خصصت أولها لبحث النظام

الاداري في المنطقة ، فذكرت أقسامها الادارية ، والوظائف القائمة فيها ، ومنها : وظائف أرباب السيوف ، والوظائف الدينية والديوانية ، ثم تحدثت عن جيش الكرك ، وولاية البلقاء ، ونيابة عجلون ٠

وعالجت في الفصل الثاني شبكة المواصلات في المنطقة في عصر دولة المماليك الاولى فعرضت لمراكز التبريد ومحطاته ، وابراج الحمام الزاجل ٠ كما تعرضت لذكر المناور ومراكزه في الاردن ، ثم تحدثت في نهاية الفصل عن مراكز نقل الثلج من الشام الى مصر ، والمراكز التي يمر منها في هذه المنطقة ٠

وعالجت في الفصل التاسع الحياة الاقتصادية في المنطقة ، فبحثت في مظاهر الزراعة والمحاصيل الزراعية المختلفة في مختلف أنحاء المنطقة ، كما خصصت قسما ثانيا من هذا الفصل لدراسة التجارة الداخلية والخارجية ، والتجارة العابرة (الترانسيت) والتجارة البحرية ٠ وقد أثبت قيام علاقات تجارية خارجية بين الاردن كنيابة مستقلة وبين الدول الاوروبية ، مبينا أهمية مدينة عجلون باعتبارها مركزا تجاريا مرموقا في هذه الفترة استنادا الى نشاط دارها المعروفة بدار الطعم ، وكانت بمثابة وكالة للتجار الاجانب ثم تحدثت عن الاوزان والمكاييل والسكة ٠ ثم عن المواد الخام اللازمة للصناعات ، وعن الصناعات بانواعها ، وأولها الصناعات القائمة على المحاصيل الزراعية : الخمور والسكر والنيل والزيت والبلسم ومنها صناعة التحف المعدنية المكفتة ، والاسلحة ، وصناعة المنسوجات والابسطة ، وصناعة التحف الخشبية والسفن ، وصناعة الفخار والخزف مبرزا في كل ذلك التيارات الفنية التي تعرضت لها الفنون الصناعية في المنطقة ابان هذا العصر ٠

وقد خصصت الفصل العاشر لدراسة الحياة الاجتماعية ، فتحدثت عن طبقات السكان وعن الطوائف الدينية ، وانتقلت الى الحديث عن بعض مظاهر الحياة الاجتماعية ، كوسائل التسلية والاحتفالات والالبسة وبعض الاطعمة الشائعة آنذاك ٠

أما الفصل الحادي عشر فقد خصصته لدراسة الحركة العلمية ، فتحدثت عن ازدهار الحياة العلمية في الاردن في عصر دولة المماليك الاولى ، وعن المؤسسات العلمية ، كالمدارس ومعاهد العلم • وخصصت جانبا هاما من الدراسة لتوضيح نظام التدريس فيها مع ضرب أمثلة لبعض هذه المدارس كالمدرسة الشافعية بالكرك ، ومدرسة صرغتمش بعمان ، والمدرسة السيفية بالصلت ، والمدرسة اليقينية بعجلون ، ومدرسة حسبان ، ثم تحدثت عن البيمارستانات ونظام التداوي فيها ، وأشرت في ذلك الى بيمارستان الكرك واختتمت دراستي عن الحياة العلمية بالحديث عن العلوم الدينية واللغوية والادبية ، والعلوم العقلية ، وترجمت لبعض العلماء الذين ينتمون للاردن وبرزوا في شتى العلوم والفنون •

أما الفصل الثاني عشر والاخير ، فقد ركزت فيه على دراسة بعض الآثار الاسلامية الباقية في الاردن • ففي مجال الاثار الدينية تحدثت عن المسجد الجامع في مدينة عجلون ، فتتبعت تاريخ انشائه ، والزيادات التي تعرض لها ، وتعرضت لذكر مظاهر الاصالة فيه ، وأثبت أن هذا المسجد الجامع بناء اسلامي الطابع ، وان منارته المربعة تتبع الاسلوب الشائع في صوامع الشام ، كما هو الحال في دمشق وحماة وحلب ، ومعظم صوامع المغرب والاندلس • وتكلمت كذلك عن الاثار المدنية كالحمامات ، وقدمت وصفا حيا لتقسيمات أحد هذه الحمامات ، وهو حمام وادي الكرك • أما الخانات فقد أوليتها اهتمامي الخاص ، اذ أجريت عليها دراسة ميدانية تطبيقية ، وقد اثبت أن هذه الخانات مملوكية الانشاء ، وليست عثمانية ، مصححا بذلك اراء طائفة من الباحثين ، وافكارا ترددت في نشرات دائرة الاثار العامة الاردنية حول هذا الموضوع • أما الاثار الحربية فتشتمل على آثار كل من قلاع : الشوبك والكرك وعجلون • أما خاتمة الرسالة فقد ضمنتها أهم ما توصلت اليه من نتائج •

ولا يسعني في هذا المجال الا أن أقدم خالص الشكر والعرفان الى استاذي الكبير الاستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، الذي تعهدني في مرحلة الدراسة الجامعية ، واشرف علي في مرحلتي الماجستير والدكتوراة وحباني بعطفه وعنايته ، وزودني بخلاصة توجيهاته ونصائحه ، واكسبني منهجه في البحث والتحليل ــ كما لا يسعني الا ان اوجه الشكر الى استاذي الدكتور احمد مختار العبادي ، الذي لم يضن علي بتوجيهاته القيمة في مرحلة اعدادي لمادة هذا البحث •

(٢)

عرض وتحليل لأهم مصادر البحث

اعتمدت في اعداد هذا البحث على مكتبة متنوعة المصادر والمراجع ، بعضها قديم عاصر مؤلفوها أحداث الفترة موضوع البحث ، وبعضها متأخر نسبيا ، ولكنه لا يقل أهمية عن المصادر المعاصرة ، بفضل ما ورد فيها من نقول من كتب ضائعة مفقودة ، أو من وثائق رسمية نقلوا منها بحكم عملهم في دواوين الدولة ، واتصالهم بالسلطة الحاكمة • وفيما يلي عرض تحليلي لاهم هذه المصادر مرتبة حسب نوعيتها •

١ ـ الوثائق :

الوثائق المخطوطة من المخلفات الاثرية التي لا تقدر قيمتها العلمية بثمن باعتبارها تراثا قوميا تاريخيا ، بالاضافة الى قيمتها في ميدان الابحاث الاثرية • ووثائق الوقف بالذات من أهم المصادر الاصلية التي ينبغي الرجوع اليها عند دراسة الاثار الاسلامية بأنواعها المختلفة ، لانها بالاضافة الى الاعتبار السابق تتضمن العديد من أسماء البلدان والقرى ووصف المنشآت العامة ، كما تستخدم بعض الاصطلاحات الفنية التي تعيننا على التعبير عن بعض العناصر المعمارية المعاصرة • ولذا فان لهذا النوع من الوثائق أهمية خاصة في دراسة الاثار المعمارية من العصر المملوكي ، بالاضافة الى أهميتها الكبرى في دراسة حضارة ذلك العصر من النواحي الاقتصادية والاجتماعية[٢] • ومن بين الوثائق التي تهم موضوع دراستي واستعنت بها كمادة علمية وثيقة وقف السلطان الاشرف شعبان (٧٦٤ ـ ٧٧٨ هـ / ١٣٦٣ ـ ١٣٧٧ م) ، المؤرخة في ٣ جمادى الاولى سنة ٧٧٧ هـ[٣] • والوقفية مدونة بخط نسخي واضح على درج من الرق يبلغ طوله نحو عشرين مترا ، الا أن أجزاءها الاولى والاخيرة مفقودة ، كما أن أجزاء كبيرة

---

(٢) عبد اللطيف ابراهيم : سلسلة الدراسات الوثائقية ، ج ١ ص ٨٣ •

(٣) وثيقة حجة وقف السلطان الاشرف شعبان ، محفظة ٨ رقم ٤٩ • بدار الوثائق القومية بالقاهرة •

من طرفها الايمن قد تآكلت • وموضوع هذه الوثيقة يدور حول أوقاف محبوسة للخاص السلطاني من بينها قرية آدر القريبة من الكرك ، وبستان وحمام بوادي الكرك ، وقد استعنت بمادة هذه الوثيقة في تسجيل صورة واضحة المعالم لاحدى القرى الاردنية ، وفي الاشارة الى عدد دورها ومساحة اراضيها • وعن كثير من المسميات الرومية التي ظلت حتى عهد الاشرف شعبان راسخة في الاذهان منذ عصر الرومان • كما افدت من هذه الوقفية في وصف احدى دور الكرك ، وتوضيح طريقة بناء المنشآت المدنية في الاردن ، وطرق تنظيمها ، والخامات المستعملة فيها • وعلى هذا النحو امكنني بفضل هذه الوقفية أن اعرض صورة حية واصيلة لجانب من جوانب الحضارة الاردنية في عصر دولة المماليك من خلال تعرضي لدراسة النواحي الاجتماعية والاقتصادية والاثرية •

٢ ـ الموسوعات :

ازدهرت حضارة مصر والشام في عصر دولة المماليك الاولى ازدهارا لم تشهده هذه البلاد من قبل • وقد وصف عصر المماليك بأنه عصر الابداع والاستنباط ، على الاخص من الناحية العلمية ، فقد برز فيه ثلاثة من علمائه اهتموا بتصنيف الموسوعات • الذي تعد من اعظم المخلفات الفكرية لعلماء الاسلام قاطبة ، لاتساع آفاق موضوعاتها ، واحتوائها على شتى صنوف المعرفة ، ومختلف انواع العلم ، فهي مصنفات سيكلوبيدية ، أو موسوعة رائدة في الفكر الانساني عامة هؤلاء العلماء الموسوعيون هم :

١ ـ شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن احمد بن عبادة البكرى المشهور بالنويري ، المتوفي سنة ٧٣٣هـ (١٣٣٢م) ، صاحب كتاب « نهاية الارب في فنون الادب » الذي يعتبر أولى الموسوعات التي ظهرت في العصر المملوكي • اما المنهج الذي اتبعه في كتابة الجزء التاريخي من موسوعته ، فهو الكتابة حسب الموضوعات • فكتب في تاريخ الدول دولة دولة ، متبعا في نفس الوقت المنهج الحولي في ذكر احداثها(٤) •

(٤) عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، الاسكندرية ١٩٦٧ ، ص ٨٤ •

وذكر ابن تغرى بردى نفسه أن النويري كان « فقيها مؤرخا بارعا ، وله مشاركة جيدة في علوم كثيرة وكتب الخط المنسوب »[٥] . حظى النويري بمكانة رفيعة ، ومنزلة سامية لدى السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون ، فقربه هذا اليه ، وأدناه منه ، ووكله في بعض أموره ، كما اسند اليه عددا من المناصب من بينها نظر الجيش بطرابلس [٦] ، ولهذا السبب كان النويري ثقة في رواياته ، اذ كان معاصرا للاحداث كما شاهد معظمها وعاينها بنفسه ، وذلك في الثلث الاول من القرن الثامن الهجري . وليس ادل على ذلك من اشتراكه في ثورة الناصر محمد بالكرك ، فهو يشير الى ذلك في قوله في احداث سنة ٧٠٩هـ : « وفيها في أوائل شهر ربيع الآخر توجهت من القاهرة الى الكرك والتحقت بالابـــواب السلطانية الى أن عـــاد الركاب الشريف السلطاني »[٧] . وقد اعتمدت على نهاية الارب في كثير من الموضوعات التي قمت بدراستها ، فافدت من رواياته في التاريخ السياسي ، وفي تخطيط المدن وفي دراسة ما يتعلق بالتجارة ، لاسيما النص الكامل الذي أورده وصفا للسيل الذي اجتاح مدينة عجلون في سنة ٧٢٨هـ فعرفت من خلاله نموذجا رائعا لتخطيط المدن الاردنية بمساجدها الجامعة ، واسواقها وقياسرها . كما افادني في اشارته الى وجود « دار الطعم » بمدينة عجلون ، وتناظر الوكالة في الديار المصرية ، فدلل بذلك على قيام علاقات تجارية خارجية بين مدينة عجلون ، والدول الاوروبية آنذاك[٨] .

٢ ـ شهاب الدين احمد بن محي الدين يحيى بن فضل الله بن المجلي بن دعجان العمري المتوفي سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) ، صاحب الموسوعة الكبرى الموسومة بمسالك الابصار في ممالك الامصار . هذه الموسوعة يكاد موضوعها يكون وقفا على المعلومات الجغرافية التي ينبغي

---

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٢٩٩ ، والمنهل الصافي ، ج ١ ص ٣٦١ .
(٦) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٧ ص ١٦٥ .
(٧) النويري : نهاية الارب ، ج ٣٠ لوحة ٥٠ «مخطوط» .
(٨) النويري : المصدر السابق ، ج ٣١ لوحة ٩٠ ـ ٩١ « مخطوط » .

لصاحب ديوان الانشاء أن يعرفها • ومع ذلك ، فقد مزج العمري العلم بالادب مزجا قويا ، فجاءت موسوعته اشبه بموسوعة النويري وان كانت الاخيرة اوسع مجالا ، واكثر اتساعا لانواع المعارف الانسانية المعروفة في زمانه(٩) • فقد تعمق العمري في فنون المعرفة تعمقا يشهد به ما اشتملت عليه موسوعته من شتى انواع العلوم والمعارف ، فكتب في الادب وفي الدين وفي التاريخ وفي الجغرافيا وفي الاثار • ويعبر الصفدي عن معارفه الواسعة بقوله : « ولم أر من يعرف تواريخ ملوك المغل من لدن جنكزخان وهلم جرا معرفته ، وكذلك ملوك الهند الاتراك ، واما معرفة الممالك والمسالك وخطوط الاقاليم ومواقع البلدان وخواصها فانه فيها امام وقته »(١٠) • ونجده في كل ما ينقله موفقا متحريا الحقائق ، متقصيا للتفاصيل ، ولقد عرفنا العمري بمنهجه الذي انتهجه في مصنفه المذكور فقال : « ولم أنقل الا عن أعيان الثقات ، من ذوي التدقيق في النظر والتحقيق للروايـــة ، واستكثرت ما امكنني من السؤال عن كل مملكة لآمن من تغفل الغفلاء ، وتخيل الجهالات الضالة ، وتحريف الافهام الفاسدة »(١١) ، لهذا كله يعتبر الباحثون كتاب مسالك الابصار كنزا ثمينا افاد منه كل من لحقه من المؤرخين وما زال هذا الكتاب الموسوعة مصدرا رئيسيا لتاريخ مصر والشام وحضارتها ، لاسيما ما يتعلق بمادته في العمران المدني ، والتجارة المملوكية • وقد افادني كثيرا في اعداد هذا البحث ، واعتمدت عليه اعتمادا خاصا عندما تطرقت الى دراسة طرق المواصلات ، والاسواق التجارية الموسمية في كل من زيزاء والعقبة(١٢) • كذلك افادني العمري في كتابه « التعريف بالمصطلح الشريف » الذي يعتبر مصدرا اصيلا لكل من كتب عن التقسيمات

---

(٩) عبد اللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر في العصرين الايوبي والمملوكي الاول ، ص ٣٢٥ •

(١٠) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٨ ص ٢٥٤ •

(١١) العمري : مسالك الابصار ، ج ١ ص ٢ ، ٦ •

(١٢) العمري : مسالك الابصار ، ج ٢ ق ١ لوحة ١٦٨ « مخطوط » •

الادارية ومراكز البريد بانواعه والمكتبات السياسية والديوانية(١٣)٠ فقد عرفت من خلاله اسماء مراكز البريد ، وطرق المواصلات المارة عبر الاردن ٠ وايا ما كان الامر ، فان موسوعة العمري مصدر هام لاغناء عنه لكل دارس لتاريخ العصر المملوكي وحضارته ٠ وقد اعتمد عليه القلقشندي اعتمادا يكاد يكون تاما في موسوعته « صبح الاعشى » ٠

٣ ـ شهاب الدين احمد بن عبدالله القلقشندي ، المتوفي سنة ٨٢١هـ (١٤١٨م) ، صاحب الموسوعة الكبيرة « صبح الاعشى في صناعة الانشا » يجدر بنا قبل كل شيء الاشارة الى ان هذه الموسوعة تختلف عن كل من موسوعتي النويري والعمري سالفتي الذكر ٠ فالنويري جنح الى الصنعة الادبية ، وكان الادب أو الثقافة العامة اسمى ما يهدف اليه ، بينما مزج العمري الادب بالعلم ، وان كانت تغلب على موسوعته المادة الجغرافية (سياسية واقتصادية) والاثرية ٠ اما القلقشندي فقد حصر نفسه في صناعة الانشاء ، واتخذ من ذلك مبررا لجمع اكبر قدر ممكن من المعارف الانسانية في عصره ٠ ومع أن النقل والجمع يكاد يكون السمة الغالبة على هذه الموسوعة ، الا انها مع ذلك في اعتبار الباحثين كنز ثمين لما تشتمل عليه من العلوم والمعارف والمصطلحات والمراسلات التي كانت شائعة في العصر المملوكي(١٤) ٠ فقد بحث فيها التقسيمات الادارية والوظائف بانواعها ، وسجل من خلال ذلك ما رواه وجمعه صورة واضحة للمجتمع المصري بوجه خاص بعاداته وتقاليده ، دون أن يقصر مع ذلك كله فيما اورده من مواد : التاريخ والجغرافيا والادب والاقتصاد

---

(١٣) مادة هذا الكتاب يقابلها في اصطلاح العصر مراسيم البروتوكول والمراسلات الدبلوماسية (محمد عبدالله عنان ، أبو العباس القلقشندي وكتابه صبح الاعشى ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٣م ، ص ١٥) ٠

(١٤) سعيد عاشور : صبح الاعشى مصدر لدراسة تاريخ مصر في العصور الوسطى ، بحث في كتاب « ابو العباس القلقشندي وكتابه صبح الاعشى » ص ٢٩ ٠ جوزيف نسيم ، علاقات مصر بالممالك التجارية الايطالية في ضوء وثائق صبح الاعشى ، بحث في كتاب أبو العباس القلقشندي وكتابه صبح الاعشى ، ص ١٤٩ ٠

وطرق المواصلات . معتمدا في ذلك على الوثائق الرسمية التي كانت في متناول يده ، فجاءت موسوعته صورة حية شاملة لحضارة العصر المملوكي لا بد لكل دارس لتاريخ المماليك من الرجوع اليها . وقد افدت من هذا الكتاب فائدة عظمى في تفسير العديد من المصطلحات التي كانت شائعة في عصر المماليك ، وفي دراستي للتقسيمات الادارية والوظائف الديوانية والدينية في منطقة شرقي الاردن ، وفي تصويري للمجتمع الاردني في العصر موضوع الدراسة .

٣ ـ كتب التاريخ :

أ ـ المصادر المعاصرة للاحداث :

١ ـ « زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة » لمؤلفه ركن الدين بيبرس بن عبدالله المنصوري الدوادار المتوفي سنة ٧٢٥هـ (١٣٢٥م) . كان بيبرس احد مماليك السلطان الملك المنصور قلاوون ، قلده مناصب هامة في الدولة من بينها نيابة السلطنة بالكرك ، وآخرها نيابة السلطنة بالديار المصرية ، وهو اعلى المناصب المملوكية على الاطلاق . وقد عرف عن هذا الامير أنه كان مهتما بعلم التاريخ ومصنفاته وأنه ألف فيه كتبا اهمها كتاب تاريخي يعتبر بحق من اهم المصادر التاريخية لدولة المماليك الاولى ، سيما ما يتعلق بتاريخه لاسرة قلاوون ، من المنصور حتى ابنه السلطان الناصر محمد . وهو من ثقات المؤرخين لمصر المملوكية ، باعتباره كان معاصرا للاحداث مشاركا لمعظمها ، فقد شهد الكثير منها وسجلها بعين الخبير المطلع وكشف النقاب عن كثير من اسرار المؤامرات التي كانت تحاك بين الامراء للاطاحة بالسلاطين . كما نقل الينا صورة حقيقية واقعية لفتح عكا ، واشتراكه في هذا الفتح بحكم كونه نائبا للكرك . وهو أيضا بحكم تدرجه في المناصب واشتراكه في عديد من المهام ، كان ملما باسرار الدولة ، عارفا بخفاياها ، فلم يتردد في تفسيره للعوامل التي دعت أمراء المماليك الى الاعتراض على رغبة الناصر محمد اتخاذ الكرك مقرا له ، فسجل أن ذلك هو السبب في نعتها بدار الهجرة لرغبة

الناصر الهجرة اليها واتخاذها دار ملكة • وهكذا يمكننا أن نقدر أهمية هذا الكتاب كمصدر معاصر للاحداث وان نصف رواياتـــه بالصدق ، خاصة ما كان يتعلق بتاريخ اسرة قلاوون • ولسوء الحظ لم يصل الينا من أجزائه الاحدى عشرة سوى الجزء التاسع ، الذي يؤرخ للسنوات من ٦٥٦هـ الى ٧٠٩هـ ، وهو الجزء الذي اعتمدت عليه في دراستي عن تاريخ المنطقة موضوع الدراسة •

٢ ــ كتاب « المختصر في تاريـــخ البشر » « للملك المؤيد اسماعيـــل ابن علي بن محمود بن شاهنشاه بن أيوب المشهور بأبي الفداء ، المتوفي سنـــة ٧٣٢هـ (١٣٣١م) يذكـــر ابن الوردي : أن أبا الفداء كان « شيخا محبا للعلم والعلمـــاء متقنـــا يعرف علوما ، ولقد رأيت جماعة مـــن ذوي الفضل يزعمون أنـــه ليس في الملوك بعد المأمون أفضل منه »(١٥) • بهذه الشهادة من ابن الوردي توكيدا لغزارة علمه وفضله ، يمكننا أن نضع كتابه المختصر موضعه الحقيقي بين مصادر العصر المملوكي الاول الهامة سيما ما يتعلق منها بالفترة التي شارك في احداثها • وأبو الفداء المعاصر لهذه الاحداث يمكن اعتباره شاهد عيان روى بصدق وامانة ما عاينه وشاهده في زمنه من احداث واهمها بالنسبة لنا فتح عكا ، الذي تم على يد السلطان الملك الاشرف خليل ، ثم ثورة الناصر محمد في الكرك واستعادته لسلطنته الثالثة • ومن الجدير بالذكر أن ابا الفداء كان من بين الامراء والنواب الذين قدموا الى الناصر محمد بعد نزوله دمشق قادما من الكرك في سنة ٧٠٩هـ (١٣٠٩م) • ويعبر أبو الفداء نفسه عن ذلك بقوله « وقدمت تقدمتي ومن جملتها مملوكي طقزتمر في يوم الاربعاء السادس والعشرين من شعبان المذكور ، فحصل من مولانا السلطان القبول والصدقة والمواعيد الصادقة بالتصدق علي بحماة على عادة أهلي واقاربي »(١٦) • ولقد خدم ابو الفداء الناصر محمد كثيرا ، وشارك في العديد من احداث هذه الفترة ، ولاخلاصه في خدمته ووفائه له اعاد اليه الناصر محمد حماة سنة ٧١٠هـ ،

---

(١٥) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ص ٢٩٧ •

(١٦) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٥٩ •

تكريما له • وقد صنف أبو الفداء بالاضافة الى كتابة المختصر كتابا جغرافيا قيما عنوانه « تقويم البلدان » فجمع بذلك بين التأليف التاريخي والجغرافي •

٣ ـ كتاب « كنز الدرر وجامع الغرر » لابي بكر بن عبدالله بن آيبك الدواداري المتوفي سنة ٧٣٦هـ (١٣٣٥م) • يعتبر هذا الكتاب من اهم المصادر العربية التي ارخت للدولة الايوبية وصدر دولة المماليك الاولى وينتمي ابن آيبك لاسرة شاركت في وضع احداث الحقبة التاريخية المذكورة فجده عز الديـن آيبـك المعظمي (ت ٦٤٥هـ) كان استادارا لكل مـن السلطان المعظـم عيسى ، والسلطـان الملك الناصر داود ، ثم تولى ولاية صرخد • وبفضله تم توسيع قلعة عجلون والزيادة فيها ، كما أنه اهتم باصلاح قلعة الازرق • وأبوه كان مقربا من السلطان الملك الاشرف خليل بن قلاوون ، والسلطان الملك الناصر محمد ، وفي عهديهما تقلد عدة وظائف في الدولة آخرها منصب كاشف القلاع في بلاد الشام • وقد توفي في الاردن سنة ٧١٣هـ (١٣١٣م) ، في وادي الزرقاء بـين عمـان وعجلون ، عندما كان متوجها للكشف على قلعة عجلون ، فنقل الى اذرعات حيث تم دفنه[١٧] • وابن آيبك نفسه كان صديقا للملك الكامل بن الصالح اسماعيل الايوبي ، كما كان في جملة من وقف من الامراء المماليك الى جانب الناصر محمد بن قلاوون عندما ثار بالكرك وتمكن من استعادة سلطنته الثالثة ، فهو اذن معاصر للاحداث بل ومشارك في صنعها • ولقد افدت من هذا السفر فوائد جمة ، ومن امثلة ذلك ، انني اعتمدت على روايته التي سجل فيها موقفه من قضية تنازل الناصر محمد عن العرش وذلك عندما توجه الى الكرك في سنة ٧٠٨هـ ، واختلق الامراء كتابا مزورا على لسانه يفيد تنازله عن العرش واجتمعوا لخلعه في دار النيابة • ويعبر ابن آيبك عن ذلك بقوله :

« ولم يتخلف من متخلف ، وكان العبد واضع هذا التاريخ قايما بينهم انظر لفعلهم وشينهم »[١٨] • اعتمد ابن آيبك في تاريخه

---

(١٧) ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ص ٢٦٧ •

(١٨) ابن آيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ص ١٥٧ •

للاحداث السابقة على وثائق ونقول هامة ضاعت في جملة ما ضاعت من الوثائق ، ولم تصل اليها ايدي غيره من المؤرخين ، ولذلك السبب ينفرد بذكر كثير من الاحداث الهامة والخطيرة **سيما ما يتعلق بتأكيده وجود قلعة الكرك من العصر الفاطمي**(١٩) • وهذا التأكيد في حد ذاته يدحض المزاعم القائلة بان الكرك بناء صليبي فقط ، وقد اشرت الى ذلك في دراستي عن تأسيس قلعة الكرك •

٤ ـ كتاب « البداية والنهاية » ، لعماد الدين اسماعيل بن ابي حفص عمر بن كثير القرشي المعروف بابن كثير المتوفي سنة ٧٧٤ هـ (١٣٧٢م) • ذكر ابو المحاسن ان ابن كثير كان : « قدوة العلماء والحفاظ ، وعمدة اهل المعاني والالفاظ ، وسمع وجمع وصنف ودرس وحدث وألف • وكان له اطلاع عظيم في الحديث والتفسير والتاريخ ، واشتهر بالضبط والتحرير ، وانتهى اليه علم التاريخ والحديث والتفسير »(٢٠) ، ويتمثل صدق هذا القول فيما اورده من اخبار في الاجزاء الاخيرة من الكتاب ، وهي أخبار موثوق بها ، تتسم بالصدق والضبط ، لانه شارك في معظم أحداثها ، وهي نتاج تجاربه الشخصية • وتتخذ هذه الاخبار فيما يتعلق باحداث الشام خاصة شكل المذكرات التفصيلية ، ولا عجب في ذلك لان من الطبيعي ان يهتم ابن كثير وهو مؤرخ دمشقي بالاحداث التي تخص بلاد الشام بشكل مفصل • وقد اعتمدت عليه في تاريخ كثير من الاحداث التي وقعت في عهد الناصر محمد بن قلاوون ، كقيامه بالثورة في الكرك سنة ٧٠٩ هـ وخروجه بقواته من الكرك الى دمشق واستيلائه عليها ، ويقول ابن كثير في ذلك : « وكنت فيمن شاهد دخوله يوم الثلاثاء وسط النهار في ابهة عظيمة وبسط له من عند المصلى ، وعليه ابهة الملك ، وبسطت الشقاق الحرير تحت أقدام فرسه ، كلما جاوز شقة طويت من ورائه »(٢١) • كذلك شاهد

(١٩) ابن آيبك : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٢٠٦ •

(٢٠) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ١٢٣ •

(٢١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٥١ •

ابن كثير عودة الناصر محمد من الحج في سنة ٧١٣هـ (١٣١٣م) ودخوله دمشق فعبر عن ذلك بقوله : « ثم جاء البريد فأخبر بدخوله الى الكرك ثاني المحرم يوم الاحد ، فلما كان يوم الثلاثاء حادي عشر المحرم ، دخل دمشق وقد خرج الناس لتلقيه على العادة ، وقد رأيته مرجعه من هذه الحجة على شفته ورقة قد ألصقها عليها »(٢٢) • وقد حذا ابن كثير في تاريخه حذو ابن الاثير في الكامل من حيث التزامه بالمنهج الحولي ، وما أورده من اخبار رغم عدم تقلده مناصب رسمية في الدولة ، تتسم بالصدق والتفصيلات الدقيقة بحكم اشتغاله بالعلوم الدينية ، كالفقه والتفسير والحديث •

ب ـ المصادر التاريخية المتأخرة :

١ ـ « السلوك لمعرفة دول الملوك » ، لتقي الدين احمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن ابراهيم البعلبكي الاصل ، المصري المولد المعروف بالمقريزي المتوفي سنة ٨٤٥هـ (١٤٤١م) • المقريزي هو عمدة المؤرخين المصريين في عصر المماليك بدون منازع ، وهو صاحب مدرسة تاريخية لها طابعها الخاص في الكتابة ولا تعود شهرته الى دقته التي لا نشك فيها بقدر ما تعود الى ثقافته الواسعة وعلمه الغزير ، بما يتصل بالدراسات التاريخية من موضوعات وسعة احاطته والمامه باحداث التاريخ • وتتضمن مؤلفاته على تنوع موضوعاتها تحليلا علميا دقيقا للظواهر الاجتماعية والعمرانية في المجتمع المصري في عصره • ويتمثل ذلك الاتجاه أصدق تمثيل في كتابه « المواعظ والاعتبار » ، وهو اعظم ما كتب في تاريخ الخطط المصرية • والذي يهمني في هذا البحث كتابه التاريخي الموسوم « بالسلوك لمعرفة دول الملوك » الذي استهدف من تأليفه ان يكون تاريخا للايوبيين والمماليك حتى عصره ، فغدا بحق مصدرا أساسيا لكل التواريخ المصرية في عصر هاتين الدولتين(٢٣) • في هذا الكتاب

(٢٢) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٤ ص ٦٨ •

(٢٣) محمد مصطفى زيادة : المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ، ص ١٣ •

نلخط عمق المؤلف وقدرته وامانتــه ، فتاريخه لاحداث العصر الايوبي ، تحرى فيه الضبط والتحري التاريخي الدقيق بحيث عرضه في صورة اقرب الى الواقع التاريخي ، ولذلك عد هــذا القسم من المصادر الاولية للعصر الايوبي لما اتسمت كتابته فيــه من التقصي والواقعية • اما حوادث زمنه فأقرب الى ان تكون مذكرات يومية دقيقة ، تصور لنا على نحو واقعي متكامل الاحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية في عصره ، دوره فيها دور شاهد عدل يروي ما شاهده وعاينه دون تحيز[٢٤] • وهكذا كان كتاب السلوك من المصادر الرئيسية لدراستي ، فقد استعنت بمادته الغزيرة في كثير من الموضوعات التي أقدمت على بحثها ، واعتمدت عليه في عرضي لبعض الحوادث التاريخية الهامة ، انفرد بذكرها دون غيره من مؤرخي العصر ، وأخص بالذكر منها اشارته لبنيان مدرسة عمان في سنة ٧٥٧هـ (١٢٥٦م) ، على يد الامــير صرغتمش ، واقدام هذا الامير على نقل القضاء والولاية اليها حتى جعلها « أم تلك البلاد »[٢٥] ، ومنها اشارته الى خان العقبــة والمقريزي اول مؤرخ يذكره صراحة[٢٦] ، وهو بذلك مكننا مــن تصحيح المعلومات التاريخية عن هذا الخان • كما يرجع اليه الفضل في تأكيد ما اصابته مدينة عمان من ازدهار في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري ، فقد ذكر ما يشير الى انها كانت مدينة عامرة كثيرة الخيرات ، يقصدها التجار واصحاب المصالح وينتجعها العلماء •

٢ ـ « تاريخ بيروت وأخبار الامراء البحتريين من بني الغرب » ، لصالح ابن يحيى بن صالح بن الحسين المتوفي بعد سنة ٨٤٠هـ (١٤٣٦م) •

---

(٢٤) محمد مصطفى زيادة : أحمد بن علي المقريزي ، بحث في كتاب « دراسات عن المقريزي » الهيئة المصرية للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧١م ، ص ٨ ـ وليم موير : دولة المماليك ، ص ٧ ـ كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ج ١ ص ٣٨٦ ، هاملتون جب : دراسات في حضارة الاسلام ص ١٧٠ •

(٢٥) المقريزي : السلوك ، ج ٣ ص ٣٠ •

(٢٦) المقريزي : السلوك ج ٣ ص ٢٨٥ •

هذا ا لكتاب نوع من التاريخ المحلي الذي يجمع بين تاريخ الاسرة الحاكمة ، وتاريخ مدينة بيروت التي تولت حكمها(٢٧) • ومع ذلك فان اهمية هذا التاريخ تتركز حول المعلومات الهامة التي نقلها الينا المؤلف عن حياة بيروت وما حولها من النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية • وهي معلومات واخبار موثوق بها ، اذ اعتمد المؤلف فيها على وثائق عائلية اطلع عليها بنفسه وذكرها في كتابه ، ومن هنا ترجع اهمية المادة التاريخية التي اوردها صالح بن يحيى لاعتمادها على النقل المباشر من الوثائق المحفوظة لدى أسرة المؤلف • وقد أفادني هذا الكتاب فيما اوردته عن الاخبار المتعلقة بالحصار الذي أحكمه على الناصر احمد بالكرك قوات مصر والشام في سنة ٧٤٣هـ (١٣٤٣م) ، واشتراك البحتريين في هذا القتال • وقد انفرد بذكر خبر خطير وهام ، وذلك في معرض سرده لاحداث الحصار : فقد ذكر ان الناصر احمد استخدم المدافع ، وهي اول مرة ينص فيها مؤرخ صراحة على استخدام هذا السلاح مما ترتب عليه نتائج هامة منها قدرة الناصر احمد على الصمود عامين كاملين • كذلك انفرد صالح بن يحيى بذكر السهام المكفتة التي كان يرميها الناصر احمد على المهاجمين من شراريف قلعة الكرك(٢٨) •

٣ ـ كتاب « الاعلام بتاريخ اهل الاسلام » ، لأبي بكر بن احمد بن محمد ابن عمر بن محمد بن عبد الوهاب الاسدي الدمشقي المعروف بابن قاضي شهبة ، المتوفي سنة ٨٥١هـ (١٤٤٧م) ، نشأ ابن قاضي شهبة نشأة علمية في أسرة اشتهر افرادها بالعلم ، وتفقه على علماء دمشق ، وتولى التدريس في مدارسها ، وافتاء دار العدل • وكان الفقه هو الصفة المميزة له ، فصنف فيه العديد من المصنفات حتى ان السيوطي وصفه بانه « فقيه الشام ورئيسها ومؤرخها »(٢٩) • وقد صنف كتابه المذكور وجعله ذيلا على تاريخ الذهبي وهـــذا

---

(٢٧)عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب ، ص ١١٠ •

(٢٨) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ •

(٢٩) السيوطي : نظم العقيان ، ص ٩٤ •

الكتاب لا يزال مخطوطا ، ويقع في سبعة اجزاء . وقد أفدت من هذا الكتاب فوائد كثيرة في تاريخي لثورة الناصر أحمد بالكرك ، فقد ذكر المؤلف تفاصيل دقيقة انفرد بنشرها واعتمد فيها على مصادر مفقودة لم تصل الينا ، فهو لذلك يعتبر المصدر الاول في تاريخ احداث هذه الفترة . كما أفادني في التاريخ الاقتصادي لمنطقة شرقي الاردن ، فذكر لنا ما يشير الى قيام أودية الكرك **بزراعة أشجار الجوز ، والاغوار بزراعة قصب السكر** ، واهتمام نائب دمشق بالاشراف على عملية قطعه وعصره واستخراج السكر منه ، شهورا طويلة من كل عام(٣٠) . كما اعتمدت عليه في ترجمة لجمهور من علماء الاردن وفقهائها ، مما كان له أعظم الاثر في اجلاء صورة الحياة العملية في هذه البلاد موضوع البحث .

٤ ـ « عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان » ، لبدر الدين محمود بن احمد ابن موسى بن أحمد بن حسين بن يوسف العينتابي المعروف بالعيني ، المتوفي سنة ٨٥٥هـ (١٤٥١م) . ولد في بلدة عينتاب الواقعة بين مدينتي حلب وانطاكية حيث كان ابوه يتولى القضاء فيها . ونشأ العيني في بيئة تشتغل بالعلم ، فدرس وتفقه ، ثم رحل في طلب العلم ، الى ان استقر اخيرا في القاهرة ، فعمل بالتدريس فيها ، ثم تولى منصب المحتسب في سنة ٨٠١هـ (١٣٩٩م) . وبسبب معرفته الجيدة للغة التركية نجح في الوصول الى بلاط السلطان المملوكي ، فارتفعت مكانته في نظر السلطان . وللعيني العديد من المصنفات في التفسير والحديث ، وعلوم اللغة والفقه والمنطق والعروض والتاريخ ، وعلى رأس مؤلفاته التاريخية جميعا كتابه العظيم « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » . ويبحث هذا الكتاب في التاريخ العام من بدء الخليقة حتى عام ٨٥٠هـ (١٤٤٦م)، وهو كتاب ضخم ، يتكون من خمسة وعشرين جزءا في تسعة وستين مجلدا لا تزال جميعها مخطوطة ، وقد اعتمدت على الاجزاء الاخيرة

---

(٣٠) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ٢ لوحة ١٤٢ ، ١٤٣ « مخطوط » .

من المخطوطة ، وتعتبر بحق مذكرات في غاية الاهمية • ومع ان العيني لم يعاصر فترة البحث الذي نحن بصدده ، الا انه نقل الينا اخبارا فريدة لم يتهيأ لغيره من معاصريه ان يتوصلوا اليها ، فقد امكنه بحكم صلته بسلطان مصر الاطلاع على وثائق ومصنفات لم يقدر لها ان تصل الى غيره من المؤرخين ، الامر الذي يرفع من قيمة كتابه ، ويجعله من اصدق المصادر في التاريخ المملوكي • وعلى هذا الكتاب اعتمدت بوجه خاص فيما يتعلق بالتفصيلات الدقيقة والنادرة في آن واحد ، التي اوردها عن الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة ، وما رواه عن ثورته بالكرك وخروجه لدمشق وخطة سيره ، والعيني بهذه التفاصيل ينقل الينا صورة حية عن اتصالاته مع أمراء الشام ونوابها ، ويورد نص هذه المراسلات • ومن خلال هذه التفصيلات التاريخية الدقيقة امكنني أن أجمع عددا كبيرا من اسماء القرى والاماكن الاردنية التي لم يذكرها غيره ، وساعدني ذلك على توضيح طبوغرافية المنطقة ومعرفة أقسامها الادارية •

٥ ـ كتاب « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » لجمال الدين يوسف بن تغري بردى المعروف بأبي المحاسن المتوفي سنة ٨٧٤هـ (١٤٦٩م) • كان أبو المحاسن تلميذا لكل من المقريزي والعيني ، الا ان تأثير استاذه المقريزي عليه فاق تأثير العيني ، حتى انه تمكن من ان يقف مع استاذه المقريزي موقف القرين او يكاد(٣١) ، الى حد انه ـ أعني أبا المحاسن ـ ذيل على السلوك تاريخا سماه « حوادث الدهور في مدى الايام والشهور » • ولم يلبث ابو المحاسن بعد وفاة استاذيه ان احتل مركز الصدارة بين المؤرخين المصريين ، وذلك في أواسط القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) •

(٣١) سعد زغلول عبد الحميد ، اهمية ابن تغري بردى لتاريخ المغرب والاندلس ، بحث في كتاب « المؤرخ ابن تغري بردى » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ، ١٩٧٤ م ص ١٢٨ •

ومن المعروف ان والده كان من إعيان أمراء المماليك ، وقد أهله ذلك لشغل عدد من المناصب الهامة في دولة المماليك الثانية ، نذكر من بينها نيابة حلب ودمشق • كما شارك في كثير من الاحداث التي وقعت في عهده ، اما الحوادث التي سبقته فقد اعتمد فيها على الرواية عن ابيه ، فكان يقول « حكى لي الوالد » ، أو « قال الوالد »(٣٢) • ولابن تغري بردى مصنفات عديدة أهمها « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » ، الذي اعتمد في كثير من مادته على المقريزي ، الى حد ان نقوله جاءت في كثير من الاحيان حرفية • ومع ذلك فان اجزاءه الاخيرة تتميز بالتفصيلات الصحيحة والمعلومات الدقيقة ، بحكم كونه معاصرا لتلك الاحداث مطلعا عليها • والكتاب في جملته يعتبر مصدرا أساسيا للحياة السياسية والادارية والاقتصادية في عصر دولة المماليك الاولى والثانية • وقد زودني ابو المحاسن بمادة غنية خاصة ما يتعلق بتاريخ ثورة الناصر احمد بالكرك ثم لجوئه اليها ، وما جرى بعد ذلك من محاربة الامراء له الى انلقي مصرعه • وابو المحاسن في كل ما يرويه من هذه الحوادث يتسم بالدقة والتقصي لعدد التجاريد التي وجهت من مصر والشام لحصار الكرك ، ولا غرو في ذلك فأبو المحاسن من المؤرخين المعروفين بسعة المعرفة وشدة التدقيق والتحري في كتابته(٣٣) ، وهو الى جانب ذلك مجتهد كدود أمين ، تخصص في التاريخ والتراجم فأبدع وأجاد •

٦ ـ كتاب « عيون الاخبار فيما وقع لجامعه من الاقامة والاسفار » لعمر ابن احمد بن علي الحلبي المعروف بابن الشماع ، المتوفي سنة

---

(٣٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٣٥٧ ، ٣٧٨ •

(٣٣) محمد مصطفى زيادة : المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ، ص ٣٥ ، محمود اسماعيل عبد الرزاق : منهج المؤرخ ابن تغري بردى في كتابه النجوم الزاهرة ، بحث في كتاب « المؤرخ ابن تغرى بردى » ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤م ، ص ١٢٠ ، ١٢١ •

٩٣٦هـ (١٥٢٩م) من فقهاء حلب وعلمائها ، اخذ العلم على علماء بلده ، ثم رحل في طلبه والاستزادة منه الى دمشق فالقاهرة فالقدس فمكة ، ثم استقر بحلب حيث انتهت اليه رئاسة الحديث . ويقع كتابه « عيون الاخبار فيما وقع لجامعه من الاقامة والاسفار » في ثلاثة اجزاء ما تزال مخطوطة . وقد سجل ابن الشماع في هذا الكتاب جميع الرحلات التي قام بها ، كما ضمنه اتصالاته برجال العلم ومدى استفادته منهم . واهم هذه الرحلات على الاطلاق تلك التي كان يقوم بها الى الحجاز لاداء فريضة الحج ، فكان دقيقا في ملاحظاته يذكر الاماكن التي يمر فيها ويصفها . وقد استفدت من هذه المخطوطة فائدة عظيمة ، اذ صححت بفضلها ما كان معروفا عند المؤرخين من ارجاع خانات الاردن الى العصر العثماني ، ولكن ابن الشماع في رواياته يثبت انها مملوكية ، فقد مر بكل من خان القطرانة وخان قياد (ضبعة)[٣٤] . وهو بذلك ساعدني على أن أحسم النقاش الذي كان قائما بين الباحثين حول نسبة هذه الخانات وتاريخها .

٤ ـ كتب التراجم :

على الرغم من الاقبال الشديد في عصر دولة المماليك على الكتابة في التاريخ السياسي بحيث ظهر في هذا العصر اعظم مؤرخي مصر الاسلامية ، ممن ابدعوا في تاريخ احداث مصر والشام في العصر الاسلامي عامة وعصر المماليك بوجه خاص ، الا ان اروع نتاج الكتابة التاريخية عند المصريين والشاميين تتجلى في الواقع في كتب التراجم اكثر مما تتجلى في التواريخ ، وكتب التراجم في الحقيقة تجمع بين السيرة والاخبار السياسية العامة والمحلية . وقد تبين لي أهمية كتب التراجم عندما عثرت في بعضها على فقرات هامة قد تبدو من قبيل السرد العام أثناء الترجمة ، الا انها في

(٣٤) ابن الشماع : عيون الاخبار فيما وقع لجامعه من الاقامة والاسفار ، ج ٢ لوحة ٣٥ ، « مخطوط » .

الحقيقة تتضمن من الافكار الهامة ما فتح لي المجال لاستنباط كثير من الحقائق المتعلقة ببعض مظاهر الحضارة في المنطقة موضوع الدراسة . ومن بين هذه الكتب التي اعتمدت عليها في اعداد هذه الرسالة :

١ ـ كتاب « الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة » ، لاحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمود المعروف بابن حجر العسقلاني المتوفي سنة ٨٥٢هـ (١٤٤٨م) تلقى ابن حجر علومه في القاهرة ودمشق ، وزار العديد من مدن الشام ، وقد اهلته معرفته بالعلوم الدينية وتقلده ببعض الوظائف الشرعية من تأليف عدد من المصنفات في الحديث والفقه والتاريخ والتراجم . والكتاب الذي نحن بصدده هو « الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة » ، ترجم فيه لابرز شخصيات القرن الثامن الهجري . وقد استفدت من تراجمه في تتبع النشاط العلمي في الاردن ، كما استطعت ان التقط من بعض العبارات الواردة في ترجمته لسنجر الجاولي ما يوضح لنا اعماله الانشائية في الكرك ، وذلك عندما اوكل الناصر محمد الى هذا الامير في سنة ٧١١هـ (١٣١١م) مهمة بناء المدرسة والبيمارستان وخان السبيل ودار النيابة فيها(٣٥) .

٢ ـ كتاب « الضوء اللامع في اخبار اهل القرن التاسع » ، لمحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عثمان المعروف بالسخاوي المتوفي سنة ٩٠٢هـ (١٤٩٦م) . السخاوي من اشهر تلاميذ ابن حجر اذ لازمه صغيرا فحبب اليه دراسة الحديث والتاريخ والتراجم ، وقد حظى السخاوي برعاية استاذه ابن حجر ، وتأثر بكتابته . وللسخاوي مؤلفات عديدة في الحديث والفقه والتاريخ والتراجم ، اما كتابه الذي يهمنا هنا وهو « الضوء اللامع في اخبار أهل القرن التاسع » ، فقد ترجم فيه للمشهورين من الرجال

---

(٣٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ ص ٢٦٦ .

والنساء في هذا القرن استكمالا لكتاب الدرر الكامنة لاستاذه ·
وعلى الرغم من اقدام السخاوي على تجريح معظم من ترجم لهم في الضوء اللامع الى حد ان السيوطي نعته بالمؤرخ الجارح[٣٦] ، فان هذا الكتاب يعد فخر مؤلفات السخاوي · وقد أفدت منه في تاريخي للحياة العلمية في منطقة شرقي الاردن ، اذ تمكنت من التعرف على عدد كبير من العلماء والفقهاء والادباء ينتمون الى هذه المنطقة ·

هذه نبذة بسيطة التحليل بعض المصادر التي اعتمدت عليها في اعداد هذا البحث ، بالاضافة الى عشرات المصادر الاخرى المخطوطة والمطبوعة ، التي لا تقل اهميتها عن المصادر التي عرضت لها في هذه الدراسة ·

---

(٣٦) يقول السيوطي : « ثم اكب على التاريخ فأفنى فيه عمره ، واغرق فيه عمله ، وسلق فيه اعراض الناس ، وملأه بمساوىء الخلق ، وكل ما رموا به ان صدقا وان كذبا » (انظر : نظم العقيان ص ١٥٢) ·

الباب الاول

التاريخ السياسي لمنطقة شرقي الاردن في عصر دولة المماليك الاولى

الفصل الاول

أهمية منطقة شرقي الاردن ومظاهر اهتمام بيبرس بها

١ ـ طبوغرافية المنطقة والحدود الجغرافية ٠

٢ ـ الاهمية الاستراتيجية لمنطقة شرقي الاردن :

أ ـ مرحلة السيطرة الصليبية للمنطقة ٠

ب ـ مرحلة التبعية للحكم الايوبي والمملوكي ٠

٣ ـ سقوط امارة الكرك الايوبية ٠

٤ ـ مظاهر اهتمام الظاهر بيبرس بالمنطقة ٠

٥ ـ موقفه من حركة العصيان التي قامت بالكرك ٠

٦ ـ منشآت بيبرس في كل من :

١ ـ عجلون ٠

٢ ـ الصلت (السلط) ٠

٣ ـ الاغوار ٠

أ ـ جسر دامية ٠

ب ـ مقام ابو عبيدة ٠

٤ ـ الكرك ٠

٥ ـ مؤتة ٠

٦ ـ الشوبك ٠

طبوغرافية المنطقة والحدود الجغرافية

أ ـ الطبوغرافية التاريخية :

من المعروف ان اسم « شرقي الاردن » أطلق لأول مرة على هذه المنطقة موضوع الدراسة ابان فترة الاحتلال الصليبي(١) ، ويعتبر وليم الصورى مؤرخ مملكة بيت المقدس الصليبية اول من نقل هذه التسمية الينا ، اذ عرفها باسم Ultra Jordanem ، وذكرانها تضم بلاد جلعاد وعمون ومؤاب ، وفي موضع آخر وسمها باسم Trans Jordanem (٢) . وقد أخذ بهذه التسمية بعض مؤرخي الحركة الصليبية ، ونقلها عنهم جمهور كبير من المؤرخين المحدثين(٣) . ومنذ ذلك الحين أصبحت تعرف في المراجع الحديثة باسم Trans Jordan

وهذه التسميـــة تعني « ما وراء الاردن » او « شرقي الاردن » . فالتسمية على هذا النحو قديمة وليست من التسميات الحديثة او المعاصرة

---

(١) ينفرد فردريك بيك دون غيره من المؤرخين بأن هذه التسمية كانت تعرف بها المنطقة منذ فترة موغلة في القدم ، وعلى وجه التحديد بين عامي ٨١٠ ، ٧٨٣ ق.م ، عندما غزا الاشوريون سورية وفلسطين (فردريك بيك : تاريخ شرقي الاردن ، ص ١٣) .

(٢) Guillaume de Tyr,
Rec ueil des historiens de croisades, H. occ. vol. 1, P. 321, 398, 499, 501.

(٣) Quatremere, Histoire des Sultans Mamlouks, Paris, 1837 - 1845, vol. 2, P. 238.
Kammerer, Petra Et la Nabatene, Paris, 1929, P. 349.
Smith, The historical geography of the Holyland, London, 1896, P. 537.
Smail, Crusading warfare, New york, 1967, P. 60. 207.
Poliak. Feudalism in Egypt, Syria, Palestine, and the London, 1939, P. 8.
Conder, The Latin kingdom of Jerusalem, London, 1897, P. 78.
Runciman, Ahistory of the Crusades, Cambridge, 1967, vol. 2, P. 230.
Ziadeh, Urban Life in Syria, Beirut, 1953, P. 68.

فيليب حتى : العرب تاريخ موجز ـ دار العلم للملايين ، طبعة ثالثة ، بيروت ١٩٦٥م ص ١٦ ، سعيد عاشور : تاريخ الحركة الصليبية ، ج ١ ص ٢٧٩ ، احمد مختار العبادي : قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام ، بيروت ١٩٦٩م ص ٢٠٨ .

فيما يعتقد بعض الباحثين • ومنطقة شرقي الاردن تشكل في اعتباري وكما اوضحت في دراساتي السابقة[٤] ، **وحدة جغرافيه قائمة بذاتها ، كان يعبر عنها في العصر الايوبي « بامارة الكرك الايوبية »** • وهي الامارة التي أسسها الملك الناصر داود بن المعظم عيسى ، وكان يتجسد فيها الكيان الاردني الحالي ، او النطاق السياسي والحدود التي تشغلها حاليا المملكة الاردنية الهاشمية •

وتشكل هـــذه المنطقة قطاعا جغرافيا طوليا ، فهي تمتد مـــن نهر اليرموك[٥] ، Hiromax شمالا الى معان وخليج العقبة جنوبا ، ومـــن الازرق وباير والجفر[٦] شرقا الى نهر الاردن والبحر الميت[٧] ووادي عربة غربا • وتؤلف اراضي شرقي الاردن هضبة عظيمة تبلغ متوسط ارتفاعها الفي قدم ، وتتعرض هذه الهضبة للرياح العنيفة التي تهب جافة مـــن

---

(٤) قمت باعداد دراسة وافية عن هذه الامارة ، تقدمت بها للحصول على درجة الماجستير من جامعة الاسكندرية ، بعنوان « امارة الكرك ودورها السياسي والاقتصادي » ، رسالة ماجستير بمكتبة كلية آداب جامعة الاسكندرية ، صفحة ١٩٠ – ١٩١ •

(٥) نهر اليرموك : ويسمى بالشريعة القبلية ، ومياهه من الفوار وحوران والينابيع والاودية التي تصب في مجراه من منطقة الكفارات شمالي الاردن • ويلتقي مع نهر الاردن بقرب قرية تعرف بالبقارة (الباقورة الحالية) بين القصير وبحيرة طبرية (العمري : مسالك الابصار ج ١ ص ٨٢ ، ابن سباهي ، اوضح المسالك ، لوحة ٢٧ « مخطوط ») •

(٦) الازرق : بلفظ اللون واحة جميلة تقع على الطرف الشمالي الغربي من وادي السرحان الى الشمال من باير ، وبها قلعة بناها الملك الناصر داود على طرف الصحراء على طريق الحج المؤدية الى الحجاز ، وكانت مركزا هاما لقوافل التجارة والحجاج في العصر الوسيط • والازرق الان منطقة زراعية وسياحية هامة في الاردن (البغدادي : مراصد الاطلاع ، ج ١ ص ٥٤ ، (Le strange, P. 406,)

باير : واحة داخلة في الصحراء ، تقع الى الشمال من الجفر كانت احدى محطات القوافل قديما ، ولا تزال موجودة للان •

الجفر : واحة في الصحراء الاردنية تقع الى الشمال الشرقي من معان ، وهي مأهولة بالسكان حتى الان •

(٧) البحر الميت : ويسمى البحيرة المنتنة ، طولها ٧٦ كم ، ويبلغ اعظم عرض لها عند عين جدي ١٧ كم ، ومساحتها ١٠٥٠ كيلو مترا مربعا • وهي أكبر بحيرة في بلاد الشام ، وتنخفض عن سطح البحر بنحو ٣٩٢ مترا ، وهي بذلك أوطأ بقعة تحت سطح البحر في العالم (مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ١ ق ١ ، ص ٨٣ ، ٨٤) •

الصحراء او رطبة من البحر • وهي باردة في فصل الشتاء خاصة في منطقة البلقاء[٨] ، فكثيرا ما تنزل الثلوج في هذا الفصل وتغمر مناطق واسعة من البلاد• على أن المنطقة بوجه عام تتسم بمناخ منعش يفسر وصفها قديما بانها من احسن المناطق الصحية في العالم[٩] ، فضلا عن مناظرها الطبيعية الخلابة وخصوبة تربتها •

وتخترق هذه المنطقة سلاسل من الجبال ، ففي الشمال تقوم جبال عجلون الممتدة بين نهري اليرموك والزرقاء (يبوق) ، ويتراوح ارتفاعها ما بين ٨٠٠ـ٩٠٠م فوق سطح البحر • وتكسو هـــذه الجبال غابات كثيفة من اشجار **البلوط والسنديان والسرو** ، بالاضافـــة الى اشجار الزيتون المتشابكة وكروم العنب العديدة • ويتخلل هذه الجبال اودية عميقة واخاديد ، وتتفجر في سفوحها ينابيع وعيون تسهم في سقيا العديد من القرى ، وتقوم عليها زراعة الفاكهة ، وقد عرفت لهذا السبب باسم لبنان الاردن[١٠] • ومن بين هذه الجبال « جبل عوف » حيث تنهض مدينة عجلون[١١] بقلعتها السامقة التي لعبت دورا هاما ابان مرحلة الصراع الصليبي الاسلامي بهذه المنطقة • والى الشمال من عجلون تقوم مدينة اربد[١٢] ، الواقعة على مفترق الطرق بين دمشق وبغداد وبيت المقدس والقاهرة • اما المنطقة الواقعة الى الشمال من اربد ، وتمتد حتى نهر اليرموك ، وتعرف في المصادر العربية « بالاقحوانة »[١٣] (تسمى الآن بالكفارات) ، فقد اشتهرت بقيام عدد من التجمعات العمرانية الهامـــة

---

(٨) المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٧٩ •

(٩) Smith, The historical geography of the Holy Land, P. 535.

مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ١ ق ١ ص ٣٢٠ ، ٣٢١ •

(١٠) مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ١ ق ١ ص ٢٣١ •

(١١) عجلون : بفتح العين المهملة وسكون الجيم وضم اللام وواو ونون في الاخر ، مدينة من الاردن فيها حصن حصين ، مزودة بالمياه الجارية ، وتزرع فيها فواكه كثيرة (الدمشقي : نخبة الدهر ، ص ٢٠٠ ، السباهي : اوضح المسالك ، لوحة ١٩١ « مخطوط ») •

(١٢) اربد : بالفتح ثم السكون والباء الموحدة ، مدينة بالاردن قرب طبرية تقع على يمين طريق مصر (البغدادي : مراصد الاطلاع ، ج ١ ص ٤١ ، ابن طولون : مفاكهة الخلان ، ج ١ ص ٢٧١) •

(١٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١٣٩ •

نذكر منها : بيت راس ، وحبراص ، وجدر (أم قيس)[١٤] التي اشتهرت بمياهها المعدنية الحارة (حمة جدر)[١٥] • والى الجنوب من مدينة عجلون تقع مدينة جرش[١٦] ، بآثارها الرومانية العظيمة التي تصارع الازمان • اما المنطقة الواقعة شرقي جرش وعجلون فمجرد سهول شاسعة تشكل مع سهول حوران اخصب المناطق الزراعية في شرقي الاردن ، وتعتمد زراعتها على مياه الامطار ، ويتناثر فيها عدد كبير من القرى ، وكانت تعرف قديما بالبرية[١٧] •

أماجبال البلقاء فتقع الى الجنوب من جبال عجلون ، وتمتد ما بين نهري الزرقاء والموجب (أرنون) ، ويتراوح ارتفاعها بين ٨٥٠ ــ ١٠٠٠ م فوق سطح البحر ، وقد عرفت باسم « جبال عمون » ، على سفوح جبال

---

(١٤) بيت راس : مدينة الى الشمال من اربد ، احدى مدن الديكابوليس ، كان اسمها Capitolias ، وكانت احدى كور الاردن على الطريق من دمشق الى طبرية • اشتهرت بالخمر ، يقول حسان بن ثابت :

قد عفا جاسم الى بيت رأس فالجوابي فحارث الجولان

ثم يقول :

كان سبيئة من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماء

وذكرها ابو نواس حيث يقول :

وتبسم عن أغر كأن فيه مجاج سلافة من بيت راس

(انظر : حسان بن ثابت : ديوانه ، ص ٧١ ، ١٨٥ ، ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٧٨ ، ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ص ٧٧٧) •

Dussaud, Topographie historique de la Syria, Paris, 1927, P. 327.

حبراص : مدينة من عمل دمشق من جهة القبلة ولها عمل وبأرضها مغارة العجب (الدمشقي نخبة الدهر ، ص ٢٠٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢٧٤) •

جدر : بالراء والتحريك ، قرية بالاردن (البغدادي : مراصد الاطلاع ، ج ١ ص ٢٤٣ ، (Le strange, P. 509.).

(١٥) حمة جدر : تقع في منخفض وادي اليرموك عند اقدام عقبتها ، ويقول العمري : وعليها قبو معقود ببناء خشن طويل ، وبه احواض ، يقال أن كل حوض لعلة من العلل (مسالك الابصار ، ج ١ ص ٨٢) • ولا تزال هذه الحمة موجودة حتى الان •

(١٦) جرش : بضم الجيم وفتح الراء وآخره شين ، مدينة من بلاد حوران ، كانت مركزا عمرانيا هاما في العصر الروماني ، وقد اضحت خاوية على عروشها (العمري : مسالك الابصار ، ج ١ ص ٢٣١) • ولا تزال آثارها العديدة ترى اليوم لمن يمر في الطريق من دمشق الى عمان •

(١٧) أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٢٨ •

البلقاء وعند الحافة الشرقية لوادي الاردن تقوم مدينة الصلت (السلط)[18] بقلعتها الاسلامية الحصينة • وفي الجهة الجنوبية منها تقع مدينة حسبان[19] التي لعبت دورا هاما في العصرين الايوبي والمملوكي • وتتوسط مدينة عمان[20] او عمون القديمة (وكانت تعرف ايضا باسم فيلادلفيا) اقليم البلقاء بآثارها الرومانية والاسلامية • وقد تنازعت هذه المدن الثلاثة زعامة البلقاء في فترة الحكم المملوكي ، كما اشتهرت عمان والبلقاء بصفة خاصة بسهولها الخصبة وقراها العديدة حتى سميت لذلك « بمعدن الحبوب »[21] ومن مدن البلقاء الزرقاء وزيزاء[22] ،

(18) الصلت : بفتح الصاد المهملة وسكون اللام ، وفي الاخرتاء مثناه فوقية ، كانت في العصر الاسلامي مدينة هامة ، وبها قلعة حصينة ، وهي من الاردن في جبل الغور الشرقي جنوبي عمان (ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٤٦ ، ابن سباهي : اوضح المسالك لوحة ١٨٠ « مخطوط ») •

(19) حسبان : بضم الحاء وسكون السين المهملتين ، وفتح الباء الموحدة ، ثم ألف ونون في الاخر • مدينة لها قلعة خربة واقليم يشتمل على نيف وثلاثمائة قرية • وهي مدينة عامرة ولها واد به اشجار وأرحية وبساتين وزروع وكانت قاعدة البلقاء (ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٤٦ ، ابن سباهي : اوضح المسالك لوحة ١٢٢ « مخطوط ») •

(20) عمان : بفتح العين المهملة والميم المشددة ، وألف ونون في الاخر ، مدينة من البلقاء ، وهي رسم كبير ولها ذكر في تواريخ الاسرائيليين ، والى جنوبها يمر نهر الزرقاء الواقع على درب حجاج الشام ، وفيها يقول الفرزدق :

فحبك اغشاني بلادا بغيضة الى وروميا بعمان أقشرا

وقد أطلق عليها قديما عمون أو ربة عمون ، وهي عاصمة العمونيين منذ ١٢٠٠ ق•م ، وامتدت مملكتها من نهر الزرقاء (يبوق) شمالا الى نهر الموجب (ارنون) جنوبا وامتدت غربا حتى نهر الاردن • وقد ازدهرت في العصر الهلليني والروماني والبيزنطي لوقوعها على طريق القوافل التجارية القادمة من الجزيرة العربية والبحر الاحمر • (البكري : معجم ما استعجم ، ج ٣ ص ٩٧٠ ، ابن سباهي : اوضح المسالك ، لوحة ١٩٦ « مخطوط » ، يوسف درويش غوانمة : مدينة عمان الاردنية في التاريخ الاسلامي الوسيط ، بحث في ندوة الحضارة الاسلامية ، بجامعة الاسكندرية اكتوبر ١٩٧٦م) •

وانظر كتابي (تاريخ مدينة عمان وحضارتها) منشورات دار اللواء للنشر-عمان •

(21) المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٧٥ •

(22) الزرقاء : مدينة الى الشمال من عمان على طريق قوافل الحاج الشامي ، يمر منها نهر الزرقاء ، يقول العماد الكاتب :

ولم انس بالزرقاء يوم وداعنا أنامل تدمى حيرة للتندم
اعدتك يا زرقاء حمراء انني بكيتك حتى شيب ماؤك بالدم

(ابو شامة : الروضتين ، ج ١ ص ٦٧٩ — ٦٨٠) •

والازرق الواحة الجميلة الواقعة على الطرف الشمالي الغربي من وادي السرحان[٢٣] • ويشق هذه المنطقة وادي الزرقاء الذي ينبع من جبال البلقاء بالقرب من مدينة الزرقاء ، ويصب في نهر الاردن شمالي جسر دامية وعلى بعد ٧٠ كم من البحر الميت ، بالاضافة الى الاودية التي تتفجر منها الينابيع العديدة مثل وادي عمان ووادي حسبان ووادي الصلت • والى الشرق من البلقاء على سيف البادية تقوم واحة الازرق بقلعتها الاسلامية الحصينة ، ومياهها الغزيرة الوافرة[٢٤] •

اما جبال مؤاب والشراة فتمتد جنوبي البلقاء من نهر الموجب شمالا الى خليج العقبة جنوبا ، وقد جعل ابن حوقل هذا الاقليم ناحيتين متميزتين هما : (الجبال والشراة)[٢٥] ، وذكر انهما في غاية الخصب والسعة وان عامة سكانها عرب • واعلى قمم جبال الشراة : جبل هارون ويقع الى الجنوب الغربي من البتراء ، وعليه مقام النبي هارون في رأس وادي خشيبة ويبلغ ارتفاعه ١٣٣٦ م فوق سطح البحر[٢٦] • ويمثل هـــذا الاقليم بلاد (مؤاب) و (أدوم) ، التي تردد ذكرها في كتب التاريـــخ القديمة • وكان لهذا الاقليم دور بارز في العصر الوسيط ، ففيه نهضت مدينة مؤتة ، التي شهدت اول معركة على مستوى دولي خاضها العرب

= زيزاء : قرية كبيرة من قرى البلقاء ، تقع على مقربة من عمان ، كانت تتوسطها بركة عظيمة مشهورة ، كما كانت محطة لقوافل الحجاج ولهم سوق للتجارة قال ياقوت لاحد الشعراء :

تذكرت ليلى يوم اصبحت قافلا بزيزاء والذكرى تشوق وتشغف

(ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ص ٩٦٦ ، أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٢٤٧) •

(٢٣) يعتقد الجيولوجيون ان هذا الوادي كان نهرا ثم جفت مياهه ، ويستدلون على ذلك من كثرة الواحات الموجودة في مجراه

Grant, the syrian desert P. 36.

(٢٤) يقول ابن الاثير : فخرج الوليد ومعه ناس من خاصته ومواليه فنزل بالازرق على ماء له بالاردن (الكامل ، ج ٤ ص ٢٥٧) وانظر :

Musil, Arabia Petraea, Moab, Edom, vol. 1, P. 211.

(٢٥) ابن حوقل : صورة الارض ، ص ١٦٠ •

(٢٦) نعوم شقير : تاريخ سيناء ، ص ٤٧٠ •

في عصر النبوة(٢٧) . وقرية الحميمة(٢٨) ، التي ظهرت بها اول حركة سرية في تاريخ الاسلام ، فمنها خرج دعاة للهاشمية ، وانتشروا في العالم الاسلامي للاطاحة بالامويين . وعند الطرف الجنوبي الشرقي للبحر الميت ، تقع مدينة الكرك(٢٩) ، بقلعتها العملاقة التي ما زالت اطلالها تروي لنا امجاد هذه المدينة العظيمة ، والدور الهام الذي لعبته في فترة حاسمة من التاريخ الاسلامي الوسيط ، واعني بها فترة الصراع الصليبي في بلاد الشام . وقد اصبحت الكرك في العصر الايوبي حاضرة (امارة الكرك الايوبية) ، ثم تحولت الى نيابة هامة من نيابات دولة المماليك الاولى ، والى الجنوب منها وعند مدخل وادي موسى ترتفع قلعة الشوبك(٣٠) ، بأبراجها الشاهقة وموقعها الحصين ، لتستأثر بدور بارز وهام في تاريخ هذه المنطقة في طليعة عصر الحركة الصليبية وابان فترة الحكم الايوبي والمملوكي . وما زالت هذه القلعة ماثلة للعيان وتسجل ابراجها صفحات مشرقة من تاريخنا الاسلامي الوسيط . وعند اقدام هذه القلعة وفي بطن وادي موسى الجميل الذي طرزته الطبيعة بمناظرها الساحرة وشاحا متعدد الالوان ، تقوم اطلال البتراء(٣١) ، عاصمة دولة الانباط العربية ذلك المركز الحضاري العظيم ، الذي لا يزال يحتفظ بقسم كبير من آثار

---

(٢٧) عبد العزيز سالم : الدولة العربية ، ص ٣٩٧ .

(٢٨) حميمة : بضم الحاء وميمين مفتوحتين بينهما ياء ، قرية على مرحلة من الشوبك وقد خرج منها بنو العباس الى الخلافة بالعراق (ياقوت : المشترك وضعا ص ٢٧٠ ، العمري : مسالك الابصار ، ج ٢٠ مجلد ٣ لوحة ٤٤١ « مخطوط ») .

(٢٩) الكرك : بفتح الكاف والراء وكاف أخرى ، اسم لمدينة وقلعة مشهورة في طرف الشام من نواحي البلقاء من ناحية جبال الشراه ، وهي على سن جبل عال تحيط بها اودية سحيقة الا من جهة الربض (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ق ١ ص ٣٦٢) وقد ورد اسمها في بعض المصادر القديمة ومنها التوراة تحت اسماء مختلفة ، والكرك كلمة آرامية الاصل جاءت تصحيفا للكلمة كرخا او كاركا وتعني (القلعة او المدينة المحصنة القائمة بأعلى تل) . وعن اصل الاسم واشتقاقه ومدلوله (انظر رسالتي الماجستير امارة الكرك ودورها السياسي والاقتصادي ، ص ١ ـ ٨) .

(٣٠) الشوبك : بالفتح ثم السكون ثم الباء الموحدة المفتوحة وآخره كاف ، قلعة حصينة في اطراف الشام بين عمان وايلة قرب الكرك (البغدادي : مراصد الاطلاع ج ٢ ص ١٣٢) .

(٣١) البتراء : وعرفت في المصادر العربية بالرقيم ، مدينة تقع بالقرب من البلقاء منحوتة بيوتها كلها وجدرانها من صخر كأنها حجر واحد (الاصطخرى : مسالك الممالك ، ص ٦٤) .

المنشآت النبطية الدارسة • اما مدينة العقبـــة (أيلة)[٣٢] ، فتقـــع في الطرف الجنوبي لهذه المنطقة عند نهاية الذراع الشرقي للبحر الاحمر ، فهي بندر الاردن منذ أقدم العصور ، لعبت دورا رائدا في تجارة العالم القديم والوسيط وحتى المعاصر[٣٣] • وعلى الامتداد الشرقي لهذه المنطقة تقع مدينة معان[٣٤] على حافة الصحراء ، وقد خدمت هذه المدينة حركة الاتصال بين الشام والجزيرة العربية والديار المقدســـة طوال قرون عديدة •

اما انهار جبال مؤاب والشراة ، فنذكر منها نهر الموجب الذي يبلغ طوله حتى مصبه في البحر الميت ثمانين كيلو مترا ويجري هذا النهر في أخدود يصل عمقه الى ٣٠٠٠ قدم[٣٥] ، وقـــد طرزت ضفتاه بالمزارع والبساتين ، ويقع عليه (حمام الموجب) المشهور بمياهه المعدنية الحارة • وهناك أودية أخرى هامة في هذا الاقليم ، قوام معظمها مياه الينابيـــع العذبة ، ومن أشهر هذه الوديان : وادي زرقاء ماعين[٣٦] ، الذي ينبع بالقرب من مادبا[٣٧] ، ويتخذ هذا الوادي مجرى عميقا ويتعرج كالحية من بين الخمائل والادواح ، ويشق طريقه في ارض خصبة حتى ينتهي في

---

(٣٢) ايلة (العقبة) : بفتح الهمزة وسكون المثناة من تحت ولام وهاء ، مدينة على ساحل بحر القلزم (الاحمر) ، وهي آخر الحجاز ، كان بها زرع يسير ، وهي على طريق حجاج مصر ، ذات تجارة هامة (البكري ، معجم ما استعجم ، ج ١ ص ٢١٦ ، ياقوت : المشترك وضعا ، ص ٣١) •

(٣٣) Heyd, Histoire du Commerce du Levant au moyen age, vol. 1, P. 9.

(٣٤) معان : بضم الميم وبالعين المهملة ، ثم ألف ونون ، مدينة صغيرة على مرحلة من الشوبك ، كانت فيما مضى في العصر الاسلامي حصنا من الشراة على طريق الحاج الشامي ، كما كان يعقد بها سوق في غدوهم ورواحهم (الدمشقي : نخبة الدهر ، ص ٢١٣ ، ابن سباهي : اوضح المسالك ، لوحة ٢٤٨ « مخطوط ») •

(٣٥) مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ١ ق ١ ص ٩١ •

(٣٦) يبدو هذا الوادي من اسمه أنه يعتمد على مياه العيون ، فاسم ماعين اختصار من ماء عين وحذفت الهمزة تخففا •

(٣٧) مادبا : مدينة قديمة في منطقة البلقاء ورد ذكرها في التوراة ، وصار لها شأن كبير في العصر الروماني ، ثم في العصر البيزنطي (عبد العزيز سالم : الدولة العربية ، حاشية ٤ ص ١٠٢) •

البحر الميت ، وتقوم عليه اشهر الحمامات المعدنية في منطقة شرقي الاردن واسمها (حمامات زرقاء ماعين)(٣٨) • والى الجنوب من الكرك يقع وادي الحسا ، ويفصل جبال الكرك عن جبال الطفيلة(٣٩) ويمر بخان الحسا او قلعة الحسا(٤٠) ، وينتهي في البحر الميت عند طرفه الجنوبي ، ويغذي هذا الوادي عيون غزيرة المياه • ومن الاودية الهامة ايضا : وادي الكرك ووادي الشوبك ووادي موسى ، ثم وادي عربة الذي يبدأ جنوبي البحر الميت وينتهي عند خليج العقبة •

وما دمنا بصدد الحديث عن الطبوغرافية التاريخية لمنطقة شرقي الاردن ، فالأمر يستلزم ان نشير هنا الى غور الاردن(٤١) ، ذلك المنخفض العظيم والسهل الفسيح الذي يفصل شرقي الاردن عن فلسطين • ويبدأ جنوبي بحيرة طبرية(٤٢) ، ويتجـه جنوبا الى بيسان(٤٣) وأريحا(٤٤) ،

(٣٨) تتراوح حرارتها بين ٥٥ر٥ – ٦٠ درجة مئوية ، والعناصر المالحة الرئيسية الموجودة فيها هي : الصوديوم وكلوريد الكالسيوم ، والمغنيسوم ، بالاضافة الى الكبريت ، وتستعمل في معالجة الامراض الجلدية والعصبية (مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ١ ق ١ ص ٩٥) •

(٣٩) طفيل : بضم الطاء وفتح الفاء وياء ساكنة ولام ، قلعة بوادي موسى قرب البيت المقدس (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ص ٥٤١) • وهي نفس مدينة الطفيلة الحالية •

(٤٠) الحسا : بالفتح والقصر موضع بالشام بقرب الكرك ، اظنه واد (البغدادي : مراصد الاطلاع ، ج ١ ص ٣٠٢) • وكانت الحسا احدى المحطات الهامة للقوافل التجارية العابرة من هناك •

(٤١) الغور : بفتح الغين المعجمة وسكون الواو وفي آخرها راء مهملة • وغور الاردن بالشام بين البيت المقدس وحوران ، سمي الغور لانه غائر بين جبلين وسائر بلاد الشام مرتفع عليها ، وفي طرفه الشمالي بحيرة طبرية ، اما الجنوبي فالبحيرة المنتنة (ياقوت : المشترك وضعا ، ص ٣٢٦) •

(٤٢) ابن حوقل : صورة الارض ، ص ١٦٠ •

(٤٣) بيسان : بفتح الباء وسكون الياء ، مدينة صغيرة على نهر الاردن من اعمال دمشق ، ذات بساتين ونخيل (المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٦٢) • وهي احدى مدن الديكابوليس وكانت تسمى في العصر الروماني باسم Scythopolis

(٤٤) اريحا : مدينة بقرب بيت المقدس ، من اعمال الاردن بالغور ، ذات نخل وموز وسكر كثير (القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ، ص ١٤٢) •

والبحر الميت حيث ينتهي في مدينة زغر(٤٥) ، الواقعة في أقصى الطرف الجنوبي من البحر الميت وهو سهل فسيح خصيب وافر الغلال كثير القرى(٤٦) ، تبلغ مساحته حوالي ٦٨١ كيلو مترا مربعا ، وهو لانخفاضه عن مستوى سطح البحر ، اتسم مناخه بالحرارة الشديدة صيفا والاعتدال في فصل الشتاء ، ولم تكن الثلوج تسقط عليه(٤٧) ، فاتخذه الخلفاء والملوك والسلاطين مشتى لهم ، يلوذون به من برد الشتاء القارس(٤٨) ، فشيدوا فيه القصور والمجالس الخلوية لهذا الغرض ، ونعته الجغرافيون بانه « أفضل وأطيب وألذ ثمارا وأكثر نخيلا »(٤٩) وغور الاردن يسمى في مواضع عديدة منه بحسب القرى او الاماكن الشهيرة التي تقع فيه(٥٠)، وقسمه بعض الجغرافيين العرب الى ثلاثة اقسام : الغور الاعلى ، وهو غور القصير (الشونة الشمالية حاليا) وبيسان ، والاوسط وهو عمتا (ابو عبيدة حاليا) ودامية واريحا ، والاسفل وهو غور زغر(٥١) . ولقد ارتبطت منطقة شرقي الاردن بفلسطين عن طريق عدد من الجسور أقيمت على نهر الاردن او نهر الشريعة(٥٢) ، منها جسر الصنبرة الواقع قريبا من ملتقى نهر اليرموك بنهر الاردن ، والجسر العادلي الواقع جنوبي عقبـــة أفيق(٥٣) ، ثم جسر سامة المقارب لقرية المجامع(٥٤) ، ثم جسر دامية(٥٥) .

---

(٤٥) زغر : بضم الزاي وفتح الغين وآخره راء مهملة . تقـــع بمشارف الشام في طرف البحر الميت المعروف باسم البحيرة المنتنة ، وهي مدينة حارة كثيرة الخيرات ، تشتهر بالتجارة وبصناعة النيل ، وثمار البلح (ابن حوقل : صورة الارض ، ص ١٦٩ ، البغدادي : مراصد الاطلاع ، ج ١ ص ٥١٤) .

(٤٦) ياقوت : المشترك وضعا ، ص ٣٢٦ .

(٤٧) ابن حوقل : صورة الارض ، ص ١٦٠ .

(٤٨) ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ص ١٨١ ، زكي محمد حسن : القصور الاموية في شرقي الاردن ، مجلة الكتاب ، المجلد الاول ، الجزء الثاني ديسمبر ١٩٤٥م ص ١٥٨ .

(٤٩) المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٧٩ .

(٥٠) العمري : مسالك الابصار ، ج ١ ص ٨٢ .

(٥١) الدمشقي : نخبة الدهر ، ص ٢٠١ .

(٥٢) العمري : مسالك الابصار ، ج ١ ص ٨٢ .

(٥٣) افيق : بفتح الهمزة وكسر الفاء وياء ساكنة . قرية قرب العقبة التي تشرف على الاردن والغور ، وبها سميت العقبة عقبة افيق (ياقوت : المشترك وضعا ، ص ٢٦) .

(٥٤) ويطلق عليه الان جسر المجامع .

(٥٥) العمري : مسالك الابصار ، ج ١ ص ٨٢ .

وبفضل ما تميزت به هذه المنطقة من المناخ المعتدل والاراضي الخصبة والموقع الجغرافي الفريد عمرت هذه المنطقة منذ القدم ، واصبحت مهد حضارات متعاقبـــة ، تتمثل آثارها في الاطـــلال الباقيـــة والمباني الدارسة[٥٦] الكثيرة ، التي تتناثر هنا وهناك من اقصى الشمال الى اقصى الجنوب ، ولهذا السبب استأثرت باهتمام اليونان والرومان وعدوها من أجمل ولاياتهم[٥٧] ٠

ب ـ الحدود الجغرافية :

كانت منطقة شرقي الاردن تنقسم في عصر دولة المماليك الى قسمين متميزين : الجنوبي منهما ومركزه الكرك ، وقد اصبح يشكل احد النيابات الست الهامة في الشام[٥٨] ، وهي (نيابة السلطنة بالكرك) ٠ أما القسم الشمالي ، فكان يشتمل على نيابة عجلون وولاية البلقاء ٠ وكانت لنيابة الكرك شأنها شأن النيابات الاخرى نظامها الاداري الخاص بها ، وتتميز باستقلال يكاد يكون كاملا عن النيابات الاخرى فيما يتعلق بادارة شؤونها الداخلية[٥٩] ٠ أما القسم الشمالي من المنطقة ـ يشتمل على ولاية البلقاء ونيابة عجلون ومنطقة الاغوار ـ فكان تابعا لنيابة دمشق مـــن ضمن صفقتها القبلية[٦٠] ٠

---

(٥٦) بيركهارت : رحلات بيركهارت (سوريا الجنوبية) ج ٢ ، ص ١٥٠ ٠

(٥٧) فولني : ثلاثة اعوام في مصر وبر الشام ، ج ١ ص ٢٠٠ ٠

(٥٨) النيابات الست في الشام هي : نيابة دمشق ، حلب ، حماة ، طرابلس ، صفد ، الكرك ٠ وذكر بعضهم نيابة سابعة هي : نيابة غزة ، واول من انشأ هذه النيابة هو الملك محمد ابن قلاوون فأبو المحاسن يقول : (مدينة غزة هو الذي مصرها وجعلها على هذه الهيئة ، وكانت قبل كآحاد قرى البلاد الشامية ، وجعل لها نائبا وسمي بملك الامراء ، ولم تكن قبل ذلك الا ضيعة من ضياع الرملة) ، انظر : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ١٩٣ ، وأيضا القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ص ١٦٣ ، ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ص ٤٢ ٠

(٥٩) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ص ١٨٠ ٠

(٦٠) يقول العمري : (وهذه الصفقة أولها من الجهة القبلية البلقاء ومدينتها حسبان ثم الصلت ثم عجلون ، وجبل عوف ومدينته الباعوثة وعجلون اسم القلعة ٠٠) التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٧٨) وانظر : القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٠٣ ، ١٠٦ ٠

ويمكننا ان نلاحظ عن طريق تتبع المصادر العربية ان هذه الحدود الجغرافية لهذه الاقسام تتفق على نحو يكاد يكون متقاربا مع الحدود الحالية لدولة الاردن • فنيابة الكرك كانت تبدأ من العقبة (أيلة) ، وقيل العلا وعقبة الصوان[٦١] جنوبا ، وتمتد حدودها الشرقية ابتداء من الطريق القديم المؤدي الى الجزيرة العربية ، ويشرع من الجفر وباير والازرق عبر بادية الشام ، كما يحدها من الغرب البحر الميت ووادي عربة وتيه بني اسرائيل (سيناء) ، وتنتهي حدودها الشمالية قاطع نهر الموجب الى زيزاء ، ويقدر العمري طولها من الجنوب الى الشمال بمسافة عشرين يوما بسير الابل تقريبا[٦٢] •

ويحد ولاية البلقاء منطقة نهر الموجب جنوبا ، ووادي الزرقاء الواقع جنوبي مدينة جرش شمالا ، ونهر الاردن والاغوار غربا ، والازرق والبادية شرقا[٦٣] •

أما نيابة عجلون فتمتد من نهر الزرقاء جنوبا الى نهر اليرموك (الشريعة القبلية شمالا)[٦٤] • ومن نهر الاردن والاغوار غربا حتى البادية شرقا

---

(٦١) عقبة الصوان : عقبة هينة ، تقع الى الجنوب من مدينة معان على بعد ثلاثة مراحل وهي احدى محطات الحاج الشامي (انظر : العمري : مسالك الابصار ج ٢ ق ١ لوحة ١٧١ « مخطوط ») •

(٦٢) ـ العمري التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٨٣ ، القلقشندي • صبح الاعشى ، ج ٤ ص ١٥٦ ، ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ٤٣ •

اما الدمشقي فيقول : « ومن جند الكرك : اللجون والحسا والازرق والسلط ووادي موسى ، ووادي بني نمير ، وجبل الضباب ، وجبل بني مهدي ، وقلعة السلع ، وارض مدين ، وارض القلزم ، وارض الريان (صرخد) ، وبالغور الزرقاء والازرق والجفار والتيه وزغر » • لم نأخذ بقول الدمشقي لان المصادر العربية الاخرى اثبتت عكس ذلك ، فصرخد لم تكن تابعة للكرك ولا البلقاء او الزرقاء ، ولا الجفار ولا تيه بني اسرائيل • فهذا القول به كثير من المبالغة • (انظر : الدمشقي ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، ص ٢١٣) •

(٦٣) العمري : مسالك الابصار ، ج ٣ ق ٣ لوحة ٤٤١ « مخطوط » •

(٦٤) سمى العمري نهر الاردن حتى مصبه ببحيرة طبرية بالشريعة الشمالية ، وعند خروجه من البحيرة يقول : « تتلاقى هي والشريعة القبلية بقرية تعرف بالبقارية » • وارى ان هذه القرية هي مانسمية اليوم قرية الباقورة الى الشمال من الشونة الشمالية (القصير المعيني) • (انظر : العمري : مسالك الابصار ، ج ١ ص ٨٢) •

وتضم هذه النيابة عددا كبيرا من المدن والقرى أهمها : اربد وحبراص وبيت راس ، وملكا وجدر (ام قيس) ، والظليل ، والمفرق ، وايدون ، وارحاب والرمثا وغيرها من المدن والقرى[٦٥] ، وكان كل من ينسب الى هذه المنطقة يسمى بالعجلوني[٦٦] .

وتشتمل هذه النيابة على منطقة الصويت[٦٧] ، التي تبدأ من شرقي جبال عجلون وجرش حتى أم الجمال في بادية الشام ، وسميت قديما بأرض البرية[٦٨] .

ومن الجدير بالذكر ان هذه الحدود الجغرافية بين الاقسام المختلفة لمنطقة شرقي الاردن ـ هي في الواقع حدود تقريبية ، فالمنطقة في حد ذاتها وحدة جغرافية وطبيعية وبشرية متكاملة لا يمكن تجزئتها .

---

(٦٥) اما الطره الواقعة الى الشمال من الرمثا . فكانت تابعة لعمل اذرعات (درعا) .

(٦٦) فمثلا نرى ان من ينتسب الى مدينة حبراص شمالي اربد وجنوبي نهر اليرموك يسمى بالعجلوني مثل « نعمان العجلوني الحبراصي الشيخ العالم العلامة الفقيه العارف .. » (انظر : المحبي : خلاصة الاثر ، ج ٤ ص ٤٥٥) .

(٦٧) العمري : مسالك الابصار ، ج ٣ ق ٣ لوحة ٤٤١ « مخطوط » ، بيركهارت : رحلات بيركهارت (سوريا الجنوبية) ، ج ٢ ص ٤٢ ، ٤٣ . اما الدمشقي فيقول « مدينة السلط ولها عمل كبير كالزرقاء ، والصويت ، وجبل بني عوف وجبل بني هلال » . والمصادر التاريخية تثبت غير ذلك ، فجبل عوف الذي عليه مدينة عجلون جعله تابعا للسلط ، ومنطقة الصويت الواقعة الى الجنوب من اذرعات حتى نهر الزرقاء جعلها أيضا تابعة للسلط وكذلك صرخد . لذا لم نأخذ بالمعلومات التي جاء بها الدمشقي لعدم دقتها (انظر : نخبة الدهر ص ٢٠١) .

(٦٨) يقول ابو الفداء : « وخلفه ـ اي جبل عوف ـ البرية ويسكنه الان فلاحون » (انظر : تقويم البلدان ، ص ٢٢٨) .

(٢)

الاهمية الاستراتيجية لمنطقة شرقي الاردن

حظيت منطقة شرقي الاردن بأهمية استراتيجية خاصة منذ أقدم العصور ، بما حباها الله به من موقع فريد : فهي تشغل مكانا وسطا بين التجمعات الحضارية في الشرق الادنى منذ أقدم العصور ، وكانت دروبها تشكل حلقة الوصل بين مصر والشام والحجاز وفلسطين وبلاد الرافدين • فكانت هذه الدروب شبكة من المسالك والطرق التي تعبرها تجارة العالم القديم القادمة في بحار عدن والزنج وبحر الحبشة الذي كان يعرف أيضا ببحر القلزم لتفرغها في ثغر أيلة ، وتحملها القوافل البرية الى الشام ومصر والعراق • هذا الموقع الذي تفردت به منطقة شرقي الاردن ، هو الذي دعا شعوب العالم القديم الى التهافت على السيطرة عليها ، وترتب على ذلك ان اصبحت هذه البلاد بوتقة انصهرت فيها عبر حقب التاريخ حضارات متعددة ، تركت بصماتها واضحة فيما يتناثر هنا وهناك بالمنطقة من آثار عمرانية ومعمارية ترجع الى فترات زمنية متعاقبة • ويمكننا ان نقسم الاهمية الاستراتيجية للمنطقة الى مرحلتين :

أ ــ مرحلة السيطرة الصليبية للمنطقة •

ب ــ مرحلة التبعية للحكم الايوبي والمملوكي •

أ ــ مرحلة السيطرة الصليبية للمنطقة :

تنقسم بلاد الشام استراتيجيا الى مناطق اربعة :

١ ــ السهل الساحلي • •

٢ ــ المنطقة الجبلية •

٣ ــ منطقة الوديان في الوسط •

٤ ــ المنطقة الداخلية وتمتد عبر الصحراء •

ومع ذلك فبلاد الشام الداخلية تشمل مناطق زراعية خصبة وافرة المياه كثيرة الغروس والمزروعات ، منها تلك المحيطة بكل من حلب ودمشق، ومنطقة عجلون ومؤاب[٦٩] بشرقي الاردن • ومن المعروف ان الصليبيين لم يتمكنوا من وضع أيديهم على كل هذه الاجزاء ، وانما اقتصرت سيطرتهم على الساحل وبعض المنطقة الجبلية ، هذا الى جانب بعض المواضع في منطقة الوديان بالوسط ، وظلت معظم المنطقة الوسطى والمنطقة الداخلية خارج حدود سيطرتهم •

وكانت دمشق أهم مدينة مؤثرة على مملكة بيت المقدس اللاتينية ، وكانت تمارس تأثيرا سياسيا يفوق بكثير غيرها من مدن الشرق الادنى الاسلامي ، ولذلك كانت مهمة الدفاع عن الطرق المؤدية منها الى مملكة بيت المقدس أمرا حيويا • وكان لزاما على من اراد من المسلمين الوصول الى الساحل الفلسطيني حيث تقع كل من صور وصيدا ان يمر عبر بانياس•ولهذا السبب اتخذ الصليبيون فيها قلعة بانياس[٧٠] Subeiba بهدف مراقبة المسالك المؤدية الى دمشق من جهة الساحل[٧١] • وكان على من يرغب منهم الوصول الى عكا ان يمر بالقسم الشمالي مـــن شرقي الاردن[٧٢] (منطقة عجلون) ، عبر اربد فالقصير (الشونة الشمالية) ، وهو الطريق الذي يمتد جنوبي بحيرة طبريا عند جسر الصنبرة وينتهي في عكا • وقد خدم هذا الطريق حركة التجارة وقوافلها التي تتردد ما بين دمشق وعكا ابان مرحلة الصراع الصليبي في بلاد الشام فكانـــت تسلكه قوافل الجمال باعتباره اقل وعورة من طريق بانياس المخصصة لقوافل البغال التي تتحمل السير في مثل تلك الشعاب[٧٣] •

(٦٩) Oman, History of the art of war in the middle ages, vol. 1, P. 254.

(٧٠) بانياس : قلعة ومدينة تقع قرب بحيرة الحولة عند سفوح جبل حرمون (الشيخ) كانت بيد الفرنج فاسترجعها نور الدين زنكي ، ومها سهول زراعية خصبة (ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٩٠) •

(٧١) Smail, Crusading warfare, P. 207.
Oman, History of the art of war, vol. 1, P. 257.

(٧٢) Smail, Crusading Warfare, P. 207.

(٧٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٩٩ •

حاول الصليبيون السيطرة على القسم الشمالي من شرقي الاردن ، ولكنهم لم يوفقوا في ذلك • ولما كان نهر الاردن والاغوار مانعا طبيعيا يصعب اجتيازه ، فقد بنوا القلاع الحصينة في : صفد وطبرية والطور وكوكب الهواء ، مستهدفين من ذلك احكام السيطرة عليه وعلى جميع المسالك المؤدية الى دمشق ، ويأمنوا غائلة اي خطر يقبل عليهم من هذا الطريق ، ولهذا السبب فان سيطرتهم لم تتجاوز نهر الاردن الى مرتفعاته الشرقية • وازاء ذلك أمر صلاح الدين الامير عز الدين أسامة أحد خواصه في سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) ببناء قلعة عجلون بأعلى جبل عوف • وقد وفق أسامة هذا كل التوفيق في اختيار الموقع ، بحيث تمكنت قلعة عجلون تحقيق الهدف : من احكام هيمنتها بشكل متواصل على كل المنطقة الممتدة على طول نهر الاردن بين بحيرتي طبرية والبحر الميت ، بل تجاوزت ذلك الى احكام سيطرتها على سلسلة المرتفعات الفلسطينية الواقعة غربي وادي الاردن ، من بيت المقدس الى الطور وصفد(٧٤) ، بالاضافة الى المرتفعات الشرقية للنهر ، والقسم الشمالي من الاردن(٧٥) ، ذلك القطاع الهام الذي يشكل خط الدفاع الاول عن دمشق نفسها ، الذي بقي بيد المسلمين طيلة الوجود الصليبي في بلاد الشام •

اما القسم الجنوبي من منطقة شرقي الاردن ، فقد تبين للصليبيين منذ الوهلة الاولى أهميتها الاستراتيجية الحيوية ، وذلك لاعتبارات عدة منها :

١ ـ تحكمها في تجارة البحر الاحمر والجنوب العربي(٧٦) ، وفي حركة الاتصال التجاري والعسكري بين مصر والشام والحجاز وبلاد الرافدين(٧٧) ، خاصة وانها اصبحت الطريق الوحيد المؤدية الى

---

(٧٤) Johns, (C.N.), "Medieval", QDAP, vol. 1, 1931, P. 29.
(٧٥) Muller, Castles of the crusades, P. 58.
(٧٦) Quatremere, Histoire des Sultans Mamlouks. vol. 2, P. 240.
Kammerer, Petra, at la Nabatene, P. 349.
(٧٧) Heyd Histoire du commerce, vol. 1, P. 173.
Setton, A History of the crusades, vol. 1, P. 603.
Oman, History of the art of war, P. 258.
سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ ص ٧١٥ •

مصر بعد احتلال الفرنج للساحل السوري وفلسطين . ولما كانت هذه المنطقة تقع بالقرب من مملكة بيت المقدس فقد اعتبرها الفرنج خط دفاعهم الاول من ناحية الشرق ، فهي ظهيرة بيت المقدس ضد هجمات المسلمين الموجهة من الشرق(٧٨) .

٢ ـ الاهمية الاقتصادية التي كانت تتمتع بها هذه المنطقة نتيجة توافر غلاتها(٧٩) ، بالاضافة الى الرسوم التي كانت تفرض على القوافل الاسلامية المارة بها(٨٠) .

٣ ـ وقوعها على التخوم الشمالية لبلاد الحجاز ، وهي على هذا النحو دهليز الحرمين الشريفين وفي استطاعة من يسيطر عليها من الفرنج ان يتحكم في حركـــة قوافـــل الحاج الشامي والمصري والمغربي معا(٨١) . وهي بالاضافة الى ذلك كله وسيلة ضغط على المسلمين اذ تهدد اقدس مقدساتهم في مكة والمدينة ، ويعبر العمري عن هذه الحقيقة بقوله : « وجلس في هام الاسلام مكان عمامته ، وجثم على أنفاس الحجاز فلم يدع نفسا تصعد من تهامته »(٨٢) .

وقد حدث ما يؤكد هذا القول في سنة ٥٠٩هـ (١١١٥م) عندما اجتاحت القوات الصليبية منطقة جنوب شرقي الاردن ، واستقر بهـــم المقام في الشوبك ، حيث أعادوا بنـــاء حصنها وشحنوه بالرجال والعتاد . وفي السنة التالية وطئت خيولهم مياه البحر الاحمر في أيلة (العقبة) وأسسوا بها قلعة بحرية في جزيرة فرعون Le Graye وشحنوها بالرجال والسلاح.

---

(٧٨) العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ ق ٢ لوحة ٣٨٩ « مخطوط » .

(٧٩) ابن جبير : الرحلة ص ٢٧٦ ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ١٩٧ ، العمري : مسالك الابصار ، ج ٢ ق ٣ لوحة ٤٥٥ « مخطوط » .

Oman, OP. cit. P. 254.
ziadeh. Urban life in Syria, P. 68.

(٨٠) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٧٦ .

Oman, op. cit, P. 258.

(٨١) احمد عزت عبد الكريم : التقسيم الاداري لسورية ، مجلة كلية آداب جامعة القاهرة مايو ١٩٥١م ، ص ١٢٨ .

(٨٢) العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ ق ٢ لوحة ٣٨٨ « مخطوط » .

ثم استكملوا حلقات هذا السوار المنيع من الاستحكامات العسكرية في سنة ٥٣٧هـ (١١٤٢م) ، عندما اعادوا بناء قلعة الكرك • واصبحت المنطقة الممتدة من الكرك الى العقبة على هذا النحو احدى البارونيات الاربع العظيمة التابعة لمملكة بيت المقدس ، وأعظمها شأنا وأكثرها خطورة على بلاد الاسلام(٨٣) • واصبحت قلاعها مراكز للمد الاستعماري الصليبي ومنطلقا أمام حركة السيطرة الاقتصاديـــة للفرنـــج ، ومحطات للحراســـة والمراقبة(٨٤) ، وقدر لهذه التحصينات لمناعتها أن تصمد امام هجمات صلاح الدين ، ولم تستسلم الا بعد ان سقطت مملكة بيت المقدس • وهكذا استمر الوجود الصليبي في جنوبي الاردن ما يقرب من ثلاثة أرباع القرن ، وذلك من سنة ٥٠٩هـ ــ ٥٨٥هـ (١١١٥م-١١٨٩م) •

ب ــ مرحلة التبعية للحكم الايوبي والمملوكي :

أدرك سلاطين البيت الايوبي الاهمية الاستراتيجية التي تتمثل في منطقة شرقي الاردن ، وليس ادل على هذا الادراك الواعي من جانبهم وعظم موقعها من اهتمامهم ، مـــع أنهم لـــم يفرطوا فيها أمام مطامـــع الفرنج والحاحهم • ففي الحملة الصليبية الخامسة على دمياط سنـــة ٦١٥هـ (١٢١٩م) ، تنازل الايوبيون لهم عن بيت المقدس والساحل الشامي ، ولم يفرطوا قط في الكرك والشوبك ، وأصروا على الاحتفاظ بهما عندما ألح الصليبيون على امتلاكهما مع القدس ، مقابل جلائهم عـــن الديار المصرية(٨٥) • ولقد اولىالايوبيون هذه المنطقة اهتماما خاصا باعتبارها همزة الوصل بين بلاد الشام وبلاد الحجاز والجزيرة العربية ، فحرصوا على توفير الامـــن والاستقرار في ربوعهـــا ومهدوا مسالكها ، وأنشأوا البرك(٨٦) ، لسقيا العابرين من فجاجها وابتنوا القلاع لاحكام سيطرتهم على كل دروبها ، وتأمينا لشحنات التجارة الشرقية التي تمر بها ، وحماية

---

(٨٣) Oman, op. cit, P. 258.

(٨٤) Smail, crusading warfare, P. 60

(٨٥) لمزيد من التفاصيل عن هذه النقطة انظر : رسالتي الماجستير : امارة الكرك ودورها السياسي والاقتصادي ص ١٦٨ ــ ١٧٠ •

(٨٦) الذهبي : سير اعلام النبلاء ، ج ١٣ ق ١ لوحة ١٤٦ « مخطوط » •

لمستودعات المؤن والامدادات العسكرية ، والذخائر والاموال[٨٧] المودعة بقلاعها • فالملك المعظم عيسى تولى بناء قلعة الصلت بعد سنة ٥٩٤هـ (١١٩٨م) ، والملك الناصر داود هو الذي أنشأ قلعة الازرق في سنة ٦٣٤هـ (١٢٣٦م) • وهكذا احكم الايوبيون قبضتهم على كل المنطقة ، ولم تلبث منطقة شرقي الاردن أن أصبحت تمثل خط الدفاع الاول عن دمشق والديار المقدسة في وجه الخطر الصليبي الذي ما زال جاثما في الساحل الشامي •

وترتب على استقرار الامن في المنطقة ان ازدهرت الحركة التجارية في البلاد ، ونمت مدنها ونشطت حركة التجارة فيها ، وأقرب الامثلة على ذلك ان أصبح لمدينة عمان الواقعة على طريق تجارة الهند والصين منذ القدم صلات تجارية واسعة امتدت الى بغداد شرقا[٨٨] ، فأمها التجار وانتجعوها بمتاجرهم •

ولم تتوقف اهمية المنطقة استراتيجيا واقتصاديا بعد انضوائها في فلك الحكم المملوكي في مصر ، ذلك ان المماليك اهتموا بها وأولوها جانبا كبيرا من عنايتهم ، ولم تلبث ان اصبحت مركزهم الاثير لديهم يقيمون فيه او يبعثون اليه بأولادهم ، واتخذوها خزائن لاموالهم ومستودع عدتهم ، وحصنهم المنيع وفي ذلك يقول العمري : « ولم تزل الملوك تعده لمخاوفها وتدخر به أموالها وتخلف فيه أموالها »[٨٩] • وفي اتخاذها معقلهم يقول الدمشقي : « وحصن الكرك خزانة الاتراك ومعقلهم وبه أبدا نائب مأمون عندهم »[٩٠] • وتقديرا لاهمية المنطقة وخطورة موقعها ومناعة حصونها كان المماليك يولون في نيابة الكرك أميرا من أمرائهم كأتابك العسكر ، بل ان السلطان محمد بن قلاوون نصب ابنه الامير احمد عليها « كي يمرنه

---

(٨٧) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ص ٢٩٩ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ١٨١ •

(٨٨) ياقوت : معجم الادباء ، ج ١ ص ١٨ ، ٤١ ، أبو الفلاح : شذرات الذهب ج ٥ ص ١٢١ •

(٨٩) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٨٣ وانظر أيضا :
Jacop, History of Palestine, P. 302

(٩٠) الدمشقي : نخبة الدهر ، ص ٢١٣ •

على الصيد والفروسية »(٩١) وأمر النائب بتربيته وتأديبه(٩٢) ، وبعث بأبنائه كي يقيموا عنده فيها « فأقاموا بالكرك الى ان ترعرعوا »(٩٣) .

ومن الجدير بالذكر ان اهتمام المماليك بمنطقة شرقي الاردن قد ازداد زيادة ملحوظة بازدياد الخطر المغولي على بلاد الشام ومصر ، وعندما ارتبطت مصالح الفرنج والمغول ، وتبودلت بينهم السفارات(٩٤) ، والمكاتبات(٩٥) بقصد الاعداد لعمل مشترك يستهدف القضاء على دولة المماليك في مصر والشام .

ومن المعروف ان الظاهر بيبرس هو اول من فطن الى الموقع الاستراتيجي والعسكري الخطير الذي تمثله الاردن كملتقى للطرق المؤدية الى بلاد الشرق الادنى الاسلامي وخط دفاع امامي لمصر في وجه الفرنج والمغول على السواء فما ان تم له الاستيلاء على قلاعها وحصونها حتى شرع في ترميمها وتقويتها وشحنها بالرجال والسلاح والعدد والذخائر . ثم انه نقل المجانيق الى عجلون(٩٦) ، ثم وجه اهتمامه بعد ذلك بالصلت فأمر بشحنها بالرجال والعتاد(٩٧) ، أما الكرك فجعلها خزانته وادخر فيها « الاموال العظيمة والذخائر الجسيمة »(٩٨) ، وذلك لعظيم عنايته

---

(٩١) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٢٧٢ . وانظر : ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٣٨ ، مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٧٦ .

(٩٢) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٣٣٥ .

(٩٣) ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ج ١ لوحة ٣٤ ، ٣٥ « مخطوط » ، وانظر أيضا : العمري : مسالك الابصار ، ج ٢ ق ٣ لوحة ٤٥٤ « مخطوط » ، مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٠٩ ، المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٣٣٢ ، ٣٨٧ ، احمد عزت عبد الكريم : التقسيم الاداري لسورية ، ص ١٣٠ .

(٩٤) Newton, Trade and travellers of the middle ages, P. 128.
Muir, The Mameluke, P. 19.
Marco Polo, The travels of Morco Polo; P. 9.

سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ، ص ٧٥ ، ٧٦ ، ٩٥ .

(٩٥) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ص ٤٤٠ .

(٩٦) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٥٣٤ .

(٩٧) ابن دقماق : الجوهر الثمين ، لوحة ١٢١ « مخطوط » .

(٩٨) مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٣٠٦ ، وانظر أيضا : ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) لوحة ٤١٩ ، ٤٢٧ « مخطوط » .

بها[٩٩] • ولم يقصر بيبرس اهتمامه على شرقي الاردن فحسب بل شمل برعايته كل بلاد الشام ، فأعاد بناء ما دمره التتار من قلاع وحصون ، وأقام خطا دفاعيا قويا من التحصينات في مواجهة الفرنج والتتار معا ، كان يمتد من شرقي الاردن جنوبا الى نهر العاصي شمالا[١٠٠] •

ومع ذلك فقد ظلت تحصينات شرقي الاردن وقلاعها ملاجيء أمينة يلوذ بها اهل الشام بوجه عام عندما يداهمهم خطر التتار[١٠١] ، وهــو خطر يتهدد بلاد الشام ويجثم على صدرها ، وقد أصبح أشد ثقلا وأكثر فتكا من خطر الفرنج الذي أخذ يخبو ويتلاشى تدريجيا • ومما لا شك فيه ان استمرار مثول خطر التتار كان من العوامل التي دعت سلاطين المماليك الى توجيه مزيد من الاهتمام بقلاع الاردن ، مثل ذلك ان السلطان الناصر محمد بن قلاوون أمر ببناء أربعة مجانيق في دمشق ، فلما كملت سنة ٧١٣هـ (١٣١٣م) « أمر بواحد لقلعة دمشق (وثلاثــة تحمل الى الكرك)[١٠٢] •

ولم تقف اهمية شرقي الاردن الاستراتيجية على موقعها الفريــد وتحصيناتها المنيعة وقلاعها الصامدة فحسب ، بل تجاوزت ذلك الى توافر المواد الخام اللازمة لاعداد سلاح النفط الذي كانت له أهميته الكبرى في المعارك التي يخوضها المماليك ، فقد اشتهرت السواحل الشرقية للبحر الميت من طرفها الجنوبي حتى اريحا شمالا « بمعدن الكبريت الابيض يحفر عليــه ويخرج »[١٠٣] بالاضافــة الى مادة القار الاسود (الحمر) المستخرجة من البحر الميت نفسه وكانت تطفو على سطح الماء ، ومن ثم

---

(٩٩) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ص ١٤٧ •

(١٠٠) احمد مختار العبادي : قيام دولة الجماليك في مصر والشام ، ص ٢٠٨ •

(١٠١) أبو شامة : تراجم رجال القرنين ص ٢٠٦ ، ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢٧٩ ، ابن آيبك : كنز الدرر وجامع الغرر ج ٩ ص ٤٥ ، مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ص ٨٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ١٦ ، ٢٤ ، مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٥٠٧ ، النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ٤٦١ •

(١٠٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٦٩ •

(١٠٣) النويري : نهاية الارب ، ج ١ ص ٢٥١ •

فكان يعهد الى اناس يجمعونها ثم تنقل « الى قلعة الكرك يدخر بها يدخل في النفط »(١٠٤) .

والى جانب ذلك لعبت منطقة شرقي الاردن في هذه الفترة دورا بارزا في اوقات القحط والجفاف ، كما خدمت اراضيها الخصبة النظام الاقطاعي الحربي لدى المماليـــك ، اذ كانت اراضيهـــا توفر « أرزاق العساكر الاسلامية »(١٠٥) بما يوزع عليهم من اقطاعات خصبة في : عجلون والبلقاء والكرك والشوبك . ولم يقتصر الامر على ذلك ، بل كانت تقدم جزءا من غلاتها وخصوصا القمح(١٠٦) الى المناطق المجاورة ، أما الفائض فكان يخزن في قلاعها وحصونها ويكون ذخيرة ومخزونا احتياطيا لتزويد نواحيها المجاورة في اوقات القحط والجفاف ومن أمثلة ذلك ان السلطان الظاهر بيبرس جهز في سنـــة ٦٦٧هـ (١٢٦٨م) الطواشي جمال الدين محسن « وبعث معه خمسمائة غرارة من الكرك يفرقها فيمن بالمدينة من الضعفاء والمجاورين »(١٠٧) ، ومنها انه عندما اصيبت البلاد المصرية والشامية في سنة ٦٩٥هـ (١٢٩٥م) بمجاعة وقحط وجفاف وما ترتب على ذلك مـــن الغلاء الشديد « كان ببلاد الكرك والشوبك وبلاد الساحل ما يرصـــد للمهمات والبواكر مـــا ينيف عـــن عشريـــن الف غرارة فحملت الى الامصار »(١٠٨) ، واتخذت الاردن على هذا النحو عدة لرفع المعاناة عن

---

(١٠٤) النويري : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٥١ .

(١٠٥) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٢ ص ٣١٤ .

(١٠٦) يقول العماد الكاتب أن صلاح الدين بعد فتح القدس « أمر بنقل الغلات من البلقاء لتقوية الفلاحين واعانة المقطعين » في الخليل وعسقلان وغزة والداروم (انظر : الفتح القسي في الفتح المقدسي ص ٦١١) . ويذكر أبو شامة ان العادل كان عليه ان يقدم « في كل سنة ستة آلاف غرارة غلة للسلطان من الصلت والبلقاء الى القدس » (الروضتين : ج ٢ ص ١٩٧) . وانظر أيضا : مسالك الابصار ، ج ١٦ ق ٢ لوحة ٣٩٦ « مخطوط » .

(١٠٧) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ص ٤٠٩ .

(١٠٨) المقريزي : اغاثة الامة بكشف الغمة ، ص ٣٤ . البواكر : لفظ فارسي معرب ، وقد جرى في مصطلح الدولة المملوكية بمصر للدلالة على الحملات والحرب عامة (المقريزي : اغاثة الامة بكشف الغمة ، حاشية رقم ٢ ص ٣٤) .

مصر والشام • وكانت حصون الاردن الى جانب وظيفتها الدفاعية خزائن يكدس فيها السلاطين الاموال والمؤن والذخائر لاغراض السلم والحرب ، يطلبونها عند الحاجة اليها كما حدث سنة ٦٩٧هـ (١٢٩٧م) ، عندما أرسل السلطان الملك المنصور لاجين استاداره الامير سيف الدين سلار الى الكرك « واحضر ما كان بها من الاموال »(١٠٩) •

وينبغي الا تغيب عن بالنا ما كانت تمثله منافذ الاردن ودروبها من أهمية اقتصادية في عصر دولة المماليك الاولى ، ففي هذا العصر كانت القوافل العملاقة تجوس دروب الاردن ، وكانت منطقة عجلون في الشمال الممر الوحيد الذي تسلكه قوافـــل التجارة مـــا بين العراق ودمشق والقاهرة »(١١٠) وقد اتخذ المماليك على جسر الحسا جنوبي الكرك مكانا لقباض المكوس(١١١) من تلك القوافل التجارية القادمة برا من العقبة • كما ظلت دروبها الى الديار المقدسة تخدم الحجاج من جميع انحاء العالم الاسلامي ، ففي دمشق كان يتجمع خلق كثير « أتوا من العجم والعراق قاصدين الحجاز »(١١٢) لاداء فريضة الحج عبر الاردن • وفي القاهرة كانت تتجمع وفود الحجيج من المغرب والسودان(١١٣) ، ثم يمضي محمل الحج عبر سيناء الى العقبة (أيلة) الواقعة في الجهة الجنوبية من شرقي الاردن ، وتمضي قوافل الحج من هناك الى الاراضي المقدسة •

---

(١٠٩) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٨٣١ • كانت قلعة الكرك تماما كما يعبر عنه في الوقت الحاضر بالبنك المركزي ، يعتمد لحفظ الاموال الزائدة عن حاجة الدولة ، وبه احتياطياتها ، تطلب عند الحاجة اليها •

(١١٠) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٢ ص ٣١٤
Heyd, Histoire du Commerce, vol. 1, P. 173.

(١١١) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٨ •

(١١٢) مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ، ج ١ ص ١٩٦ •

(١١٣) يقول السخاوي : « وحج ركب من التكاررة وجمع من المغاربة » (انظر : التبر المسبوك في ذيل السلوك ، ص ١٤٨) •

وهكذا كانت منطقة شرقي الاردن اجمالا اجل مناطق البلاد الشامية في نظر سلاطين المماليك للاعتبارات سالفة الذكر ، ويعبر عن ذلك السلطان الظاهر برقوق بقوله : « فهي جل البلاد الشامية ، وبها ارزاق العساكر الاسلامية وطريق الحاج الى بيت الله الحرام ، وزيارة نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام ، والى الارض المقدسة التي هي على الخيرات مؤسسة ، والى الابواب الشريفة السلطانية ، وممر التجار قاصدين الديار المصرية ، ومنازل العربان ومواطن العشران »(١١٤) .

(١١٤) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٢ ص ٣١٤ .

(٣)

سقوط امارة الكرك الايوبية

اشتد المرض على الملك الصالح نجم الدين ايوب أثناء اقامته بالمنصورة في مواجهة الفرنج في الحملة الصليبية السابعة بقيادة افرنسيس (لويس التاسع) ملك فرنسا ، ولم تلبث روحه ان فاضت في ١٤ شعبان ٦٤٧هـ (٢٢ نوفمبر (تشرين ثاني) ١٢٤٩م) ، واضطرت شجر الدر زوجه وأم ولده خليل الى التكتم على خبر وفاته(١١٥) ، ريثما يصل ابنه تورانشاه الذي بعثت الفارس المملوكي أقطاي الى حصن كيفا(١١٦) لاستقدامه بعد ان حلفت الامراء له بولاية العهد ، ووصل المعظم تورانشاه الى المنصورة في نهاية ذي القعدة ، وتسلم مقاليد الامور من شجر الدر ثم استقر بقصر أبيه ، وتولى عنها مهمة مدافعة الفرنج ٠

وبفضل سياسة شجر الدر الحكيمة وشجاعة أمراء المماليك وستبسالهم في القتال ، وبراعة تورانشاه في تنفيذ مخططه لاستئصال الفرنج ، نجح المماليك في ايقاع الهزيمة بجيوش الفرنـــج في المنصورة ووقـــع الملك افرنسيس (لويس التاسع) أسيرا ٠ وبدلا من ان يحسن تورانشاه الى المماليك البحرية الذين ساندوه ونصروه في معركة المنصورة ٠ أساء اليهم والى شجر الدر زوج ابيه ، واخذ يتهددهم ، فاتفق جميع الاطراف على التخلص منه واغتياله ، وفي يوم الاثنين ٢٨ محرم ٦٤٨هـ (٣ مايو (أيار) ١٢٥٠ م) نفذ المتآمرون خطتهم ، ومات تورانشاه جريحا حريقا غريقا ، وبمقتله انقرضت الدولة الايوبية بالديار المصرية بعد حكم دام احدى وثمانين سنة من ٥٦٧هـ الى ٦٤٨هـ ٠

---

(١١٥) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ص ١٨٨ ، المقريزي : السلوك ح ١ ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ ٠ اما ابن دقماق فيقول : (وقبل وفاته كتب وصية لولده الملك المعظم تورانشاه وكان مقيما بقلعة حصن كيفا) انظر : نزهة الانام ، احداث سنة ٦٤٧هـ « مخطوط » ٠

(١١٦) حصن كيفا : بحاء وصاد مهملتين ، ثم نون ثم كاف وياء مثناه من تحت وفاء وألف — وهي بلدة وقلعة عظيمة ، مشرفة على نهر دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ص ٢٧٧) ٠

ثم اتفق امراء المماليك على اقامة شجر الدر أم خليل في الحكم ، على أن يعينها في اداء مهامها عدد من الشخصيات المملوكية ابرزها شخصية الامير عز الدين آيبك التركماني الصالحي مقدم العسكر ، والذي لـم تلبث أن تزوجته وتنازلت له عن السلطنة ، وهكذا قامت دولة المماليك الاولى او المماليك البحرية في مصر • وقـد اختلف الباحثون في سبب تسميتهم بالبحرية ، فبعضهم وسمهم بهذا الاسم نسبة الى نشأتهم البحرية في جزيرة الروضة التي اسكنهم بهـا سيدهم نجم الدين ايوب[117] ، وبعضهم يرجع هذه التسمية الى كونهم قدموا من بلادهم بحرا ، يقول الذهبي : « وسماهم البحرية قلت لكون التجار جلبوهم في البحر من بلاد القفجاق »[118] ، ولفظ المماليك التي تطلق عليهم وتسموا بها تعني الرقيق الحربي •

كان لمقتل الملك المعظم تورانشاه وانهاء الدولة الايوبية في مصر آثار بعيدة المدى لدى أيوبية الشام ، اذ أثار مشاعر السخط والغضب في

---

(١١٧) يقول الذهبي : « اقتنى الصالح أيوب من الترك ما لم يشتره ملك ، حتى صاروا معظم عسكره ، ورجحهم على الاكراد ، وأمر منهم وجعلهم بطانته والمحيطين بدهليزه (الذهبي : سير اعلام النبلاء ، ج ١٣ ق ٢ لوحة ٢١٨ « مخطوط ») اما ابن دقماق فيقول « عمر قلعة الروضة قبالة مصر وغرم عليها اموالا عظيمة ، واشترى ألف مملوك ، وقيل ثمان مائة مملوك ، واسكنهم قلعة الروضة وسماهم البحرية ، فهو استاذ الترك الذي جلبهم لهذه البلاد » (نزهة الانام في تاريخ الاسلام) ، ج ٦ لوحة ٧٨ « مخطوط ») وانظر : ابن دقماق : الجوهر الثمين لوحة ١٠٢ « مخطوط » ، .
Lane Poole, A History of Egypt, P. 243.

(١١٨) الذهبي : سير اعلام النبلاء ، ج ١٣ ق ٢ لوحة ٢١٨ « مخطوط » • وقد ناقش الاستاذ الدكتور احمد مختار العبادي هذا القول ، وفند جميع الاراء الى ان خرج برأي جديد ، عبر عنه بقوله : « وقد يؤيد هذا الرأي أن المماليك البحرية جلبوا من سوق النخاسة من بلاد القفجاق شمال البحر الاسود ، فعبروا هذا البحر ثم البحر المتوسط ، ثم بحر النيل فكانهم جاؤوا من وراء البحار فعلا » وقد استند في رأيه على جوانفيل مؤرخ الحملة الصليبية السابعة • ووجهة نظر استاذنا الدكتور مختار العبادي مقبولة لاستنادها الى المنطق من جهة ، والى ما ذكره جوانفيل ، وقد امكنني أن اضيف الى حججه هذا النص الذي اورده الذهبي ، وهو النص العربي الوحيد الذي يتفق ما ذكره مع وجهة نظر الاستاذ الدكتور العبادي •

(انظر : احمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الاسلامية ، ص ٢٣٩ ، هامش رقم ٢ ، وقيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام ، ص ٩٧ ـ ٩٩) •

نفوسهم ، فارتفعت اصوات الساخطين والمتذمرين في مصر والشام ضد الحكام الجدد ، وانف المصريون ان يحكمهم سلطان مسه الرق ، وكانوا يقولون : « لا نريد الا سلطانا مولودا على الفطرة »[١١٩] • وحملت دمشق والكرك على عاتقها لواء التصدي لهؤلاء الحكام الجدد ، ونشبت بين الجانب الايوبي بقيادة الملك الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب ، وبين الجانب المملوكي بزعامة آيبك معارك لم تسفر عن نتائج حاسمة ، ووجد الطرفان ان المصلحة تقتضي المصالحة ، ولم يلبث الصلح ان انتظم بينهما في صفر ٦٥١هـ (ابريل (نيسان) ١٢٥٣م) ، بفضل وساطة الخليفة العباسي • وتضمن الاتفاق ان تكون فلسطين بما فيها القدس حتى الشريعة (نهر الاردن) للمصريين ، وما بعدها للملك الناصر يوسف[١٢٠] ، وتعتبر هذه المعاهدة اول اعتراف رسمي من قبل الايوبيين بسلطة المماليك على مصر •

ولكن سرعان ما سرى الخلاف والانقسام في صفوف المماليك في مصر ، ففرت طائفة من كبار شخصياتهم الى الشام ، واتصل هؤلاء الفارون بالناصر يوسف صاحب دمشق وحرضوه على قصد مصر وانتزاعها من المماليك • ولم يتردد الناصر يوسف وقد سنحت له الفرصة في ان يحاول الاستيلاء على مصر بمساعدة هذه الزمرة المحاربة المنشقة من مماليك مصر ، ولكنه اخفق في مسعاه • وانتظم الصلح ثانية بينه وبين عز الدين آيبك التركماني سلطان مصر ، على ألا يسمح بايواء أحد من البحرية الهاربين من مصر[١٢١] • عندئذ اضطرت جبهة الرفض المملوكية في هذه الطائفة المنشقة من أمراء المماليك الى مغادرة دمشق الى الكرك حيث التحقت بخدمة الملك المغيث عمر في شوال ٦٥٥هـ[١٢٢] (أول نوفمبر

---

(١١٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ١٣ •

(١٢٠) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ص ١٩٥ ، ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٣٦٣ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٣٨٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠ والمنهل الصافي ج ١ ص ١٠ ، محمد جمال سرور : دولة الظاهر بيبرس في مصر ص ٣١ •
Lane Poole, A History of Egypt, P. 259.

(١٢١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٣٩٨ ، Lane Poole, op. cit. P. 261.

(١٢٢) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١١٦ « مخطوط » •

(تشرين ثاني) ١٢٥٧م) • ومن هذا المنطلق بدأ المغيث عمر يتطلع الى السيطرة على مصر خاصة بعد ان وضعت دمشق على كاهل امارة الكرك الايوبية عبء استرجاع مصر • ولكن الملك المغيث لم ينتظر ان تصله قوة تسانده من دمشق ، فقد سارع بتجريد ثلاث حملات ضد مماليك مصر ، ولكن هذه الحملات لم تلق سوى الهزيمة ، وأخفق المغيث على هذا النحو من تحقيق هدفه •

ومن الجدير بالذكر ان كان من ابرز زعماء المماليك المنشقين لديه ، ركن الدين بيبرس البندقداري ، الذي حمل على عاتقه مهمـــة قيادة جيوشه ، ولكن جيش مصر تمكن من التصدي لجيوش المغيث في قوة وعنف ، وردتها على أعقابها ، ولو ان جيوش دمشق تضامنت مع جيوش الكرك لكان في الامكان ان يكون لها شأن آخر(١٢٣) • ولم يلبث النزاع والشقاق أن دب بين دمشق والكرك بعد ان حاول المغيث بتحريض من المماليك الاستيلاء على دمشق ، الامر الذي دعا الناصر يوسف الى الزحف بقواته باتجا ه الكرك وعسكر بقواته على زيزاء بالقرب من عمان ، وأقام هناك ستة أشهر ، والرسل تتردد بينه وبين الملك المغيث عمـر أمــير الكرك(١٢٤) • واخيرا انتظم الصلح بين الطرفين ، وانتهز ركن الدين بيبرس هذه الفرصة وأبرم اتفاقا في السر مع الناصر يوسف يحـــق بمقتضاه ان ينزل عليه هو وجماعة مـــن اتباعه بدمشق ، اما المماليك الباقون فقد سلمهم المغيث عمر للناصر يوسف حيث ارسلهم مكبلين الى قلعة حلب فسجنهم هناك •

في خصم هذه الاحداث تمكنت شجر الدر من قتل زوجها سلطان مصر عز الدين آيبك في ٢٤ ربيع الاول ٦٥٥هـ (١٣ ابريل (نيسان) ١٢٥٧م) فأقام الاتراك بعد مقتل استاذهم ابنه نور الدين عليا ولقبوه بالملك المنصور

---

(١٢٣) عن الدور الذي قامت به امارة الكرك الايوبية وملكها المغيث عمر في هذه المرحلة انظر التفاصيل في رسالتي الماجستير : امارة الكرك ودورها السياسي والاقتصادي ، ص ٢٥٢ - ٢٥٦ •

(١٢٤) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٤١٤ •

وجعلوا الامير سيف الدين قطز أتابكا له ، أما شجر الدر فقد قتلت وقذف بها من أعلى أسوار القلعة وبذلك انتهى أمر المؤسسين الحقيقيين لدولة المماليك الاولى في مصر بالقتل •

وكان لانتظام الصلح بين دمشق والكرك والخلاص من المماليك البحرية المنشقين أثره البعيد لدى مماليك مصر ، فزينت مصر والقاهرة أياما ، وصفا الجو للامير قطز[125] • ولكن هذا الصفاء لم يدم طويلا ، فقد تبدى في الافق خطر المغول المدمر ، وكان المغول في الحق قد أثبتوا بأعمالهم الاجرامية البشعة أنهم من الشعوب الهمجية التي تكتسح في طريقها ما يقابلها من حضارة وعمران ، فقد اجتاحت جحافلهم عمران بغداد ودمرت مبانيها وأتت على كل معالم حضارتها ، وأخذ زعيمهم هولاكو يتأهب للسير نحو بلاد الشام ومصر • فأرسل رسله الى امراء الايوبيين في الشام ، والسلطان المملوكي في مصر ، يتهدد ويتوعد ويطلب منهم الاستسلام والخضوع ، فمنهم من شله الخوف ، فبادر بتقديم فروض الطاعة والولاء لهولاكو ، ومنهم من اكتفى بارسال الرسل والتحف والهدايا صحبة أبنائهم كالناصر يوسف والمغيث عمر[126] • ولم يستطع ملوك الايوبيين في الشام أن يكونوا جبهة قوية متراصة أمام هذا الخطر الداهم فتفرقوا شذرا مذرا • اما في مصر فكان الاحساس بخطورة الموقف أقوى وأشد ، ورأى الاتابك قطز أن الأمر يقتضي أن يتولى الزعامة قائد قوي يستطيع أن يتدبر تخليص البلاد من الخطر الجاثم ، فلم يتردد قطز في عزل الملك المنصور ، واعتقله هو وامه ، ونصب نفسه سلطانا على مصر ، وتم ذلك في ٢٤ ذو القعدة ٦٥٧هـ (١٢ نوفمبر (تشرين ثاني) ١٢٥٩م) • وفي هذه الاثناء وصلت رسل هولاكو يطلبون من السلطان تسليم البلاد والاذعان بالطاعة له • وفي الوقت الذي اجتاحت البلاد الاسلامية موجة من الذعر والهلع

---

(١٢٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٥٤ •

(١٢٦) أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ص ٢٠٥ ، النويري : نهاية الارب ، ج ٢٧ لوحة ١٠٤ « مخطوط » ، ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ١٩٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٢١٥ ، ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٥٦هـ ، « مخطوط » ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٤١٥ •

بسبب اقتراب جحافل التتار ، اشتعلت نفس قطز والمخلصين من أمراء المماليك حمية وحماسا ، ولم يعبئوا بتحرج الموقف ، بل أقدم قطز على اخراج الرسل الاربع ووسطهم وعلقهم عـــلى أبواب القاهرة ، ونادى بالاستعداد والجهاد(١٢٧) • وسرى في دماء أمراء المماليك الموالين منهم له والمنشقين عليه بدمشق حرارة الجهاد والذب عن الاسلام ، خاصة بعد ان تبين لهؤلاء عجز الناصر يوسف عن التصدي للتتار،وقيامه باسترضائهم بالهدايا والتحف ، وساءهم ان تتركوا خشداشهم قطز يواجـــه التتار وحده ، فأقبلوا يعرضون عليه الدخول الى مصر(١٢٨) ، فسمح لهم قطز ، وعفا عنهم ، واعتضد بهم ضد التتار • وكان وصول بيبرس وأعوانه من المماليك طالع سعد لمصر ، اذ قدموا اليها نجدة في الوقت المناسب(١٢٩) ، بعد أن استفحل الخطر التتاري واصبح يهدد سلامة الديار المصرية على أثر اعدام قطز لرسلهم •

وتناسى أمراء المماليك المنشقون خصوماتهم لقطز وأمرائه امام الخطر الماثل ، واتحدت صفوفهم معهم ، ولم تلبث قوى المماليك أن خرجت مع طائفة من بقايا البيت الايوبي بقيادة قطز ، واشترك معه في قيادة الجيش الامير ركن الدين بيبرس وبعض أمراء الايوبيين نذكر منهم الملك المنصور صاحب حماة • واشتبكت قوى الاسلام متحدة مع قوات التتار في معركة ضارية دارت عند عين جالوت يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ (٣ سبتمبر (أيلول) ١٢٦٠م) ، وانتهت بتمزيق صفوف التتار وتشتيت شملهم ، وسقط قائدهم كتبغا قتيلا بيد الامير جمال الدين آقوش الشمسي(١٣٠)

(١٢٧) ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٥٨هـ « مخطوط » والجوهر الثمين لوحة ١١٢ « مخطوط » ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٤٢٩ •

(١٢٨) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢٠٣ ، ابن دقماق : نزهة الانام احداث سنة ٦٥٧هـ « مخطوط » ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٤٢٠ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٠١ ، محمد جمال سرور : دولة الظاهر بيبرس في مصر ص ٣٨ •

(١٢٩) وليم موير : تاريخ دولة المماليك في مصر ، ص ٣٨ •

(١٣٠) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٢٢١ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٧٩ • وقد ورد في بعض المصادر أنه اسر ثم قتل (انظر : فؤاد عبد المعطى الصياد ، المغول في التاريخ ص ٢٠٦) •

وبالانتصار الاسلامي الحاسم في عين جالوت اجتاز المسلمون المحنة وأوقفوا المد التتاري المدمر ٠

ترتب على اجتياح التتار لبلاد الشام ان انقرضت معظم الامارات الايوبية فيها ، ولم يبق منها سوى حمص وحماة والكرك ٠ وكانت امارة الكرك الايوبية بزعامة الملك المغيث عمر أكثر هذه الامارات اهمية وأشدها خطرا على دولة المماليك الناشئة في مصر والشام ٠

ثم حدث انقلاب دبره الظاهر ركن الدين بيبرس للتخلص من قطز والاستئثار بالسلطنة دونه انتهى باغتيال السلطان الملك المظفر قطز في طريق عودته للديار المصرية بعد معركة عين جالوت ، قتله بيبرس بمساعدة بعض الأمراء في يوم السبت ١٦ ذو القعدة ٦٥٨هـ (٢٣ أكتوبر (تشرين اول) ١٢٦٠م)(١٣١) ثم بويع بيبرس بالسلطنة وتقدم أعوانه ورفاقه من أمراء المماليك البحرية بين يديه الى قلعة الجبل ، فدخلها وتسلمها ٠ وكانت القاهرة قـــد زينت لقدوم الملك المظفر والناس في فرح وسرور بعوده وانتصاره ، فلما كان الصباح خرج مناد ينادي : « معاشر الناس ترحموا على الملك المظفر وادعوا لسلطانهم الملك الظاهر ركن الديـــن بيبرس ، فوجموا خوفا من عود البحرية اليهم لما كانوا يعهدونه منهم من الجور والفساد »(١٣٢) ٠

وباعتلاء السلطان الملك الظاهر بيبرس عرش دولة المماليك في مصر والشام تبدأ مرحلة جديدة في تاريخ الصراع بين القاهرة والكرك استمر ما يقرب من سنتين ونصف سنة (من ذي القعدة ٦٥٨هـ الى جمادى الآخرة ٦٦١هـ) ، وانتهى باستيلاء الملك الظاهر بيبرس على الكرك ، وقيامه

---

(١٣١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٨٧ ، والمنهل الصافي لوحة ٣٧٢ ، « مخطوط » ، سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ، ص ٣٧ ٠

(١٣٢) ابن دقماق : نزهة الانام ، لوحة ١٢٦ « مخطوط » والجوهر الثمين لوحة ١١٥ « مخطوط » ٠

باعتقال صاحبها وقتله(١٣٣) ، بعد أن اتهمه بممالاة التتار ومكاتبتهم «وقيل ان جميع ما نسب اليه لم يكن له أصل ، بل مجرد شناعة ليقوم عذر الملك الظاهر عند الامراء والناس فيما فعله »(١٣٤) . وبذلك انتهت امارة الكرك الايوبية التي لعبت دورا هاما وبارزا في مرحلة متأخرة من مراحل الصراع الصليبي الاسلامي في بلاد الشام ، وفي أعقاب قيام دولة المماليك الاولى وترتب على ذلك دخول منطقة شرقي الاردن في فلك دولة المماليك .

(١٣٣) عن موقف الظاهر بيبرس من امارة الكرك الايوبية واستيلائه عليها ، انظر التفاصيل في رسالتي الماجستير : امارة الكرك ودورها السياسي والاقتصادي من صفحة ٢٦٧ الى ٢٩٠ .

(١٣٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٤)

مظاهر اهتمام الظاهر بيبرس بالمنطقة

تلقى أهل دمشق نبأ اعتلاء الظاهر بيبرس دست السلطنة المملوكية في شيء من الحذر المشوب بالقلق ، ولعلهم أسفوا على الجزاء الذي ناله المظفر قطز بطل عين جالوت ، وعز عليهم أن قاتل قطز بالامس يصبح سلطانهم اليوم ، وعندئذ تحركت في نفوسهم عوامل الثورة والسخط ، ولم يتردد الامير علم الدين سنجر الحلبي(١٣٥) نائب دمشق في أن يدعو لنفسه سلطانا بالشام ويلقب بالملك المجاهد ، وترتب على ذلك أن دخلت عجلون والصلت تحت سلطانه ونفوذه ٠(١٣٦) وقد حاول الملك الظاهر بشتى الطرق ان يثني سنجر الحلبي عن قصده ، ولكنه أخفق في محاولته ، وشجع الإنقسام الذي دب في الجبهة الداخلية الاعداء المتربصين ببلاد الشام على التحرك ٠ فبعد معركة عين جالوت وضحت الاطماع التتارية والصليبية معا ولا أستبعد أن يكون الطرفان التتاري والصليبي قد اتفقا على تأليف جبهة موحدة ضد المماليك في مصر والشام ولعلهم عقدوا اتفاقا يقضي بتحركهما في آن واحد ، والعمل على تطويق دمشق من الشمال والجنوب في وقت واحد ، ونستدل على ذلك من سير الاحداث التالية لهذا الانقسام فقد اغتنم التتار فرصة التفكك الذي طرأ على الجبهة المملوكية الداخلية وانقضوا على شمالي الشام ، فتصدت هم قوات حلب وحماة بالقرب من حمص في أوائل محرم سنة ٦٥٩هـ (ديسمبر (كانون اول) ١٢٦٠م) ، والحقوا بهم هزيمة نكراء بعد مقتلة عظيمة(١٣٧) ٠ أما الفرنج فقدانقضوا بدورهم على الجولان جنوبي دمشق ، وصادفوا هناك جموعا من التركمان ، فقصدوا الاغارة عليهم وتبييتهم على غرة منهم(١٣٨) الا أن التركمان شعروا بحركتهم واستعدوا لهم ، واشتبك الفريقان في معركـــة ضارية انتهت

---

(١٣٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٨٤ ، ص ١٠٤ ٠

(١٣٦) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ص ٢٥٦ ٠

(١٣٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٠٧ ٠

(١٣٨) ابن بهادر : فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر ، لوحة ٢٢٧ « مخطوط » ٠

بهزيمة الفرنج ، ونجح التركمان في كسر الفرنج ، كسرة شديدة ، وأسروا من جنودهم جماعة ، واضطر الفرنج الى أن يبذلوا للتركمان مالا يشترون به أنفسهم فقبلوه منهم وخلوا سبيلهم .(١٣٩) وهكذا نجد أن التحالف التتاري الصليبي قد فشل في أول تجربة مشتركة خاضوها ضد دولة المماليك في مصر والشام .

ازاء ذلك رأى الظاهر بيبرس بعينه الثاقبة أن ينهي حركة سنجر الحلبي في دمشق ، فبدأ باقتطاع الاجزاء الشمالية من شرقي الاردن من مناطق نفوذه ، حصونها في وجه الفرنج من جهة ، ولتأمين الاتصال بين دمشق والقاهرة ، لانها تمثل حلقة الوصل الوحيدة بين الحاضرتين من جهة أخرى . فبدأ باقتناص عجلون التي كان يعرف ميزاتها الدفاعية حق المعرفة منذ أن أقام بها في أواخر سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٦ م) مع سيده الامير علاء الدين البندقدار الذي كان نائبا عليها من قبل الصالح نجم الدين أيوب(١٤٠) ، وكان قاضي عجلون آنذاك ويدعى احمد بن عبد الصمد بن عبد الله(١٤١) ، أحد الشخصيات البارزة في هذه المدينة ، اذ تولى قضاءها وما أضيف اليها مدة طويلة(١٤٢) . وكانت له كلمة مسموعة هناك ، وله حرمة عند اكابر أمراء الدولة وأعيانها . وكان على معرفة وثيقة بالملك الظاهر بيبرس منذ كان منشقا عن مماليك مصر يعرض خدماته على صاحبي دمشق والكرك . وفي هذه الفترة أدى قاضي عجلون خدمات كثيرة الى الملك الظاهر ركن الدين بيبرس عندما كان يتردد هناك في عهد الدولة الناصرية(١٤٣) ، ونعتقد انه نتيجة لهذه العلاقة القوية بينهما مكن القاضي

---

(١٣٩) ابن بهادر : فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر ، لوحة ٢٢٧ « مخطوط » .

(١٤٠) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ص ٢٦٣ .

(١٤١) احمد بن عبد الصمد بن عبدالله بن احمد أبو العباس المصري الاصل الشافعي المعروف بقاضي عجلون ، كان فقيها فاضلا رئيسا ، تولى قضاء عجلون مدة طويلة ، ثم عينه الظاهر بيبرس وكيل بيت المال بالشام ومدرسا بالمدرسة الشافعية البرانية بدمشق . رحل الى مصر وصار قاضيا في دمياط وتوفي فيها ٦٨٠هـ (اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ص ١٠١ ، ١٠٢) .

(١٤٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ص ١٠١ .

(١٤٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ص ١٠٢ .

احمد بن عبد الرحمن قوات الظاهر من عجلون وقلعتها وصار من أخلص خلصائه • ولهذا السبب كافأه بيبرس بعد استيلائه على دمشق بان أسند اليه بعض الوظائف في دمشق ومصر • وفي هذا العام ٦٥٩هـ (١٢٦١م) تمكنت قوات الظاهر بيبرس أيضا من امتلاك قلعة الصلت • وبذلك أصبحت الاجزاء الشمالية من شرقي الاردن : البلقاء وعجلون ، تحت نفوذ الظاهر بيبرس • أما القسم الجنوبي من البلاد ، فقد كان بيد الملك المغيث عمر آخر أمراء الايوبيين في الكرك •

أما فيما يختص بالامير سنجر الحلبي فان الظاهر بيبرس بادر بمكاتبة امراء دمشق ليحثهم على الغدر بسنجر ففعلوا وحاصروه بقلعة دمشق ، فاضطر سنجر الى الهرب الى بعلبك ، حيث حوصر ، وأخذ أسيرا وسير الى مصر فسجن(١٤٤) • وبذلك تمكن الظاهر بيبرس من السيطرة على معظم بلاد الشام ، ولم يبق أمامه الا امارة الكرك الايوبية التي سيصبح امتلاكها املا يسعى ابدا من اجل تحقيقه ، وتم له ذلك في سنة ٦٦١هـ (١٢٦٣م)(١٤٥) ، فانتظمت منذ ذلك الحين كل منطقة شرقي الاردن في فلك الحكم المملوكي •

وكان الظاهر بيبرس يدرك تمام الادراك أهمية هذه المنطقة ، وقد لمس ذلك بنفسه أثناء رحلة نضاله الطويلة ضد التتار وفرنج الشام • فعمل على اقامة خط دفاعي حصين يتمثل في قلاع الاردن وحصونها جنوبا الى قلعة حمص وقلاع العاصي شمالا • ولنا ان نتمثل مظاهر اهتمام الظاهر بيبرس بشرقي الاردن في انه لم يكتف بتحصين وتقوية قلاعها في

---

(١٤٤) علم الدين سنجر الحلبي : بقي في السجن مدة ، ثم اطلقه الملك السعيد بن الظاهر بيبرس • وفي عهد السلطان قلاوون ندبه لمحاربة الامير سنقر الاشقر الثائر في دمشق وتمكن منه ، الا أنه خان فحبسه ، وبقي في السجن الى أن افرج عنه الملك الاشرف خليل بن قلاوون ، وخلع عليه وجعله أحد الامراء الاكابر • ولم يزل اميرا بمصر الى أن مات على فراشه سنة ٦٩٢هـ وقد جاوز التسعين عاما (انظر : المقريزي : الخطط ، ج ٣ ص ٧٤ — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٣٩) •

(١٤٥) عن تفاصيل استيلائه على امارة الكرك الايوبية انظر : رسالتي الماجستير : امارة الكرك ودورها السياسي والاقتصادي ، صفحة ، ٢٦٧ — ٢٩٠ •

كل من الشوبك والكرك والصلت وعجلون فحسب بل جعل من الكرك نيابة هامة اولاها رعايته • كما قام بتنظيم أمور جيشها ، وخلع على سكانها واهلها ، وامر بكتابة تواقيع لهم بمناصب دينية وديوانية(١٤٦) ، ولم ينس القبائل العربية المحيطة بها فكتب لهم مناشير باقطاعات بلغت اكثر من ثلاثمائة منشور(١٤٧) • واصدر عفوا عاما عن أهالي الكرك قائلا لهم : « انكم قد أسأتم الي وعفوت عنكم ، لكونكم ما خامرتم على صاحبكم ، وقد ازددتم بذلك محبة عندي »(١٤٨) • كما قام باصلاح وترميم كل ما تحتاج اليه قلاع الاردن وشحنها بالرجال والسلاح والمؤن •

ومن مظاهر اهتمامه بالمنطقة ايضا زياراته المتكررة اليها واعتماده على نائبها وقواتها في مهماته العديدة • ففي سنة ٦٦٢هـ (١٢٦٣م) ، وصلت الى السلطان الظاهر بيبرس كتب أصحاب خيبر في الحجاز(١٤٩) ، وهم عبيد الامام علي بن ابي طالب يبذلون له فيها الطاعة ، ويسألونه ان يرسل اليهم من يتسلم خيبر • فندب الظاهر بيبرس لتلك المهمة الامير أمين الدين موسى ابن التركماني ، وفي نفس الوقت كتب الى عز الدين أيدمر الظاهري نائبه على الكرك بان « يجرد معه جماعة من البحرية الذين بالكرك »(١٥٠) ، فتوجه أمين الدين اليها وتسلمها • ومما تجدر ملاحظته ايضا ان الظاهر بيبرس أمر في نفس هذا العام بانشاء خان بمدينة القدس ، وجعله سبيلا • وفوض عمارته الى الامير جمال الدين محمد بن نهار ، وبنى فيه طاحونا وفرنا ، وجعل النظر فيه للامير جمال الدين نفسه • وأوقف عليه اوقافا كثيرة منها قيراط ونصف في قرية الطرة الواقعة شمالي الاردن وجعل هذه الاوقاف « يصرف ريعها في خبز وفلوس

---

(١٤٦) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٩٢ •

(١٤٧) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٢٣ « مخطوط » ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٤٩٢ •

(١٤٨) ابن واصل : مفرج الكروب (تاريخ الواصلين) ، لوحة ٤٢٠ « مخطوط » • .

(١٤٩) خيبر : بلدة تقع قريبا من المدينة المنورة في طريق المسافر الى الشام • وهي ولاية وبها سبعة حصون كانت لليهود ، وحولها مزارع ونخل كثير (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ص ٥٠٣) •

(١٥٠) العيني : عقد الجمان ، ج ١٩ ق ٣ ، لوحة ٥٠٩ « مخطوط » •

واصلاح نعال من يرد اليه من المسافرين المشاة »(١٥١) ، وفي العام التالي نقل الى عجلون والكرك المنجنيقات(١٥٢) ، والظاهر أنه استخدمها في هذه السنة نفسها ضد الفرنج ، فقد خرج بقواته لحصار قلعة أرسوف(١٥٣) على الساحل الفلسطيني فنزل عليها ونصب حولها المجانيق وضيق عليها واقتحمتها قواته في جمادى الاولى سنة ٦٦٣هـ (ابريل (نيسان) ١٢٦٥م)، «وأسر أهلها وأرسلهم الى الكرك مصفدين»(١٥٤) ، ثم قسم أبراجها على الأمراء ليهدموها فسويت بالارض · وبعد فتح أرسوف سير السلطان الظاهر بيبرس في طلب القاضي شمس الدين بن خلكان قاضي دمشق ، والشهود والعدول فيها ووكيل بيت المال ، وجماعة من الفقهاء والائمة ، وأمر ان تملك البلاد التي فتحها للامراء المماليك المشتركين في الجهاد ، فمن ذلك أنه اقطع الامير سيف الدين قلاوون الالفي نصف قرية طيبة اسم(١٥٥) ، والنصف الثاني أقطعه للامير عز الدين أبغان الركني · أما قرية القصير المعيني فقد أقطعها بكمالها للامير عز الدين آيبك الفخري ، وكتب لهم التواقيع بذلك(١٥٦) ·

وقد اتخذ بيبرس من عجلون معتقلا لخصومه السياسيين ، ومن هؤلاء الامير سعد الدين خضر بن حجي من أمراء بني بحتر ، فقد أمر بسجنه في عجلون ، ومنهم ايضا الامير عمر بن مخلول(١٥٧) ، من أكابر أمراء آل

---

(١٥١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١ ص ٥٥٤ ، وانظر ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٢١ ·

(١٥٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٥٣٤ ·

(١٥٣) ارسوف : مدينة وقلعة على ساحل الشام بين قيسارية ويافا (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ص ١٥٢) ·

(١٥٤) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٣ لوحة ٥١٥ « مخطوط » ·

(١٥٥) طيبة اسم : قرية في الجزء الشمالي من الاردن الى الغرب من مدينة اربد كانت احد مراكز البريد بين مصر والشام ، ثم نقل منها الى قرية زحر القريبة (القلقشندى : صبح الاعشى ، ج ١٤ ص ٣٨٠) ·

(١٥٦) عن توزيع هذه الاقطاعات التي تشمل العديد من قرى فلسطين على الامراء ، وعن مزيد من التفاصيل حول الاقطاع الحربي لدى دولة المماليك (انظر : مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد والدر الفريد ، ج ١ ص ١٣٧ – ١٤٤) ·

(١٥٧) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ص ٧ ، النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٤٢ « مخطوط » ·

فضل الذي فر من سجنه الى بلاد التتار(١٥٨) ، ثم عاد اليه بمحض ارادته وأقام في محبسه بأحد أبراج سور قلعة عجلون في ذي الحجـــة ٦٧٢هـ (يونيو (حزيران) ١٢٧٤م) ، فلما طولع السلطان ، بذلك عفا عنه(١٥٩) .

أما زيارات بيبرس للمنطقة فيمكن الحديث عنها تفصيليا على النحو التالي :

الزيارة الاولى :

كان الظاهر بيبرس دائب الحركة يتنقل في ارجاء دولته الفسيحة لتفقدها ولم يكن يهدأ له بال خاصة وان الاخطار الخارجية كانت تحدق ببلاده من الشمال ومن جهة الساحل . وقد صرف الظاهر بيبرس معظم نشاطه في الجهاد ضد الفرنج ، وبفضل انتصاراته المتواصلة أخذت حصون الفرنج وقلاعهم تهوي الواحدة تلك الاخرى حتى شبه في ذلك بصلاح الدين بن يوسف الايوبي(١٦٠) . ولم يزل بيبرس يقضي على معاقل الصليبيين الواحد بعد الآخر حتى بدت القوة الصليبية في بلاد الشام في آخر حياته تسير نحو نهايتهـا المحتومـــة(١٦١) . ففي سنة ٦٦٤هـ (١٢٦٥م) ، خرجت قواته الى ساحل طرابلس وتمكنت من احتلال ثلاث قلاع كانت تمثل رأس حربة تحمي طرابلس من الشمال والشمال الشرقي ، هي : قلعة حلب والقليعات وعرقة(١٦٢) ، أما هو فنزل بقواته على صفد في الثامن من شهر شعبان وضايقها بآلات الحصار وقدم اليه الملك المنصور صاحب حماة في قوة لمساعدته في زيادة الضغط عليها وفي ١٩ شعبان من هذه السنة اقتحمتها قواته واستولت عليها ، وتمكن بيبرس بذلك من

---

(١٥٨) العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ ق ٣ لوحة ٦٢٣ « مخطوط » .

(١٥٩) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، ج ٩ لوحة ١١٤ « مخطوط » ، أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٨ ، ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢٢٢ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ١٠ .

(١٦٠) سعيد عاشور : الظاهر بيبرس ص ٤٠ .

(١٦١) Muir, The Mameluke, P. 19.

(١٦٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٤ ، العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ ق ٣ لوحة ٦١٥ « مخطوط » عبد العزيز سالم : طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ، ص ٢٦٧ .

تحريرها من الفرنج بعد أن أبادهم عن آخرهم[١٦٣] ، ثم قام بترتيب أمورها فنقل اليها الامير عز الدين أيبك العلائي نائب عجلون[١٦٤] ، وفي السنة التالية ٦٦٥هـ (١٢٦٦م) ، قدم اليها واستصحب معه البنائين والنجارين ، وأمر بتجديد قلعتها واعادة بناء أبراجها[١٦٥] ، ثم توجه الى دمشق ومنها قفل عائدا الى الديار المصرية ، وعند الفوار[١٦٦] أرسل عساكره بين يديه الى غزة مع الامير شمس الدين آق سنقر الفارقاني . اما هو فتوجه في جريدة الى الكرك لينظر في احوالها ويتفقد حصونها . وعندما وصل الى البلقاء نزل على بركة زيزاء ليتصيد . وفي الثامن من محرم ٦٦٥هـ كبا به فرسه أثناء الصيد فانكسر فخذه[١٦٧] . فأقام في زيزاء مدة شهر تقريبا يعالج نفسه . وفي أثناء مقامه هناك اكثر من الانعام على جميع عساكره وأمرائه من غلات الكرك ، وشمل بذلك الخواص والكتاب « وفرق فيهم جملا كثيرة من المال »[١٦٨] . ثم طلب أمراء غزة فأحسن اليهم ، كما طلب نائب الكرك الامير عز الدين ايدمر فأعطاه الف دينار وخلع عليه . كما سير الخلع الى أهل الكرك وتلك النواحي[١٦٩] . وعندما تماثل للشفاء حمل في أوائل صفر على محفة متجها الى غزة ومنها الى قلعة الجبل بالقاهرة حيث استكمل علاجه .

---

(١٦٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ص ٣٣٧ ــ ٣٤٣ ، أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٤ .

(١٦٤) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ص ٩١ .

(١٦٥) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ص ٣٦١ .

Combe, Sauvaget, Wiet,
Repertoire chronologique d'epigraphie Arabe, vol. 12, P. 125.

(١٦٦) الفوار : محلة في حوران بها ماء غزير يسقي بلدة المزيريب المجاورة لها ، وتقع بالقرب من مدينة اذرعات ، وهي احدى محطات الحاج الشامي (انظر : ابن الشماع : عيون الاخبار فيما وقع لجامعة من الاقامة والاسفار ، لوحة ١٨٣ « مخطوط » ــ ابن طولون : مفاكهة الخلان ، ج ١ ص ٢٥٧ ، ٢٩٠) .

(١٦٧) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٣٦٠ ــ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٣٩ « مخطوط » ، أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٤ ــ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ ق ٣ لوحة ٦١٦ « مخطوط » ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٤٨ ــ مفضل ابن أبي الفضائل : النهج السديد ، ج ١ ص ١٥٦ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٥٥٥ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٢٤٣ « مخطوط » .

(١٦٨) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٥٥٥ .

(١٦٩) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٣٩ « مخطوط » ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٥٥٥ .

الزيارة الثانية :

مما يؤثر عن الملك الظاهر بيبرس هو تكتمه الشديد فيما يضمره من عمل ، فلم يكن احد يعلم حتى أخلص رفاقه بحقيقة ما كان يدبره من امور ، ولعله كان يعمد الى التكتم تجنبا لتدبير أي مؤامرة تستهدف إغتياله • ففي سنة ٦٦٧هـ (١٢٦٨م) عزم وهو بدمشق على التوجه الى الحجاز لأداء فريضة الحج ، ولم يكن احد يتجاسر ان يذكر ذلك او يتفوه به • وحدث ان احد حجابه ويدعى جمال الدين بن الداية أبدى رغبته في صحبـــة السلطان الى الحجاز فكان رد فعـــل بيبرس أن أمر بقطـــع لسانه(١٧٠) • في هذه السنة خرج السلطان من دمشق بنية الحـــج وبصحبته الامير بدر الدين الخازندار وصدر الدين سليمان الحنفي قاضي القضاة ، وفخر الدين بن لقمان وتاج الدين بن الاثير ، يرافقهم نحو ثلاثمائة مملوك وعدد من اجناد الحلقة ، واتجه الركب نحو الكرك(١٧١) ، وقد أشاع السلطان انهم خارجون للصيد(١٧٢) • وكان قد رتب أموره في السر ، فارسل الى الكرك يأمر بتجهيز الدقيق والروايا والقرب والاشربة وتجهيز العربان المتوجهين معه بهجنهم • وتم تنفيذ ما طلبه السلطان ، فما ان وصل الى الكرك حتى الفي كل شيء معدا جاهزا في انتظاره ، فأمر رفقاءه وصحبته بسبقه في السير ، أما هو فقد تحرك في الرابع من ذي القعدة متوجها نحو الشوبك « ورسم باخفاء أمره »(١٧٣) •فأقام فيها عدة أيام ، ثم شرع في الخروج بمن معه الى الاراضي المقدسة في الحادي عشر من الشهر •

---

(١٧٠) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٥٨٠ ، العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٣ لوحة ٥٥١ ، « مخطوط » ، ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٢٥٦ « مخطوط » •

(١٧١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٢٥٤ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٤٧ •

(١٧٢) النويري نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٥١ « مخطوط » ، ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٣٨٩ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٥٨٠ •

(١٧٣) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٥٨١ •

الزيارة الثالثة :

أدى الظاهر بيبرس فريضة الحج وركب عائدا الى الكرك ومعه نفر يسير من خواصه بعد أن أحسن الى أميري مكة والمدينة وأكابر الحجاز . وعندما وصل الى بلدة مؤتة الواقعة جنوبي الكرك انتشر خبر وصوله الى أهالي الكرك واعيانها فخرجوا لاستقباله ، فدخل السلطان مدينة الكرك « وهو لابس عباءة »(١٧٤) وقد ركب هجينا . وفي اليوم التالي صلى صلاة الجمعة في جامع الكرك غرة المحرم ٦٦٨هـ (٣١ أغسطس (آب) ١٢٦٩م) ، ثم ركب في مائة فرس وساق الى دمشق . كل ذلك وأهل الشام ومصر لا يعرفون شيئا عـــن خبره هـــل هو في الشام ام في الحجاز ام في غيره(١٧٥) ، ثم توجه من دمشق الى حماة ومنها الى حلب ، ولكنه لم يلبث ان قفل عائدا الى دمشق ، ومنها ارتحل الى القدس بعزم التوجه الى القاهرة التي وصلها في ثالث صفر من السنة(١٧٦) .

الزيارة الرابعة :

وفي أواخر شهر محرم من سنة ٦٧٠هـ (سبتمبر (أيلول) ١٢٧١م) ، ركب الملك الظاهر بيبرس ومعه نفر يسير من خواصه بنية التوجه الى الكرك وان كان قد اخفى حركته كعادته في كل مرة يخرج فيها . ودخلها سرا في سادس صفر دون أن يعلم أحد بنبأ وصوله فنزل بقلعتها ، ورتب في نيابة الكرك الامير علاء الدين ايدكين الفخري الاستادار . واقام بالكرك بعض الوقت ينظر في أحوالها ويتفقد شؤونها ثم توجه الى دمشق مستصحبا معه عز الدين أيدمر الظاهري نائب الكرك السابق ، فدخل دمشق في الثاني عشر من صفر حيث فوض أيدمر المذكور نيابة دمشق عوضا عن

---

(١٧٤) المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٨٢ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٣ لوحة ٥٥٢ « مخطوط » ، ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٢٥٦ « مخطوط » .

(١٧٥) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٥٨٣ .

(١٧٦) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ص ٤٠٩ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٦ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٥٢ « مخطوط » ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ ق ٣ لوحة ٦١٩ « مخطوط » ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢١٩ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٢٥٥ ، ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٣٨٩ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٤٧ .

الامير جمال الدين أقوش النجيبي[١٧٧] • ثم خرج من دمشق متوجها الى حماة حيث قرر على الملك المنصور ان يكون عسكرها ثمانمائة فارس بعدما كان ستمائة[١٧٨] ثم تابع سيره الى شيزر وحمص وحصن الاكراد وحصن عكار ، وكشفها[١٧٩] • وما ان تم له ذلك حتى قفل عائدا الى دمشق بعد غيابه عنها عشرة ايام • ولما انتهى من مهمته كر راجعا الى الديار المصرية • فدخل قلعة الجبل في الثالث والعشرين من جمادى الاولى •

الزيارة الخامسة :

وفي اوائل شهر صفر سنة ٦٧٣هـ (أغسطس (آب) ١٢٧٤م) ، ركب السلطان على الهجن متوجها الى الكرك وفي معيته الاميران بدر الدين بيسري وسيف الدين أتامش السعدي وذلك بعد ان بلغته الانباء عن انهيار أحد أبراج قلعة الكرك فآثر أن يشرف بنفسه على اعمال الترميم ، وكان بالكرك ، « بساتين محكرة بشيء يسير فأمسكها جميعا »[١٨٠] • وبعد ان اقام فيها مدة ثلاثة عشر يوما انصرف عائدا الى قلعة الجبل بالقاهرة ، وكشف في طريقه احوال الشوبك • وكان وصوله لمصر في الثاني والعشرين من شهر ربيع الاول[١٨١] •

---

(١٧٧) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ص ٧٩ ـ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ص ٤٦٦ • النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٥٧ « مخطوط » العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ ق ٣ لوحة ٦٢٣ « مخطوط » ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٢٦١ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٥٩٩ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٥٥ •

(١٧٨) مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ، ج ١ ص ٢٠٣ •

(١٧٩) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، ج ٩ لوحة ١٠٤ « مخطوط » العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٣ لوحة ٥٧٢ « مخطوط » •

(١٨٠) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ص ٨٥ • محكره : حكر الشيء حقق عليه وضبطه • وحكر فلان ارض فلان حبسها عليه ومنعه من البناء فيها ، واحتكر العقار جعله حكرا • والحكر احتباس الموقف من العقار تحت مرتب معين (انظر : القاموس المحيط • مادة حكر) •

(١٨١) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ٢٢ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦١٤ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٦٤ والمنهل الصافي ، ج ١ لوحة ٣٦٤ « مخطوط » •

(٥)

موقفه من حركة العصيان التي قامت بالكرك

ظل بقايا البيت الايوبي في مصر والشام يقضون مضاجـــع الظاهر بيبرس رغم تسلحه بالحذر وما اصطنعه من قوة وبأس ، وقد عمد هؤلاء بعد مقتل الملك المغيث عمر آخر أمراء الايوبيين بالكرك الى العمل سرا على استرجاع ملكهم • ففي سنة ٦٦٩هـ (١٢٧٠م) عزم الشهرزورية(١٨٢) ، على الثورة عليه والاطاحة بحكمه وتنصيب الملك العزيز عثمان بن المغيث عمر ، وكان الظاهر بيبرس أمره في مصر وبالغ في اكرامه بعد ان تمكن من الاستيلاء على الكرك وقتل أباه • فلما بلغ بيبرس خبر المؤامرة بادر بالقاء القبض على العزيز عثمان ، وبعض أمراء الشهرزورية وزج بهم في السجن(١٨٣) • وبهذا التصرف العاجل أمكنه أن يقضي على المؤامرة في الوقت المناسب •

ومع ذلك فان حركة المعارضة الايوبية للحكم المملوكي لم تخمد ، وكان أشدها أثرا تلك الحركة التي قامت في الكرك سنة ٦٧٤هـ (١٢٧٦م) ، واشترك في تنفيذها عدة اطراف ، اتخذوا من الكرك المنيع منطلقا لهم ، مستهدفين الاطاحة بالسلطان الملك الظاهر بيبرس ، وتنصيب أحد الامراء الايوبيين المقيمين بالكرك ، هو أخ للملك القاهر بن المعظم من أمه سلطانا

---

(١٨٢) الشهرزورية : جماعة من الاكراد سموا بهذا الاسم نسبة الى شهرزور احدى جهات كردستان حيث توجد مدينة بهذا الاسم وهي مدينة السليمانية الحالية • كانت شهرزور مدينة صغيرة خصبة كثيرة المتاجر ، الا أن في اهلها غلظة وجفاء • والشهرزورية طائفتان اللوسة والباسرية ، كانوا رجال حرب ، وبعد واقعة بغداد نزحوا عن مدينتهم ووفدوا الى مصر والشام حيث خدموا في صفوف قوات دولة المماليك (انظر : القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٤ ص ٣٦٦ ، ٣٧٣ ، الباز العريني • المماليك ، ص ٧٣) •

(١٨٣) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ص ٤٤٤ ، النويري :نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٥٣ ، ٥٤ « مخطوط » ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٣ ص ٢٦٠ ، مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ، ج ١ ص ١٨٤ ، ١٨٥ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٥٩٥ •

عليهم(١٨٤) ، ويذكر المؤرخون أنهم « عزموا علـى اقامة فتنة ونقـل دولة »(١٨٥) ، ثم ان هؤلاء الثوار رأوا ضمانا لنجاح حركتهم الاعتزاء بقوة يستندون عليها ويستمدون منها العون متى أرادوا ، وتمثلت هذه القوة في نظرهم في التتار ٠ ونعتقد أنهم اتفقوا على أن يقترن القيام بالثورة في كل من القاهرة والكرك في آن واحد غزو تتاري لبلاد الشام ، فيضعون الظاهر بيبرس بذلك بين فكي وحش مفترس لا يستطيع الخلاص منهما ، أو بين شقي رحى يطحنون قوته طحنا ويحققون بذلك أمانيهم ٠ ولكن الظاهر بيبرس بفضل اعوانه الذين حوط نفسه بهم وبث عددا منهم في انحاء دولته يتجسسون له الاخبار ، تمكن مـن كشف المؤامرة فأمر باعتقال « ثلاثة عشر أميرا من المصرية قد كاتبوا التتر فأمسكهم فأقروا بذلك واسترجع كتبهم مع البريد »(١٨٦) فقتلهم ، وبهذا التصرف السريع أمكن لبيبرس في هدوء ويسر احباط الشق الاول من المؤامرة في القاهرة ، ثم اتبع بذلك بضربة مفاجئة سريعة سددها على المتآمرين في الكرك ، فبعث جماعة من امراء المماليك كانوا موضع ثقته سرا الى غزة وأمرهم بالاقامة الى حين وصول تعليماته اليهم ٠

ثم خرج الظاهر بيبرس متوجها الى الكرك في الثالث عشر من ذي الحجة ٦٧٤هـ (٣٠ مايو (أيار) ١٢٧٦م) وبرفقته نفر يسير من اتباعه تجنبا لاثارة مشاعر الشك لدى المخامرين فيها ٠ وسلك بيبرس في رحلته الطريق المؤدي الى وادي موسى حيث مر على البتراء ، وشاهد آثارها

---

(١٨٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ص ١٣٣ ، النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٧٠ « مخطوط » ٠

(١٨٥) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٧٠ « مخطوط » ، اما ابن كثير فيقول : « انهم يريدون قتل من فيه ويقيمون مكلا عليهم » (البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٢٧٠) ، ويقول ابن الفرات في ذلك : « قد بلغه عن بعض رجال القلعة بالكرك ما لا يليق من اقامة فتنة ونقل دولة » (تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ٥٤) ويقول العيني : « وكان قد بلغه عنهم أنهم يريدون قتل من فيه ويقيمون ملكا عليهم » عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ لوحة ٦٠٥ « مخطوط » ٠

(١٨٦) ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٢٧٦ « مخطوط » ٠

العجيبة ورمالها متعددة الالوان من حمراء وزرقاء وبيضاء(١٨٧) . كما شاهد قبر النبي هارون الكائن في رأس وادي خشيبة على يسار القادم من العقبة الى البتراء ، ثم مر بقلعة (الاصوت)(١٨٨) فصعد اليها فوجدها قلعة لا ترام من أعجب الحصون وأشدها منعة ، ولم يكن قد رأى قلعة تضاهيها في القوة والوثاقة والمناعة ، وما ان انتهى من معاينة هذه القلعة حتى انحدر هابطا الى مدينة البتراء الاثرية « وهي ثقوب في الجبال من أحسن الاشكال ، ذات بيوت بالعمد وابواب ، وظواهر البيوت مزوقة بالنقوش في الحجارة بالازميل ، وكلها مخرمة بها صور أشكال ، وهي على قدر دور النـــاس المبنيـــة الان ، جميعـــه منحوت بالحديد اشكال المغاير »(١٨٩) . ثم تابع سيره بعد ذلك الى قلعة الشوبك وخيم هناك حيث وافاه أمراء بني عقبة وغيرهم من أمراء العربان لخدمته . وقدموا له الخيول والهجن وما يحتاج اليه في طريقه . وفي اليوم التالي واصل سيره عن طريق الحسا « ودخل حصن الكرك بغتة »(١٩٠) ، فارتاع المتآمرون عليه بالكرك واسقط في أيديهم . فاستدعاهم وكانوا ستمائـــة مملوك فكاشفهم بما عزموا عليه ثم أمر بشنقهم جميعا . فشفع بهم من كان عنده من الأمراء ، فاكتفى بطردهم من الكرك وأجلاهم الى الديار المصرية ، وأمر بقطع أيدي وأرجل ستة نفر منهم مـــن خلاف ، كانوا سبب الفتنـــة

---

(١٨٧) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٧١ « مخطوط » ــ ابن الفرات : ج ٧ ص ٥٣ .
وعن زيارته للبتراء انظر :
Kammerer, Petra et la Nabatene, P. 365.

(١٨٨) وارى أن هذه القلعة هي قلعة سلع التي ذكرتها المصادر العربية . وسلع كلمة عبرية تعني « الصخر » والبتراء كلمة يونانية تعني « الصخر » أيضا . فالقلعة على هذا النحو هي نفس « قلعة البتراء » . وقد نعتتها المراجع الحديثة بقلعة « الحبيس » لوقوعها على قمة الطرف الجنوبي من الحبيس . الواقع في الجانب الغربي من مدينة البتراء . وهذه القلعة استخدمها صلاح الدين عندما افتتح الشوبك وانتزعها من الفرنج (انظر : النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٧١ «مخطوط» ابن الفرات : تاريخ ابن الفرا ت ، ج ٧ ص ٥٤ ــ حولية دائرة الاثار العامة الاردنية ، العدد ١٥ سنة ١٩٧٠م ص ٦٣) .

(١٨٩) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٧١ « مخطوط » .

(١٩٠) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ص ١٢٣ .

ورؤوسها[١٩١] • ثم أرسل في طلب المماليك الذين كانوا قد سبقوه الى غزة فرتبهم في قلعة الكرك • ومبالغة منه للقضاء مستقبلا على أية حركة مناهضة لـــه استدعـــى الطواشي شمس الديـــن صواب السهيلـــي الصالحي[١٩٢] • وكان يتولى صناعة الانشاء بمصر وسلم اليه الحصن « وفوض اليه النظر في أمواله وحواصله وذخائره »[١٩٣] واقام الظاهر بيبرس في الكرك نحو نصف شهر قوم خلالها أمور المدينة ونظم أحوالها • ثم غادرها في اوائل المحرم من سنة ٦٧٥هـ (يونيو (حزيران) ١٢٧٦م) • متوجها الى دمشق ومنها الى حلب ، حيث كشف أحوالها ، ثم كر راجعا الى قلعة الجبل في القاهرة • وهكذا تم له بفضل فطنته ويقظته القضاء على أخطر حركة أيوبية قامت في الكرك ضده •

---

(١٩١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ص ١٢٣ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٧٠ « مخطوط » ــ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ٥٤ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٢٥ ــ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٢٧٦ « مخطوط » •

(١٩٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ص ١٢٣ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٧٠ « مخطوط » ــ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٢٧٠ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ لوحة ٦٠٥ « مخطوط » •

(١٩٣) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٧٠ « مخطوط » •

(٦)

منشآت بيبرس في كل من : عجلون والصلت والاغوار والكرك

اهتم الظاهر بيبرس اهتماما خاصا بمنطقة شرقي الاردن ، فخصها بعنايته وأمهرها بعدد من المنشآت الحربية والمدنية والدينية ما زالت آثارها قائمة حتى يومنا هذا . وفيما يلي قائمة بأعماله الانشائية في مناطق الاردن المختلفة .

١ ـ عجلون :

عندما اجتاحت قوات التتار بـــلاد الشام في سنة ٦٥٨هـ (١٢٦٠م) دهمت كل المناطق الشمالية من شرقي الاردن ، بلغت غاراتهم عجلون والصلت وحسبان وبركة زيزاء والموجب(١٩٤) . ولا نشك في أن غاراتهم شملت عمان وعجلون وغيرها من مدن وقرى البلقاء « فقتلوا على عادتهم الرجال وسبوا الصبيان والنساء واستاقوا من الأسرى شيء كثير »(١٩٥)، كما لا نشك في أنهم دمروا في سيرهم كل ما صادفهم من قلاع وحصون ومن بينها قلعتي الصلت وعجلون(١٩٦) .

وما ان تم لبيبرس تسلم مقاليد السلطنة حتى أمر بعمارة القلاع الشامية التي دمرها التتار ، وفي جملتها قلعتي عجلون والصلت . أما قلعة عجلون فقد ولى عليها الامير عز الدين أيبك العلائي نائبا ، وأمره باصلاح ما اتلفه التتار ، فجددها وعمرها وزاد في ابراجها ووسعها ، وطهر الخندق المحيط بها ، ونقل اليها الذخائر والاسلحة والالات الحربية ومن بينها المنجنيقات لتكون قريبة من ميدان صراعه مع الفرنج(١٩٧) ،

---

(١٩٤) أبو شامة : تراجم رجال القرنين ، ص ٢٠٤ .

(١٩٥) أبو شامة : المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .

(١٩٦) أبو شامة : المصدر السابق ، ٢٠٦ ، ابن دقماق : نزهة الانام ، ج ٦ لوحة ١٣١ « مخطوط » ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٤٤٦ .

(١٩٧) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٥٣٤ .

ثم اتخذها مركز مواصلات هام يربط مصر بالشام ، وجرد اليها المماليك والاجناد(١٩٨) • وقد خلد الظاهر بيبرس أعماله في قلعة عجلون بنقش تذكاري نقش في كتلة من الصخر شاهدتها ملقاة في ساحة البرج الجنوبي الغربي من القلعة هذا نصه :

« عمل في أيام مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والديـن بيبرس الصالحي أعز الله أنظاره بنظر العبد الفقير الراجي عفو الله وغفرانـه ملـك الامراء عز الدين أيبك العلائي بتاريخ العشرين من شعبان سنة تسعة وخمسين وستمائة » •

أما مدينة عجلون نفسها فقد أكرم أهلها وآثرهم بانشاء خالد ما زال قائما حتى اليوم في قلب مدينة عجلون ويتمثل في مئذنة مسجدها الجامع حيث خلد ذكراه في نقش مثبت فوق باب المنارة من الجهة الغربية طالعته كما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقـام الصلاة وآت الزكاة ولم يخش الا الله فعسى اولئك أن يكونوا من المهتدين • أنشأ هذا البناء المبارك في أيام السلطان بن السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس قسيم أمـير المؤمنين المغفور له الراجي رحمة ربه سليم بن عبد الله الشنوري تغمده الله وأسكنه بحبوحة جنته ورحم الله من ترحم عليه سنة اثنين وستين وستمائـة مـن الهجرة النبوية »(١٩٩) •

---

(١٩٨) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٤٤٦ •

(١٩٩) وانظر النص أيضا في :

Combe, Sauvaget, Wiet,
Repertoire chronologique d'epigraphie Arabe, vol.12, P. 86.

٢ ـ الصلت :

أما قلعة الصلت فكان قد تسلمها من نائبها بدر الدين محمد بن الحاج الناهض الاتابكي وعين فيها احد نوابه(٢٠٠) ، وأمره باصلاح ما هدمه التتار • فوسع أبراجها وجدد ختادقها ودعم تحصيناتها(٢٠١) • وخزن بها الازواد والغلال والذخائر ، وجرد اليها المماليك والاجناد ، كما قام بتجديد جامعها واصلاح مساجدها الاخرى(٢٠٢) • ولا شك أنه أولى كلا من حسبان وعمان وزيزاء جانبا كبيرا من عنايته ، فأعاد بناء ما دمره التتار أسوة بغيرها من المدن والقلاع والقرى الاردنية •

٣ ـ الاغوار :

أما الاغوار فقد بالغ في الاهتمام بها وبمنشآتها لانها تقع على خط مواصلاته وتربط دمشق بالقاهرة ، بالاضافة الى اراضيها الخصبة وغلالها الوفيرة ، فشجع الزراعة فيها واتخذ من قرية القصير (الشونة الشمالية) بمزارعها الغنية بقصب السكر اقطاعا خاصا له(٢٠٣) • وبنى العديد من القناطر والجسور على نهر الاردن تسهيلا لحركة القوافل التجارية والحملات العسكرية عبره ، ومن أهم منشآته بالاغوار :

أ ـ جسر دامية :

في جمادى الاولى سنة ٦٦٤هـ (فبراير (شباط) ١٢٦٦م) رسم السلطان ببناء جسر دامية على نهر الاردن قريبا من قرية دامية ، وندب لهذا العمل الامير جمال الدين نهار المهمندار(٢٠٤) ، وطلب منه ان يكون من خمس قناطر ، واجتمع الولاة لمساعدته نذكر من ابرزهم الامير بدر

---

(٢٠٠) ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ص ٨٥ •
(٢٠١) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٤٤٦ •
(٢٠٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ص ٢٦٠ •
(٢٠٣) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٥٠ « مخطوط » •
(٢٠٤) المهمندار : والمهمندارية موضوعها ، تلقى الرسل الواردين ، وأمراء العربان وغيرهم ممن يرد من أهل المملكة وغيرها (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ص ٢٢) •

الدين محمد بن رحال والي نابلس والاغوار(٢٠٥) • وعندما تكامل البناء وتفرق كل الى حال سبيله اضطرب بعض اركان الجسر ، فقلق السلطان ، وانكر عليهم ذلك وطلب منهم اعادة اصلاحه • ولكن عملية الاصلاح تعذرت بسبب زيادة منسوب الماء في النهر وقوة اندفاعه • فانتظروا اياما وقد تيقنوا العجز ، ولكن حدث في ليلة ١٧ ربيع الاول ٦٦٦ﻫ (ليلة ٨ ديسمبر (كانون اول) ١٢٦٧م) ان انقطع ماء الشريعة من منتصف الليل الى الرابعة من نهار اليوم التالي ، فبادر الصناع والعمال فأشعلوا النيران الكثيرة والمشاعل واغتنموها فرصة لاتمام الخلل • وامكنهم بالفعل اصلاح الاركان الواهية وتدعيمها وتقويتها • وفي نفس الوقت ارسلوا من يكشف خبر هذه الحادثة ، فوجدوا ان كنارا مرتفعا كان يشرف على الشريعة من الجانب الغربي قد سقط في المجرى وحجز الماء خلفه كالسكرة ، وبقي كذلك حتى تمكن التيار من اختراق ذلك السد واندفع بقوة باتجاه الجنوب ، وكان بعلو رمح ، ومع ذلك لم يتمكن من البنيان لتقانته وصلابته • الا انه حمل معه ما كان حول الجسر من معدات العمارة والبناء ، وقد اعتبر النويري ذلك شيئا عجبا فهو يقول : « وهذه الحادثة من عجائب الاتفاق »(٢٠٦) ، وقد ظل هذا الجسر قائما بعد ذلك وقد شاهده النويري وعبر عن ذلك بقوله : « وهذا الجسر باق الى وقتنا هذا » ، وما زال الجسر نفسه قائما حتى اليوم ، وقد ثبتت على عقده المركزي لوحة تذكارية يكتنفها أسدان هما رنك(٢٠٧) الظاهر بيبرس ونص الكتابة ما يلي :

---

(٢٠٥) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٢ ص ٣٤٦ ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٣٨ « مخطوط » ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٢٤٧ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٤١ •

(٢٠٦) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ٣٨ « مخطوط » •

(٢٠٧) الرنك : علامة خاصة مميزة للخليفة أو الامير أو السلطان تنقش على كل ما يخصه من املاك ، فيدهنون الرنك على أبواب بيوتهم والاماكن المنسوبة اليهم ، مثل مطابخ السكر ، والمراكب • وكذلك تنقش على قماش خيولهم وجمالهم وعلى السيوف والعبى والاقواس (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ص ٦١) • وكان رنك الظاهر بيبرس السباع ، اما قلاوون فكان دائرة بيضاء يشقها شطب اخضر عليه سيف احمر يمر في البياض العلوي ، وكان في غاية الظرف حتى أن النساء الخواطي كن ينقشنه على معاصمهن • انظر :

Quatremer, Histoire des Sultans Mamlouks, vol. 1, P. 15.

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد وصحبه أجمعين أمر بعمارة هذا الجسر المبارك السلطان الاعظم الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس بن عبد الله في أيام ولده ناصر الدين بركة خان أعز الله أنصارهما وغفر لهما . وذلك بولاية العبد الفقير الى رحمة الله علاء الدين علي السواق غفر الله له ولوالديه في شهر رمضان سنة احدى وسبعين وستمائة »(٢٠٨) .

ووقف الظاهر بيبرس على هذا الجسر وقفا كبيرا للانفاق على اصلاحه، وما عساه ينهدم منه ، ولم تقتصر انشاءاته المدنية على هذا الجسر وانما « أنشأ جسورا كثيرة بالغور والساحل »(٢٠٩) .

ب ـ مقام أبو عبيدة بن الجراح :

قبل وفاة الظاهر بيبرس بعام واحد تم بناء قبة على قبر الصحابي الجليل أبي عبيدة عامر بن الجراح(٢١٠) بالقرب من قرية عمتا(٢١١)

---

(٢٠٨) زار هذا الجسر العديد من الرحالة والمستشرقين في أواخر القرن التاسع عشر ، ونشر نص هذا النقش كليرمونت جانو في المجلة الاسيوية سنة ١٨٨٨م . (انظر : وليم موير : دولة المماليك ، ص ٤٦ حاشية رقم ١) . ومن الجدير بالملاحظة أن المصادر العربية أشارت الى أن عمارته بدأت في سنة ٦٦٤هـ (١٢٦٦م) وأن السلطان أمر باعادة اصلاحه وتثبيت اركانه سنة ٦٦٦هـ (١٢٦٧م) . اما اللوحة التأسيسية للجسر فتحمل تاريخ ٦٧١هـ (١٢٧٢م) . وهذا يعني أن عملية البناء استمرت سبع سنوات وشهر تقريبا . اما علاء الدين على السوق فهو المهندس الذي بناه . انظر : اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ، ص ٣٤٦ ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ ، لوحة ٣٨ « مخطوط » . ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٢٤٧ ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٢٤٣ « مخطوط » .

(٢٠٩) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ص ٢٥٩ ، وانظر : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٩٤ .

(٢١٠) أبو عبيدة بن الجراح : احد الصحابة والقادة المشهورين الذين فتحوا بلاد الشام . توفي في طاعون عمواس سنة ١٨هـ . ودفن في هذا المكان من غور الاردن وما زال مقامه باقيا حتى الان (انظر البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٣٩) .

(٢١١) عمتا مدينة في الغور من الاردن ، بها قبر أبو عبيدة بن الجراح ، تقع في منتصف الغور بينها وبين عمان ١٢ مرحلة ومثلها عن طبرية (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ص ٧٢٢ ـ ابن شداد : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ص ٨٨) .

بغور الاردن ، ذلك الغور الذي يحمل اسمه ، وقد ندب لهذه المهمة نائب عجلون ، ووقف عـلى هـذا المقام وقفا كبيرا « لتنويره وبسطه وأمامـــه ومؤذنه »(٢١٢) • وكان البناء يحمل النقش التالي :

« بسم الله الرحمن الرحيم • أمر بانشاء هذه القبة المباركة على ضريح أمين الأمـــة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه مولانا السلطان الاعظم سيد ملوك العرب والعجم ، مركز الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين أبو الفتح بيبرس بن عبد الله قسيم أمير المؤمنين خلد الله ملكه ابتغاء مرضاة الله ورسوله وقفـه وحبســه عليه من نصف مغل تونين من مناصفات حمص من عمل حصن الاكراد المجروس تحبيسا مؤبدا دائما أثاب الله وقفه بجوده وكرمـــه يوم يجزي الله المتقين ولا يضيع أجر المحسنين وذلك بنظر الامير الاجـل الاعز اللبيب ناصر الدين بن منكلي الظاهري السعدي نائب مملكـة عجلون المحرر في شهر ذي الحجة سنة خمس وسبعين وستمائة »(٢١٣) •

٤ ـ الكرك :

كانت الكرك دون غيرها من مدن شرقي الاردن المدينة الاثيرة لدى بيبرس ولذلك خصها باهتمامه ، فجدد الكثير في ابنية القلعة والمدينة • من ذلك تجديده لبرجين «كانا صغيرين فهدمهما وكبرهما وعلاهما»(٢١٤)

---

(٢١٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ص ٢٥٣ ـ انظر : ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٢٧٦ ، ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٢٩٧ « مخطوط » •

(٢١٣) أما المسجد المقام حاليا فهو بناء حديث ، قامت ببنائه دائرة الاوقاف العامة الاردنية • (تقرير دائرة الاثار العامة عن وادي اليرموك ووادي الاردن لعام ١٩٧٥ بقسم التسجيل بالدائرة) •

(٢١٤) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ص ٢٥٩ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٩٤ •

وما زال البرج الرئيسي للقلعة القائم في الجهة الجنوبية منها يعرف باسم برج الظاهر بيبرس ، وهو أكبر الابراج واقواها ، ويحمل نقشا كتابيا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .... السلطان الملك الظاهر السيد الاجل الكبير العالم العادل المجاهد المرابط المؤيد المظفر ركن الدنيا والديـــن سلطان الاســـلام والمسلمين سيد الملوك والسلاطين قاتل الكفرة والمشركين ناصر الحق مغيث الخلق ملك البحرين صاحب القبلتين خادم الحرمين الشريفين محيي الخلافة المعظمة ظل الله في الارض قسيم أمـــير المؤمنـــين بيبرس بن عبد الله الصالحي أعز الله سلطانه »(٢١٥) .

كذلك اهتم الظاهر بتحصين المدينة ، ففيها برج آخر من انشائه يحمل نقشا وصورة الاسد رنك الظاهر هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .... السلطان الملك الظاهر السيد الاجل الكبير العالم العادل المجاهد المرابط المؤيد المظفر المنصور ركن الدنيا والدين سلطان الاسلام والمسلمين سيد الملوك والسلاطين ناصر الحـــق مغيث الخلق ملك البحرين صاحب القبلـــة خادم الحرمـــين الشريفين محيي الخلافة المعظمة ظل الله في الارض قسيم أمـــير المؤمنـــين بيبرس بن عبد الله الصالحي أعـــز الله أنصاره »(٢١٦) .

---

(٢١٥) Combe, Sauvaget, Wiet,
Reperioire chronologique d'epigraphie Arabe, vol. 12, P. 222.

(٢١٦) الرحالة بيركهارت لم يتمكن من قراءة النقش بسبب بعده ، ولكنه شاهد صورة الاسد بوضوح (بيركهارت : رحلات بيركهارت ، ج ٢ ص ١٠٤) .
Combe, Sauvaget, Wietfi op. cit, vol. 12, P. 223.

٥ ـ مقام جعفر الطيار في مؤتة :

قام الظاهر بيبرس بتوسعة وتجديد مسجد جعفر الطيار(٢١٧) في مؤتة جنوبي الكرك • ووقف عليه وقفا زيادة على وقفه الاصلي كي يقوم بالانفاق على « الزائرين له والوافدين عليه »(٢١٨) •

٦ ـ الشوبك :

أولى الظاهر بيبرس الشوبك كغيرها من القلاع والحصون عناية خاصة وجدد فيها وزاد ، وقد وصل الينا نقش يحمل عبارة مبتورة موزعة على ثلاث قطع من الحجر ثبتت كل منها في موضع من القلعة • وسبب هذا التهشيم الذي تعرضت له اللوحة التاريخية يرجع الى ان الشوبك تعرضت للهدم والتدمير في عهد الاشرف خليل ، والظاهر ان اللوحة تعرضت للكسر ، وعندما أعيد ترميمها وضعت قطعها المفككة في مواضع مختلفة ، الامر الذي تعذر معه تحديد ما جدد فيها • واحد هذه القطع مثبتة في منتصف احد الابراج الدائرية بالقلعة ، والثانية في بناء البرج المربع ، أما القطعة الثالثة فمثبتة فوق أحد أبواب بيوت القلعة ، ومن مجموع هذه النقوش نقرأ العبارة التالية :

•••••• المجاهد المنصور ركن الدنيـــا والدين
بيبرس بن عبد الله •••• قسيم أمير المؤمنين خلد الله
ملكه و •••••• (٢١٩) •

---

(٢١٧) جعفر الطيار : هو جعفر بن أبي طالب ، أحد قواد الحملة التي سيرها الرسول صلى الله عليه وسلم ، لتأديب صاحب مؤتة الذي كان قد قتل رسول النبي الى صاحب بصرى ، وقد دارت المعركة في مؤتة سنة ٨هـ (٦٢٩م) حيث استشهد فيها قادة الحملة وهم : زيد بن حارثة ، وجعفر بن ابي طالب ، وعبدالله بن رواحة الانصاري • وقبورهم موجودة الى الان في مزار مؤتة (انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ، القاهرة ١٩٣٦م ، ج ٤ ، ص ١٥ وما بعدها) •

(٢١٨) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ص ٢٥٩ • وانظر أيضا : ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٢٧٦ ، العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ لوحة ٦٢٠ ، « مخطوط » أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٩٤ ، ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٢٩٧ « مخطوط » •

(٢١٩) Brunnow, (R.E.).
Provincia Arabia, vol. 1, P. 119.
Combe, Sauvaget, Wiet,
op. cit. vol. 12, P. 224.

الفصل الثاني

أحداث الكرك بعد وفاة الظاهر بيبرس

١ ـ مرحلة الانتقال بين وفاة الظاهر بيبرس واعتلاء قلاوون دست السلطنة ٠

٢ ـ ثورة ولدي الظاهر بيبرس في الكرك ٠

٣ ـ ثورة سنقر الاشقر في دمشق واتصال أبناء الظاهر به ٠

٤ ـ موقف المنصور قلاوون من مؤامرة الامراء الظاهرية والخارجين عليه في بلاد الشام ٠

٥ ـ موقف القاهرة من ثورة أبناء بيبرس بالكرك ثم ترحيلهم عنها ٠

(١)

مرحلة الانتقال بين وفاة الظاهر بيبرس

واعتلاء قلاوون دست السلطنة

حاول الظاهر بيبرس ان يقضي على مبدأ تغلب الاقوى من الامراء على العرش فأقام لذلك نظاما اداريا دقيقا يقضي بجعل الحكم وراثيا في أبنائه • فأخذ البيعة بولاية العهد لابنه الملك السعيد بركة خان من الأمراء ، وأركب بشعار السلطنة في شوال ٦٦٢هـ (أغسطس (آب) ١٢٦٤م) • وقضى وهو مطمئن الى ان الملك سيؤول الى ابنائه من بعده ويبقى في ذريته • والظاهر ان لعنة الايوبيين لم تمهله مدة طويلة ، وظلت تلاحقه حتى لقي حتفه في قصر الابلق بدمشق في يوم الخميس ٢٧ من المحرم سنة ٦٧٦هـ (٣٠ يونيو (حزيران) ١٢٧٧م) مسموما بنفس الكأس التي قدمها الى الملك القاهر عبد الملك بن الناصر داود الايوبي[١] •

أخفي موت الظاهر بيبرس وصبر وترك في قلعة دمشق حيث ووري التراب ، ثم ارتحل نائبه ومملوكه بدر الدين بيليك المعروف بالخزندار بالعساكر نحو القاهرة ومعهم المحفة مظهرا أن الملك الظاهر محمول عليها لمرضه • وما كاد الموكب السلطاني يصل الى قلعة الجبل بالقاهرة ، حتى أظهر موت الملك الظاهر بيبرس ، وأجلس السعيد بن الظاهر بيبرس للعزاء ، ثم نصب على دست السلطنة في أوائل شهر ربيع الاول سنة

(١) كان الظاهر بيبرس يتوهم من الايوبيين ، وحدث أن قدم الملك القاهر الى دمشق أثناء وجود الظاهر بيبرس فيها ، فاستدعاه وقد نوى اغتياله ، فقدم له شرابا مسموما ، فلما تناوله القاهر احس بألم في امعائه فتركه الى اهله ولم يلبث أن قضى نحبه • أما الظاهر بيبرس فقد غلط الساقي وناوله كأس القاهر وكان لا يزال بها آثار السم ، وما ان تناولها حتى أحس بالالام الشديدة في احشائه ، وعجز الاطباء عن عمل شيء لانقاذه ، ومات بنفس الكأس التي قدمها لغريمة • (انظر : بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ١٢٦ « مخطوط » أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ١١ ، ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٢٩٣ « مخطوط ») •

٦٧٦هـ (أغسطس (آب) ١٢٧٧م) وبدأ الملك السعيد عهده بالعمل على بناء تربة لوالده بدمشق ، فأمر بانشائها واتخذ فيها مدرستين أحداهما للشافعية والاخرى للحنفية ، كما أنشأ بها دارا للحديث ، ووقف على الجميع أوقافا عديدة منها : قرية بهمين من بيت رامة من الغور ، وأحد عشر سهما وربع سهم وثمن سهم من قرية الطرة الواقعة بين اربد وأذرعات في شمالي البلاد[٢] .

لم يستطع المماليك الاخذ بمبدأ الوراثة في الحكم ، وذلك أن السلطان في نظرهم لم يكن اكثر من مملوك كبير المقام ينتخبه رفقاؤه ، وكان كل منهم يشعر أنه خشداش له[٣] . كما كانوا يؤمنون ان الملك يجب ان يؤول الى أقوى الامراء وأكثرهم شجاعة وأوسعهم حيلة ، وأكثرهم اتباعا ، وأضخمهم ثروة ، ولذلك كان السلاطين يرتفعون الى العرش أو يسقطون منه وفق مشيئة كبار الامراء[٤] . من هذا المنطلق لم يعترف أمراء المماليك بفكرة الوراثة وتطلعوا الى التخلص من الملك السعيد ، فاتهموه بممالاة الخاصكية[٥] وتقديمه لهم بحيث تمكنوا من الظهور على حساب الامراء الكبار الذين أبعدهم وقلل من نفوذهم[٦] . وكان لهذا الاتهام أثره في اشاعة مشاعر الحقد في النفوس ، وبث روح الكراهية بين مختلف طوائف الجند ، فتنافرت القلوب[٧] ، وانتظر أمراء المماليك الكبار الفرصة المواتية يستغلون فيها هذا الانقسام ويطيحون بالملك السعيد .

---

(٢) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

(٣) ستانلي لينبول : سيرة القاهرة ، ص ١٨٠ .

(٤) Muir, The Mameluke, P. 86.

(٥) الخاصكية : عدد من الامراء يلازمون السلطان في خلواته ويسوقون المحمل الشريف . ويجهزون في المهمات الشريفة ، وهم أقرب الناس الى السلطان . (ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٦) .

(٦) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ١٢٩ « مخطوط » ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٢٨٧ ، مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٣٠٢ ، محمد جمال سرور : دولة بني قلاوون في مصر ، ص ١٩ .

(٧) ابن الفوطي : التجارب النافعة ، ص ٣٩٣ ، الذهبي : دول الإسلام ، ج ٢ ، ص ١٧٩ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٥٢ .

ففي ذي القعدة سنة ٦٧٧هـ (ابريل (نيسان) ١٢٧٩م) ، خرج الملك السعيد من القاهرة الى دمشق ، فوصلها في خامس ذي الحجة ، وكان يصحبه في رحلته أخوه الملك المسعود نجم الدين خضر ووالدته[٨] • ومن هناك وجه جيشا بقيادة الامير سيف الدين قلاوون الصالحي الى بلاد سيس[٩] ، وبقي هو في دمشق • ولكن الجيش المملوكي بعد ان أدى مهمته تآمر قادته على خلع السلطان[١٠] فما كاد العساكر يقفلون من غزوتهم حتى نزلوا في مرج الصفر خارج دمشق واعلنوا العصيان • وترددت الرسل بين الطرفين ، ولكن السعيد لم يجبهم الى كل مطالبهم فساقوا الى الديار المصرية • عندئذ شعر الملك السعيد بتحرج موقفه ودقته فأرسل « أولاده وأهله وثقله الى الكرك فحصنهم بها »[١١] ، ثم جمع من بقي من عساكر مصر والشام واستدعى العربان وانفق فيهم ، وخرج من دمشق بحشوده متوجها نحو مصر • فوصل بلبيس في منتصف ربيع الاول سنة ٦٧٨هـ (٢٧ يوليو (تموز) ١٢٧٩م) • وهناك خامر عليه من كان معه من عساكر الشام وتركوه في قلعة من اتباعه وقفلوا عائدين الى دمشق[١٢] • وعلى الرغم من خذلان العسكر الشامي له فقد تمكن من دخول القلعة حيث حوصر بها اسبوعا[١٣] • وفشلت كل المساعي في الاصلاح بين الطرفين

---

(٨) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ١١٢ •

(٩) سيس : هي قاعدة بلاد الارمن ، بلدة ذات بساتين واشجار ، ولها قلعة حصينة عليها ثلاثة اسوار تقع على جبل مستطيل ، بناها بعض خدام الرشيد (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ١٣٤) •

(١٠) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ١٢ •

(١١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٢٨٨ • وانظر أيضا : اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ص ٣ ــ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ١٤٤ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٥٣ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٢٦٨ ــ بامخرمة : قلادة النحر في وفيات اعيان الدهر ، ج ٣ لوحة ٩٤٣ •

(١٢) ابن الفرات : تاريخ بن الفرات ، ج ٧ ص ١٤٤ ــ ابن دقماق : الجوهر الثمين لوحة ١٢٤ « مخطوط » ، المقريزي السلوك ، ج ١ ص ٦٥٤ • منفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٣٠٤ • أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٢٦٨ ــ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣٠٤ « مخطوط » •

(١٣) ابن دقماق : الجوهر الثمين ، لوحة ١٢٤ « مخطوط » ــ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ لوحة ٦٤٤ « مخطوط » ، ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١١٣ ــ أما ابو المحاسن فيقول : أن الحصار دام ثلاثة أيام (انظر : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٢٧٠) •

وأبوا « الا خلع نفسه من السلطنة والتخلي عن المملكة »(١٤) ، وازاء ذلك اضطر الملك السعيد الى قبول مطالبهم وتقضى بتخليه عن السلطنة واقطاعه الكرك واعمالها واقطاع أخيه خضر الشوبك وأعمالها(١٥) • ثم حلف له الامراء بعدم ايذائه او التعرض له واشترطوا عليه مقابل ذلك ألا « يتطرق الى غير الكرك ولا يكاتب احدا من النواب ولا يستميل الى جهته احدا من الجند ولا من الاعراب »(١٦) • ثم أرسلوه الى الكرك صحبة الامير سيف الدين بيدغان الركني ، فوصلها في نهاية شهر ربيع الاول ٦٧٨هـ (١٧) (١٠ أغسطس (آب) ١٢٧٩م) ، فتسلمها من نائبها الامير علاء الدين أيدكين الفخري • كما تسلم « ما كان ادخره والده من الاموال العظيمة والذخائر الجسيمة »(١٨) ثم نصب الامراء المماليك أخاه بدر الدين سلامش ، وهو ابن سبع سنين ، بعد أن أجمعوا على أن يتولى الامير

---

(١٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ١٣٧ « مخطوط » • وانظر أيضا : النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ١٢٦ « مخطوط » ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ لوحة ٦٤٤ « مخطوط » •

(١٥) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ص٥ • ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٢٨٨ ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ١٤٥ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٢٦٩ ، سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، ص ٩٤ ـ ٩٦ ، ابراهيم طرخان : النظم الاقطاعية ، ص ٦٦ •

(١٦) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ١٣٧ « مخطوط » ـ وانظر أيضا : النويري : نهاية الارب ، ج ٢٨ لوحة ١٢٦ «مخطوط» ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ١٥٧ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ، لوحة ١٢٤ « مخطوط » المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٥٥ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ لوحة ٦٤٤ « مخطوط » ـ السلامي : مختصر التواريخ ، لوحة ٣٥٤ « مخطوط » ، ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣٠٦ « مخطوط » •

(١٧) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ١٣٧ « مخطوط » ـ ابن الوردى : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢٢٧ ـ مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٣٠٦ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ لوحة ٦٤٤ « مخطوط » •

(١٨) مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٣٠٦ • وانظر أيضا : أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ١٣ ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ ق ٣ ، لوحة ٦٢٩ « مخطوط » ـ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ١٤٧ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٥٥ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ، ق ٤ ، لوحة ٦٤٤ « مخطوط » ، ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣٠٦ « مخطوط » •

سيف الدين قلاوون الالفي مهمة الاتابك ، وكان المماليك قد عرضوا عليه الملك فأبى ذلك خوفا من المماليك الظاهرية ، وكان في حقيقة أمره يطمح في الملك ويسعى حثيثا من اجله ، الا انه كان يعمل بهدوء وروية وحسن تدبير « وكان ذلك من حسن تدبير قلاوون وسياسته لانه سكن ثورة الظاهرية فانهم كانوا معظم عسكر الديار المصرية »(١٩) . حتى اذا ما استتبت له الامور ، جمع المماليك الصالحية فوزع عليهم الاقطاعات وأمرهم وأرسل بعضهم الى البلاد الشامية واستنابهم في القلاع وأبعد الظاهرية وأودعهم السجون(٢٠) ، ولما تم له مراده من تفريق شمل خصومه ومن يحسب حسابهم من أنصار سلامش أقدم على خلعه وارتقى دست السلطنة في ٢١ رجب ٦٧٨هـ (٢١) (١٧ نوفمبر (تشرين ثاني) ١٢٧٩م) . أما سلامش فقد بعث به الى الكرك فلحق باخوته هناك(٢٢) .

ما كاد الملك المنصور قلاوون يتخلص من أبناء الظاهر بيبرس ويستولي على السلطنة حتى واجه عواصف عاتية تعرضت لها البلاد في الداخل والخارج تتمثل داخليا في ثورة ابناء الظاهر بيبرس بالكرك ، وثورة سنقر الاشقر بدمشق ، بالاضافة الى مؤامرة قام بها المماليك

(١٩) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ١٤٧ ويقول المقريزي : لما تم خلع الملك السعيد ، عرض الامراء السلطنة على الامير سيف الدين قلاوون الالفي فامتنع ... فاستحسن ذلك منه لان الفتنة سكنت ، فان الظاهرية كانوا معظم العسكر ، وكانت القلاع بيد نواب الملك السعيد .. وقصد قلاوون بهذا القول أن يتحكم حتى يغير النواب ويتمكن مما يريد (السلوك ، ج ١ ، ص ٦٥٦) .

(٢٠) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ١٥٠ – ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٣٩٤ ، ويقول المقريزي : « واعطى قلاوون ومنع وقطع ووصل واستخدم وعزل ، فكان صورة أتابك وتصرفه تصرف الملوك » (السلوك ، ج ١ ص ٦٥٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ص ١١٤ – محمد جمال سرور : دولة بني قلاوون في مصر ، ص ٢١ . Lane Poole, A History of Egypt, P. 277.

(٢١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٨٩ – ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ١٥٠ – أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٢٨٧ – أما أبو الفداء فجلعها في ٢٢ رجب (المختصر ، ج ٤ ص ١٣) ، المقريزي : جعلها في العشرين من رجب (السلوك ، ج ١ ص ٦٦٣) .

(٢٢) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ١٥١ – مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٣١١ – المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٥٨ .

الظاهرية وكاتبوا الفرنج في سواحل الشام ، والتتار على الحدود الشمالية للبلاد ٠

وكان الملك المنصور قلاوون يتمتع بقدرة سياسية ومرونة دبلوماسية فريدة ، بالاضافة الى ما وهبه الله من الدهاء والحنكة والشجاعة والجرأة ، وهو في هذا لا يختلف عن الظاهر بيبرس ، بل يعتبر بحق المؤسس الثاني لدولة المماليك في مصر والشام ٠ لقد رأى انه لا يستطيع مواجهة الاخطار الخارجية بجبهة داخلية متصدعة ممزقة ، ولذلك آثر أن يبدأ بتوحيد الكلمة وجمع الصف ولأم الصدع ، واحباط النوايا الانفعالية التي أوشكت على تعصف بدولة المماليك ، وتتمثل في ثورة ابناء الظاهر بيبرس بالكرك ، وثورة الامير سنقر الاشقر بدمشق ، وكلتاهما تتفقان في الهدف هذه الظروف التي تعرضت لها البلاد تشابه تماما الظروف التي تعرضت لها دولة المماليك عند بداية تأسيسها ، فقد قوبلت بمعارضة قوية من قبل أيوبي دمشق والكرك وفيما يلي عرض لهذه الاحداث ٠

(٢)

ثورة ولدي الظاهر بيبرس في الكرك

لم يرض الملك السعيد بمصيره الذي انتهى اليه ، وعز عليه ان يخلع من ملكه واستقر عزمه على استرجاعه مهما كلف ذلك من جهد ومهما انفق من مال ، فأخذ يقترب الى اهل البلاد ، فأزال كثيرا من المظالم والمكوس والضمانات المتجددة في الكرك منذ عهد دولة الملك الناصر داود الايوبي ، كما الغى جميـــع الضرائب التي أحدثهـــا والده الملك الظاهر بيبرس فيها(٢٣) • وقد امكنه ان ينفذ هذا المخطط بفضل الاموال العظيمة التي تركها له ابوه بقلعة الكرك ، فاحبوه وقصدوه من كل صوب واستشعروا الامن في ظله « فاستكثر من استخدام المماليك »(٢٤) ، وصار ينعم عليهم ويحوطهم بعطفه ورعايته ، فكثر أتباعه وزاد جيشه(٢٥) ، وتنبهت الادارة المملوكية الى انه بات يشكل خطرا حقيقيا على دولـــة المماليك في مصر والشام • وكان لا بد للمنصور قلاوون ان يتحرك قبل فوات الاوان ، فعمد الى اضعاف مركزه في نظر رعيته عن طريق انتزاع أحد حصنيه المنيعين الشوبك والكرك ، فرسم بانتقال الملك خضر من الشوبك الى عند اخيه الملك السعيد بالكرك(٢٦) • وبذلك تمكن قلاوون من احباط محاولات الملك السعيد وتقليم أظافره •

ومع ذلك فقد كانت القوة التي يعتمد عليها الملك السعيد بالكرك كبيرة لا يستهان بها ، فلما انتزع منه السلطان قلاوون الشوبك ، أشار عليه قواده « ان يسيرهم ليأخذوا الشوبك وبلاد الشام اولا فأولا ، ثم

---

(٢٣) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ١٦٥ •

(٢٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٢٧١ ، وانظر : البويني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ص ٣٣ •

(٢٥) Poliak, Poudalism in Egypt Syria Palestin and the Lebanon, P. 16.

(٢٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٢٧١ ، وانظر أيضا : ابن كثير : البداية

بعد ذلك يقصدون الديار المصرية »(٢٧) كما نصحوه بان يكاتب نواب الشام ، ويطلب منهم النصرة والعون لاستعادة ملكه فاخذ بنصيحتهم(٢٨). وبادر بارسال قواته بقيادة حسام الدين لاجين رأس نوبة الجمدارية الى الشوبك فتغلب عليها وأقام بها(٢٩) . وكان رد المنصور قلاوون على هذا التصرف سريعا ، واتخذ هـــذا الرد مظهرين : الاول استخدام القوة ، والثاني اصطناع الدسيسة . بادر السلطان قلاوون بارسال قوة مـــن عسكره بقيادة الامير بدر الدين بيليك الايدمري الى الشوبك ، فحط عليها وأحكم عليها الحصار ، وما زال يضايق اهلها حتى أسلموها اليه في العاشر من ذي القعدة ٦٧٨هـ (٣٠) (١٤ مارس (آذار) ١٢٨٠م) . وفي نفس الوقت عمل على التخلص من الملك السعيد وسعى الى قتله فأرسل اليه من دس له السم(٣١) ، فتوفي في ١١ ذي القعدة ٦٧٨هـ (١٥ مارس (آذار) ١٢٨٠م)،

---

(٢٧) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ١٤٧ « مخطوط » . وانظر : النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٦ « مخطوط » ، ابن الفرات : ابن الفرات ، ج ٧ ص ١٥٧ .

(٢٨) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ١٤٧ « مخطوط » ــ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٦ « مخطوط » ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ١٥٧ ــ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٣٩٥ ــ والمقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٦٦ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ لوحة ٦٤٨ « مخطوط » .

(٢٩) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ١٤٧ « مخطوط » ــ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٦ « مخطوط » ــ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات : ج ٧ ص ١٥٧ ــ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٣٩٥ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٦٦ ــ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ لوحة ٦٤٩ « مخطوط » .

(٣٠) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ١٤٨ « مخطوط » ــ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٦ « مخطوط » ــ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ١٥٧ ــ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٣٩٥ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٦٦ ــ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ لوحة « مخطوط » . ويقول اليونيني ومفضل ابن ابي الفضائل : ان قوات الملك المنصور اقدموا على هدم الشوبك بعد استلائهم عليها (انظر : اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ص ١١ ومفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٣١٣) .

(٣١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ١٣ ص ٣٣ ــ الصفدي : الوافي فالوفيات ، ج ٢ ص ٢٧٤ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٢٩٠ ابن الفرات : ج ٧ ص ١٦٠ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٦٩ ــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٢٧٢ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣١٢ « مخطوط » .

ودفن في مؤتة بالقرب من مقبرة جعفر الطيار ثم نقل بعد ذلك الى دمشق ودفن بتربة والده • ولكن المؤرخين اختلفوا في تفسير سبب وفاتـــه فبعضهم ذكر أنه سقط من فوق ظهر فرسه عندما كان يلعب الاكرة في ميدان الكرك فحم أياما ثم مات(٣٢) • الا ان ابا المحاسن يؤكد اغتياله بالسم فيقول : « ولا يبعد ذلك عن الملك المنصور قلاوون لكثرة تخوفه من عظم شوكته وكثرة مماليك والده وحواشيه »(٣٣) حزن الناس كثيرا لفقده ونقموا على السلطان قلاوون الذي سعى لقتله ومن الغريب أن تنقم أرملة الملك السعيد وهي بنت المنصور قلاوون على أبيها وتحزن على وفاة زوجها فلم تتزوج بعده ، وماتت باكية حزينة عليه بعد مضي شهور من موته • أما أهالي الكرك فقد عمل المنصور قلاوون على ترضيتهم عن طريق كسب قلوبهم ، بالجهاد المتواصل والفتح(٣٤) •

وما ان توفى الملك السعيد حتى اتفق علاء الدين أيدغدي الحراني نائبه في الكرك مع عدد من الامراء على تنصيب نجم الدين خضر اخي الملك السعيد مكانه ولقبوه بالملك المسعود • وبسيطرة الملك المسعود على زمام الامور في الكرك تدخل ثورة آل الظاهر بيبرس دورا حاسما فقد بدأ المسعود العمل على جبهتين ، الاولى التوسع في منطقة شرقي

---

(٣٢) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٦ « مخطوط » ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ ق ٣ لوحة ٦٣ « مخطوط » ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢٢٧ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٢ ص ٢٧٤ ـ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ١٦٠ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٩٦٦ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ لوحة ٦٤٩ « مخطوط » ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣١٢ «مخطوط» •

لعبة الكرة أو الاكرة أو الجوكان وتسمى الان البولو Polo لعبة قديمة شغف بها الكثير من سلاطين المماليك وامرائهم في العصور الوسطى فانشأوا لها ميادين اللعب • ووضعوا لها نظاما خاصا واوقات وحفلات تلعب فيها • وجهزوا لها الخيول الاصلية والادوات اللازمة للعب • وكان اللاعب يحمل عادة الجوكان وهي عصا مدهونة طولها نحوا من اربعة اذرع وبرأسها خشبة مخروطة محدود به تنيف عن ذراع ، تضرب بها الكرة • كان لهذه اللعبة موظفون من المماليك يشرفون عليها ويسمى منهم جوكندار •

(انظر : ابن اياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ، ص ٢٩ حاشية رقم ١) •

(٣٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٢٧٢ •

(٣٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٢٧٢ •

الاردن نفسها ، والثاني الاعتضاد بالامير سنقر الاشقر الثائر في دمشق، وتكوين جبهة شامية قوية في وجه الملك المنصور قلاوون • أما على الصعيد الاردني ، فقد حشد جموعا هائلة من العسكر وانفق فيه الاموال الكثيرة وسير هذه الحشود الى الشمال ، فتمكنت قواته من الاستيلاء على مدينة الصلت وقلعتها(٣٥) وبذلك شملت املاكه كل منطقة البلقاء • ولم يقنع بذلك بل أمر قواته بمواصلة الزحف الى صرخد ، فحاصرت القلعة ، الا انها لم تتمكن منها(٣٦) ، واخفقت في مسعاها وعادت الى الكرك • وبذلك أصبحت منطقة شرقي الاردن موزعة بين ثلاث قوى : الجزء الشمالي منها تحت سلطة سنقر الاشقر الثائر بدمشق ، والقسم الاوسط البلقاء ومؤاب والشراه بيد الملك المسعود والشوبك بيد الملك المنصور قلاوون •

---

(٣٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ١٤٨ « مخطوط » ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٦ « مخطوط » ـ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ١٦٠ ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٣٩٥ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٦٩ ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣١٢ « مخطوط » •

(٣٦) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ١٤٨ « مخطوط » النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٦ « مخطوط » ـ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ١٦٠ ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٣٩٥ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٦٩ ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣١٢ « مخطوط » ـ صرخد : مدينة قديمة ، قلعتها محدثة بنيت قبلل نور الدين زنكي ، وابها كروم وليس بها ماء سوى ما تجمع من الامطار في الصهاريج والبرك • وهي مدينة حوران العليا (العمري : مسالك الابصار ، ج ٢ ق ٣ لوحة ٤٤٢ « مخطوط ») •

(٣)

ثورة سنقر الاشقر في دمشق واتصال أبناء الظاهر به

رفضت دمشق على لسان نائبها الامير سنقر الاشقر الزعامة الجديدة الممثلة في شخص السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون . ولم يلبث سنقر ان دعا الناس الى طاعته ، فجمع الامراء وحلفهم له ، واعلن خروجه على قلاوون وتلقب بالملك الكامل ثم ركب بشعار السلطنة يوم الجمعة ٢٤ ذو الحجة ٦٧٨هـ[٣٧] (مارس (آذار) ١٢٨٠م) . ثم انه بادر بارسال رسله الى مدن الشام وقلاعها ليحلف إهلها على طاعته ، وأقام في القلاع ولاة اختارهم من ثقات رجاله . ولم تلبث ان امتدت حركته في نواحي عديدة من بلاد الشام وانضم اليه كل من الامير شرف الدين عيسى بن مهنا أمير العرب بالبلاد الشرقية والشمالية ، والامير شهاب الدين احمد ابن حجى امير العرب بالبلاد القبلية[٣٨] ، أما الملك المسعود صاحب الكرك فقد اتفق مع اعوانه على مكاتبة شمس الدين سنقر الاشقر « وارسلوه في الاتفاق»[٣٩] . وبذلك تكونت جبهة قوية ضمت كل بلاد الشام ضد السلطان الملك المنصور قلاوون ، وكان ذلك اكبر تحدي له .

---

(٣٧) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ص ١١ ، بأو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ١٣ ، ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢٢٧ ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ١٦٢ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٧٠ ، العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ ص ٦٥٠ « مخطوط » ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٢٩٤ .

(٣٨) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ص ٣٦ ، الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ص ١٨٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٢٩١ ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ١٦٧ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٧٥ .

البلاد القبلية : سميت بذلك لانها قبلي دمشق وتشتمل على بلاد حوران وشمالي الاردن والاغوار (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ص ١٠٣) .

(٣٩) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ١٤٩ « مخطوط » . وانظر أيضا : النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٦ ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ١٦٢ ، ابن خلدون والعبر ، ج ٥ ص ٣٩٥ ، العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ لوحة ٦٥٠ « مخطوط » ، ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣١٢ مخطوط .

عظم الامر على قلاوون وخاف ان يخرج الزمام من يده ، فبادر بالتحرك سريعا ورأى أن يبدأ بآل الظاهر بيبرس بالكرك ، فجرد جيشا بقيادة الامير عز الدين ايبك الافرم لينازل الكرك ، فخرج من مصر في اواخر ذي الحجة ٦٧٨هـ وسلك في طريقه اليها وادي الاردن الجنوبي عن طريق غور الكفرين وغور النمرين واريحا(٤٠) ، ثم اجتاز الى البلقاء واتجه جنوبا الى الكرك ، وحطت قواته على الكرك تحاصرها • وعندما علم سنقر الاشقر بحركة الافرم توهم انه قادم لمحاربته ، فارسل اليه كتابا ينهاه عن التقدم اليه ، ويتوعده ان هو فعل ذلك ، واتبع كتاب التهديد بقوة من عسكره بقيادة الامير يزك ، وامره بالبقاء في مدينة اربد الواقعة في القسم الشمالي من منطقة شرقي الاردن،حتى يتاح له ان يحفظ الطريق من كل طارق(٤١) اما عز الدين الافرم فقد بعث كتاب الاشقر الى المنصور قلاوون ليطلع عليه ، ولما لم يتمكن من الكرك خشي ان تجتمع قوات الكرك مع قوات دمشق ضده فيصبح بين شقي رحى ، فقرر العودة الى غزة وهناك وافاه الامير بدر الدين بيليك الايدمري عائدا بقواته من الشوبك بعد أن أدى مهمته بالسيطرة عليها ، واجتمعا بقواتهما عنــــد غزة انتظارا لأوامر السلطان •

وانتهز الاشقر هذه الفرصة وامر قواته بالزحف الى غزة حيـــث اشتبكت مع قوات الافرم في معركة انتهت بهزيمة الاشقر ، وتمكن الافرم من اسر عدة أمراء وغنم « مالا وخيولا واثقالا كثيرة »(٤٢) • اما فلول الاشقر فقد تراجعت الى الرملة • ولما علم الاشقر بذلك استنفر عسكره في الشام ، وارسل الى الامراء بغزة يعدهم ويستسلمهم اليه • وفي هذه

(٤٠) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ١٤٩ « مخطوط » ، العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ لوحة ٦٥٠ « مخطوط » ، ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣١٢ « مخطوط » •

(٤١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ١٥٠ « مخطوط » ، العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ لوحة ٦٥١ « مخطوط » •

(٤٢) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٧٥ • وانظر أيضا : النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٣ « مخطوط » ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ لوحة ٦٥١ « مخطوط » •
Jacob. Hisstory of Palestine, P. 290.

الاثناء توافت اليه قوات شهاب الدين احمد بن حجي ، والامير شرف الدين عيسى بن مهنا ، كما وصلت اليه النجدات من حلب وحماة وبعلبك ، فبذل فيهم الاموال العظيمة ، ثم زحفت حشوده بقيادة الامير شمس الدين قرا سنقر المغربي الى الرملة ، حيث تجمعت مع فلول عسكره المنهزم ٠ وكان قلاوون قد سير جيشا قوامه أربعة آلاف فارس الى غزة تعزيزا لقوات الافرم ، وقدم على جميع عسكر الجيش الامير علم الدين سنجر الحلبي ، ولما بلغت هذه الانباء سنقر الاشقر خاف ان تنهزم قواته مرة ثانية وآثر السلامة ، فأمر قواته بالانسحاب من الرملة في اتجاه دمشق[٤٣] ٠ ولكن الجيش المملوكي في مصر لم يترك قوات الاشقر ترحل بسلام فتبعها الى دمشق حيث دارت معركة بين الطرفين في ١٩ صفر سنة ٦٧٩هـ (٢٠ يونيو (حزيران) ١٢٨٠م) خارج دمشق ، وثبت سنقر الاشقر وأبلى بلاء عظيما ٠ الا ان طائفة كبيرة من جنوده خذلته وانضمت الى القوات المصرية ، كما انخذل عنه عساكر حلب وحماة ودمشق نفسها ٠ فحمل عليه الامير سنجر الحلبي فهزمه وتفرق عسكره[٤٤] ، ودخل سنجر الحلبي دمشق ومنح أهلها أمانا عاما وعفا عنهم ، أما سنقر فقد أقام عند الامير عيسى بن مهنا مدة ثم فارقه ، واتصل بالملك أبغا بن هولاكو وحثه على الحضور لاخذ البلاد الشامية[٤٥] ٠

وأخيرا توجه الى قلعة صهيون وتحصن فيها[٤٦] ، وبهزيمة سنقر الاشقر ودخول قوات قلاوون في دمشق خمدت حركته في دمشق وتفكك الحلف

---

(٤٣) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٧٥ ٠

(٤٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ١٥٢ « مخطوط » ، ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٣٩٦ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٧٦ ٠

(٤٥) بن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٨٨ ، أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ١٥ ، ابن خلدون: العبر ، ج ٥ ص ٣٩٦ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٧٧ ٠

(٤٦) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٨٨ ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٣٩٦ ، ٣٩٧ ـ مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٣١٥ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٧٨ ، صهيون : بفتح الصاد المهملة وسكون الهاء وضم الياء المثناه تحت وسكون الواو ثم نون في الاخر ٠ من القلاع المشهورة ذات حصانة ومنعة مبنية من حجر اصم ٠ تقع الى الجنوب الشرقي من اللاذقية في ذيل جبل يطل عليها ، وعلى مرحلة منها فقط (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ص ١٤٥) ٠

القائم بين الكرك ودمشق وضعفت شوكة الملك المسعود بالكرك ، فاقتطع السلطان قلاوون منه البلقاء ، وولى الامير جمال الدين أقش الشريفي أمير جاندار نيابة السلطنة بالصلت والبلقاء(٤٧) . وهكذا اصبحت معظم منطقة شرقي الاردن تحت نفوذ السلطان الملك المنصور قلاوون باستثناء الكرك وأعمالها فقد ظلت تحت سيطرة الملك المسعود بن الظاهر بيبرس .

---

(٤٧) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٦٥ .

(٤)

موقف المنصور قلاوون من مؤامرة الامراء الظاهرية والخارجين عليه في بلاد الشام

كان الملك المنصور قلاوون قد ضيق الخناق على أمراء الظاهر بيبرس وشتتهم في البلاد ، فمنهم من انضم الى الملك المسعود بالكرك ، ومنهم من لاذ بكنف سنقر الاشقر في دمشق ، وبقي آخرون يتظاهرون بطاعته والولاء له ، ولكنهم كانوا في الحقيقة يسعون الى الاطاحة به وقتله • ففي سنة ٦٨٠هـ (١٢٨٠م) ، بلغ السلطان المنصور قلاوون أثناء توجهه الى دمشق ، ان جماعة من الامراء الظاهرية قد تآمروا على الغدر به والوثوب عليه ، فاستقدمهم اليه ، واخذ يعنفهم بشدة ، ولم يغتفر الظاهرية للسلطان ذلك ، ولم تلبث الامور أن تطورت بعد ذلك تطورا ينذر بالخطر ، فقد اتفق هؤلاء الامراء مع قوى ثلاثة للقضاء على المنصور قلاوون تتمثل في الفرنج بعكا ، والملك المسعود بالكرك ، وسنقر الاشقر في صهيون • ولكن قدر لهذه المؤامرة الثلاثية ان تنكشف ، فقد ارسل بعض المناصحين من عكان الى السلطان رسالة يحذرونه فيها من وجود مؤامرة تدبر ضده وأنهم « قد كاتبوا الفرنج وقالوا له لا تصالحوه ولو أعطاكم ما أعطاكم »(٤٨) • والظاهر ان خبر هذا التحذير وصل الى مسامع المتآمرين، فاتفقوا على التحرك سريعا ، قبل ان يتدارك السلطان الموقف ، وقرروا المبادرة بالهجوم على وطاق السلطان ليلا وقطع اطناب الخيم ، ثم ينفذوا بعد ذلك ما كانوا قد اتفقوا عليه ، فان نجحت خطتهم حققوا ما ارادوا ، وان لم تنجح لاذوا بسنقر الاشقر في صهيون ، والملك المسعود في الكرك(٤٩) • ولكن السلطان كان قد احتاط لنفسه فأنفذ بعض مماليكه ليحفظوا عليهم المسالك من غير ان يلفتوا نظرهم الى ذلك • ثم طلب من

---

(٤٨) ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣٢٢ « مخطوط » ، وانظر : المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٨٥ •

(٤٩) ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣٢٢ « مخطوط » •

الأمراء الكبار بالحذر والوقوف على أهبة الاستعداد حتى يدخلوا دمشق ٠ ولاحظ قلاوون انه عند نزوله باللجون(٥٠) ، بدأ المتآمرون يتأهبون للفرار وكأنما أدركوا أنه يتحرر منهم ٠ وكان يدرك تماما انه لن يتمكن منهم لو انهم قطعوا الشريعة (نهر الاردن) ففي هذه الحالة يصبح بمقدورهم الالتجاء الى الكرك أو صهيون ، ولذلك عمل على اللحاق بهم والاقتراب منهم ٠ وصار يطارحهم الحديث ويلاطفهم كي يطمئنوا ، وما زال يحسن معاملتهم على هذا النحو حتى اقتربوا من بيسان(٥١) ، فلم يشعروا الا وهم أمام وطا ق السلطان هناك ٠ فرسم بان ينزلوا ليستريحوا ويشربوا سويقا مثلوجا ، وكان الجو حارا ، فنزلوا ٠ وبعد أن استراحوا طلب بعضهم واظهر لهم ما علمه من مكاتبتهم للفرنج وتآمرهم على قتله فاعترفوا بذلك وأقروا به ثم طلبوا منه الصفح وقالوا يخاطبونه : « أخطأنا وقد فعلنا كلما بلغ السلطان عنا »(٥٢) ٠ عندئذ أشهد السلطان عليهم بعض الأمراء، وامر بتقييدهم في وسط الخيمة وكانوا ثلاثة وثلاثين اميرا ، فخاف الباقون وهربوا من بيسان فأرسل قواته خلفهم فاحضروا بعضهم من جبال بعلبك ، وبعضا منهم من ناحية صرخد في حين تمكن الباقون من النجاة وتوجهوا الى صهيون ، ولحقوا بالامير سنقر الاشقر ثم عبر السلطان بقواته الشريعة وأمر ببعض الامراء المعتقلين فأعدمهم ، وحمل الباقين معه الى دمشق حيث سجنهم بقلعتها على أثر وصوله بدمشق في ٢٠ محرم سنة ٦٨٠هـ (١٢ مايو (أيار) ١٢٨١م) ٠ وبذلك تمكن الملك المنصور قلاوون بحنكتـــه وكياسته وشجاعته من القضاء على اخطر مؤامرة قام بها الامراء الظاهرية ضده ٠

عندما فشلت حركة سنقر الاشقر وحركة الامراء الظاهرية ، لم يبق في الساحة سوى الملك المسعود صاحب الكرك الذي أحس بضعف موقفه ،

---

(٥٠) ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣٢٣ « مخطوط » ٠

اللجون : موضعان الاول بلدة بارض الاردن قديمة بالقرب من جينين ٠ والثاني منزل في طريق المدينة بقرب البلقاء (القرماني : اخبار الدول وآثار الاول ، ص ٤٧٥) والمقصود هنا الموضع الاول ٠

(٥١) بيسان : مدينة الغور لها قليعة من بناء الفرنج (العمري : مسالك الابصار ، ج ٢ مجلد ٣ لوحة ٤٢٢ « مخطوط ») ٠

(٥٢) ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣٢٣ « مخطوط » ٠

وآثر ان يجنح الى الموادعة والمهادنة ، وكان السلطان المنصور قلاوون بحاجة الى توحيد الجبهة الداخلية للوقوف في وجه الخطر الخارجي الداهم ، المتمثل في الفرنج على ساحل الشام ، والتتار على الحدود الشرقية والشمالية للبلاد ٠ ففضل ان ينهي النزاع بين خصومه سياسيا ليؤمن ظهره ويحتفظ بقوته كما هي ٠ وكان يعلم وهو السياسي المحنك أن الصراعات الداخلية من شأنها أن تستنزف القوى وتمزق الصف وتفتت الوحدة القومية وتحرك مطامع العدو وشهوته ولذلك رأى أن ينقي الاجواء الداخلية من الغيوم ويسعى الى استرضاء الملك المسعود ، ولم تلبث الرسل أن ترددت بينهما للصلح ، وحاول المسعود أثناء المفاوضات أن يطلب « زيادة على الكرك وأن يكون له ما كان بيد صاحبها الملك الناصر داود »(٥٣) ٠ احياء لامجاد امارة الكرك الايوبية في عهد الناصر داود وكانت تشمل منطقة شرقي الاردن كاملة ٠ الا ان قلاوون كان يماطل في رده ويسوف في مكاتباته اليه كسبا للوقت ، حتى تمكن من اقرار الصلح مع سنقر الاشقر في ربيع الاول سنة ٦٨٠هـ(٥٤) (يوليو (تموز) ١٢٨١م) ٠ عندئذ خفف المسعود من غلوائه وأدرك هو وأعوانه « أنهم لا طاقة لهم بالمقاومة »(٥٥) ٠ وتم الصلح بين الطرفين على ان يكون للمسعود من الموجب شمالا الى الحسا جنوبا(٥٦) ٠ واشترط عليه ايضا ان يجهز اليه

---

(٥٣) ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣٢٥ « مخطوط » ٠ وانظر أيضا : بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ١٧٠ « مخطوط » النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٧ « مخطوط » ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ٢١٠ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٣٩٨ ـ٣٩٩ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ لوحة ٦٦٩ « مخطوط » ٠

(٥٤) ابن كثير : البداية والنهاية : ج ١٣ ص ٢٩٤ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ٢٠٩ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٨٨ ٠

(٥٥) ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣٢٥ « مخطوط » ـ وانظر : بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ١٧٠ « مخطوط » ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ لوحة ٦٦٩ « مخطوط » ٠

(٥٦) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ١٧٠ « مخطوط » ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٧ « مخطوط » ـ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ٢١٠ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٨٨ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ لوحة ٦٦٩ « مخطوط » ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣٢٥ « مخطوط » ٠

اخوته الذكور والاناث من القاهرة الى الكرك ، وان يرد لأبنــاء الظاهر بيبرس أملاكهم ، فأقسم على ذلك • وتوجه بدر الدين بيليك المحسني السلاحدار والقاضي تاج الدين ابن الاثير الى الكرك ، وحلفا الملك المسعود «وكوتب كما يكاتب صاحب حماة »[57] • وانتظم الصلح في ربيع الاول ٦٨٠هـ ، فاجتمعت بذلك الكلمة ، وتوحدت الجبهة الداخلية وانتظمت مصر والشام تحت نفوذ السلطان الملك المنصور قلاوون ، بعد رحلة كفاح مريرة ، وعلى أثر ذلك أخذ يعد العدة للتفرغ للاخطار الخارجية المحدقة بالبلاد •

---

(٥٧) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ١٧٠ « مخطوط » ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ « مخطوط » ـ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ٢١٠ ـ ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ ص ١٧٢ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ لوحة ٦٦٩ « مخطوط » •

(٥)

موقف القاهرة من ثورة أبناء بيبرس بالكرك ثم ترحيلهم عنها

كانت الاخطار الخارجية تحيط بدولة المماليك من كل مكان ، فعلى سواحل الشام كانت الفرنج ما تزال تسيطر على مناطق منها ، ولكنها لم تعد من القوة بحيث تشكل وحدها خطرا يتهدد دولة المماليك في مصر والشام ، الا اذا تحالفت مع بعض العناصر المناوئة للسلطة المركزية في الداخل ، او مع قوة التتار المتربصة لدولة المماليك في الخارج • وقد اضطر السلطان الملك المنصور قلاوون الى ان يعقد مع فرنج عكا هدنة تجنبا لتحالفهم مع الثائرين في الشام ضده ، سيما وانه كان قد اكتشف اتصال الظاهرية بهم ، ورغبته في تجنب شرهم ، وحتى يتفرغ لتوحيد جبهته الداخلية وتم عقد الهدنة بينه وبين مقدم الفرسان الاسبتارية في عكا في ١٢ محرم ٦٨٠هـ(٥٨) (٣ مايو (أيار) ١٢٨١م) ، ولم يبق امامه بعد نجاحه مع احباط محاولات كل من سنقر الاشقر والملك المسعود صاحب الكرك ، وموادعته لفرنج عكا سوى خطر التتار الذين اجتاحوا الحدود الشمالية لبلاد الشام •

هدأت نفس السلطان الملك المنصور قلاوون بعد **توفيقه في اعادة الصف العربي** ، واطمأن الى الفرنج على الساحل ، وعندئذ أخذ يتأهب للقاء التتار ولما تم له اعداد العدة بدأ باعلان الجهاد الاعظم • ثم قدم الى دمشق واستنفر الجيوش من جميع أنحاء البلاد ، فتوارت اليه العساكر من مصر والشام • كما قدم اليه احمد بن حجي أمير العربان بالبلاد

---

(٥٨) ابن عبد الظاهر : تشريف الايام والعصور ، ص ٢٠ ، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ص ٨٦ ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ٢٠٤ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٨٥ ، ابن بهادر : فتوح النصر لوحة ٣٢١ « مخطوط » ، محمد جمال سرور : دولة بني قلاوون في مصر ، ص ٢٣٢ ، عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة صيدا : في العصر الاسلامي ، ص ١٥٤ ، سعيد عاشور : العصر المماليكي ، ص ٦٨ •
Lane Poole, A History of Egypt, P. 279.

القبلية بقوة قوامها اربعة الاف فارس(٥٩) ولم يتأخر الملك المسعود صاحب الكرك عن نداء الواجب ، فما ان تلقى كتب السلطان بنجدته حتى اعد قواته وزودها بالسلاح والعتاد وخرج بها الى دمشق ، فدخلت قوات الكرك دمشق في ١٢ جمادى الاخرة ٦٨٠هـ(٦٠) (٢٨ سبتمبر (أيلول) ١٢٨١م) « في تجمل عظيم »(٦١) ،واحتفل المنصور قلاوون بلقائه واحتفى بقدومه ، كذلك قدم سنقر الاشقر بقواته من صهيون ملبيا داعيا الجهاد ، وعندما اتمت قوات السلطان استعدادها خرجت من دمشق في أوائل رجب الى الشمال لملاقاة حشود التتار الكثيفة ، وقد بلغت في تقدير المؤرخين العرب ثمانين الف فارس(٦٢) ، تؤازرهم قوات من الروم والارمن والفرنج(٦٣) • واشتبك الجانبان في معركة ضارية دارت بظاهر حمص في يوم الخميس ١٤ رجب ٦٨٠هـ (٢٩ اكتوبر (تشرين اول) ١٢٨١م) ، وانتهت بانتصار حاسم أحرزته قوات المماليك التي تمكنت من تحطيم قوى التتار وأوقعت بهم هزيمة نكراء(٦٤) •

وشهد هذه المعركة المؤرخ اليونيني صاحب كتاب (ذيل مرآة الزمان) (٦٥) • وبعد ان تم للمنصور قلاوون الانتصار على اعدائه التتار ،

---

(٥٩) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٩٠ • وانظر أيضا : اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ص ٩١ ــ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ٢١٣ ــ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣٢٨ « مخطوط » •

(٦٠) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٢٩٤ • المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٩١ •

(٦١) اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ص ٩١ •

(٦٢) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ٢١٣ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٩٠ •

(٦٣) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٨٨ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٩٢ ، ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣٢٧ « مخطوط » •

(٦٤) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ــ اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ص ٩٣ ، ٩٤ ــ الهمذاني : جامع التواريخ ، ج ٢ ص ٨٣ ــ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٢٩٥ ــ مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٣٢٩ ــ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ٢١٧ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٦٩٣ ــ الديار بكري : الخميس في انفس نفيس ، ج ٢ ص ٣٨٠ •

(٦٥) فهو يقول : ولقد مررت به (السلطان) ، ذلك الوقت وما حوله من المقاتلة ألف فارس الا دون ذلك ، فلما مروا به ثبت لهم ثباتا عظيما (انظر : ذيل مرآة الزمان ، ج ٤ ص ٩٤) •

انصرف عائدا الى دمشق يحمل رايات النصر في ٢٢ رجب من السنة نفسها ٠

ولم يحل منتصف عام ٦٨٠هـ حتى كان السلطان الملك المنصور قد تمكن من السيطرة كلية على مقدرات الامور في دولته ، وانزاح من صدره كابوس ثقيل كان يجثم عليه ٠ لذا رأى ان يتفرغ لشؤون البلاد في الداخل والخارج ، فعهد الى نشر الامن والاطمئنان في ربوع بلاده ، وشجع التجارة الداخلية والخارجية على السواء ٠ وفي سبيل الحفاظ على تواصل الشريان التجاري عبر عكا ، وافق على عقد الهدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات وعشرة شهور وعشرة ايام وعشر ساعات ، تبدأ في ٥ ربيع اول سنة ٦٨٢هـ (٣ يونيو (حزيران) ١٢٨٣م)(٦٦) ٠ وتنص المعاهدة على كفالة حرية التجارة والتنقل بين الطرفين في البر والبحر ٠ كذلك جدد قلاوون الاتفاقيات والمعاهدات السابقة التي كان قد ابرمها مع كل من الامبراطورية البيزنطية وقشتالة وارجون ، وبرشلونة ، وصقلية وجمهورية جنوا والبندقية(٦٧) ٠ لقد ادرك السلطان قلاوون بما كان يتمتع به من وضوح الرؤية السياسية انه لو اراد لدولته التقدم والرخاء فانه يتحتم عليه ان يضمن لها موردا ماليا عظيما ، ووجد ان تحقيق ذلك لا يتم الا عن طريق التجارة ، وهو في هذا يتمثل بصلاح الدين الذي كان يرى في ان نضاله العسكري مع الفرنج كان يستلزم مصدرا ماليا لا ينضب

(٦٦) طالع نص يمين المعاهدة لكل من قلاوون والفرنج في : القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ١٣ ص ٣١٢ ـ ٣١٤ ٠ وانظر أيضا : بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٢٢٨ « مخطوط » ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ٢٦٢ ٠ محمد جمال سرور : دولة بني قلاوون في مصر ، ص ٢٣٣ ، عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة صيدا ، ص ١٥٤ ٠
أما محي الدين بن عبد الظاهر فيذكر أن هناك معاهدة عقدت مع عكا اولها في ٥ محرم ٦٨١هـ (١٥ أبريل (نيسان) ١٢٨٢م) (انظر : تشريف الايام والعصور ، ص ٢٠ ، ٣٥ ، ابن بهادر : فتوح النصر لوحة ٣٣٤ « مخطوط ») ٠
Lane Poole, A Histery of Egypt, P. 279.

(٦٧) ابن عبد الظاهر : تشريف الايام والعصور ، ص ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٦ ، شارل ديل : البندقية ، ص ٢٠ ، ٥٨ ، فييت : المواصلات في مصر في العصور الوسطى ، ص ٧ ، ٨ ، سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك ، ص ٦٧ ٠

التمسه في تشجيع الحركة التجارية عبر البحر الاحمر والابقاء على العلاقات التجارية مع الفرنج فكان « اختلاف القوافل من مصر الى الشام على بلاد الفرنج غير منقطع »(٦٨) • وهكذا اقتدى قلاوون بصلاح الدين فشجع بدوره الحركة التجارية مع الفرنج عبر موانئهم : عكا وحيفا وبيروت ، ومع مراكز التجارة الاسلامية في : الاسكندرية والقاهرة ودمشق وحلب • كما اصدر منشورا يؤمن فيه تجارة المشرق ويحث الناس على زيادة بلاده حيث تتوفر لهم كل معاملة طيبة • وقلاوون على هذا النحو يسبق عصره بمئات السنين ويعتبر بذلك اول من اصدر منشورات دعائية لتشجيع السياحة(٦٩) • واذا كان سلوك السلطان قلاوون نحو الفرنج يجنح الى التسامح الديني ولا يتحرج مع العداء القائم بينه وبين الفرنج(٧٠) ، فان البابوية استمرت على حالها من الغلو الديني تصدر مراسيم الحرمان ضد كل من يتعامل تجاريا مع المسلمين ، ومع ذلك فقد أخفقت في مسعاها(٧١) ، وظلت حركة التجارة والاتصال قائمة بين الطرفين •

وكان السلطان الملك المنصور قلاوون رجل ادارة ممتاز ، وهو في هذا المجال يشبه الى حد كبير السلطان بيبرس ، بحيث يمكن ان نعتبرهما بحق المؤسسين الحقيقيين لدولة المماليك في مصر والشام • فقد وطد قلاوون

---

(٦٨) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٧٦ ـ وعن عكا يقول : فهي ملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الافاق (الرحلة ، ص ٢٩٣) •

(٦٩) انظر نص المنشور في : ابن عبد الظاهر : تشريف الايام والعصور ، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٦٦ ، القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٣ ص ٣٤٠ ٣٤٢ ، وانظر أيضا : احمد مختار العبادي : البحرية الاسلامية ، ص ٢٦٤ ، سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، ص ٢٠٩ •
Lane Poole, A History of Egypt, P. 281.
Newton, Trade and travellers in the middle ages, P. 125.

(٧٠) كان قلاوون يشبه في تسامحه الديني كل من الملك العادل وابنه الملك الكامل محمد الايوبي •

(٧١) شارل ديل : البندقية ، ص ٥٨ ، فييت : المواصلات في مصر في العصور الوسطى ، ص ٧ ، سعيد عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، ص ٧٠ ، والظاهر بيبرس ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ •

حكمه واحكم سيطرته على جميع ارجاء دولته ، فأطاعه كل عصي وذل له كل أبي ، ومع ذلك فقد بقيت في حلقه غصة تتمثل في آل الظاهر بيبرس أصحاب الكرك . وكان يؤمن في قرارة نفسه أنهم سوف ينتهزون أية فرصة مواتية للوثوب عليه ، وان الكرك ستبقى ملجأ كل رافض لحكمه وسلطته من الامراء والمماليك ، ولهذا نراه يتحين الفرصة للانقضاض على الكرك ، وهو أمل سيظل يسعى من أجل تحقيقه .

أما الملك المسعود صاحب الكرك ، فقد ظل بدوره يسعى حثيثا لاهتبال أي فرصة سانحة لتحقيق حلم أصبح بعيد المنال : فلم يكتف بامارته وما تدور عليه أملاك والده الظاهر بيبرس في بلاد الشام ، بل راح يعمل في السر لجمع الاعوان والانصار . وحدث في هذه الاثناء أن انشق عنه الامير علاء الدين أيدغدي الحراني[72] نائبه على الكرك وفر الى القاهرة فوصلها في ربيع الاول سنة ٦٨٢هـ (يونيو (حزيران) ١٢٨٣م) ، وأطلع السلطان قلاوون عن نية المسعود في الثورة عليه ، وعدم التزامه بشروط الصلح المعقودة بينهما ، وزين له فكرة الاجهاز عليه . والظاهر أن قلاوون اقتنع بذلك فقد أمر باعداد حملة بقيادة الامير بدر الدين بكتاش الفخري للاستيلاء على الكرك ، فوصلها في الثالث من ربيع الاول ، وحطت قواته حول الكرك ، وحاصرتها وشددت عليها . ووقعت مناوشات بين الطرفين ، فكانت قوات المسعود تنزل اليهم وتقتل منهم وتفتك ، ثم تكر راجعة محتمية خلف الاسوار المنيعة . ولما لم يجد الامير بدر الدين جدوى من مواصلة الحصار بسبب مناعة القلعة والمدينة معا اتلفت العساكر مـــا حولهم من زرع[73] . وفي هذه الاثناء توجه السلطان بنفسه الى دمشق فوصلها في شهر رجب ، ثم انه امر قواته بالانسحاب من الكرك[74] ، منتظرا لفرصة أخرى مواتية .

---

(٧٢) ابن عبد الظاهر : تشريف الايام والعصور ، ص ٣٣ ، بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٢٢٧ « مخطوط » ، النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٧ « مخطوط » ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ص ٢٧٣ .

(٧٣) ابن عبد الظاهر : تشريف الايام والعصور ، ص ٣٣ ، بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٢٢٧ « مخطوط » ، النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٧ « مخطوط » ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٧٢١ .

(٧٤) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٧ « مخطوط » ، ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣٣٦ « مخطوط » .

وكان لانسحاب قوات الملك المنصور من الكرك أثره العميق في رفع روح قوات المسعود معنويا ، فقد اعتبر هذا الانسحاب نصراً للمسعود ، فكثر أتباعه وازدادوا جرأة الى حد أنهم « كاشفوا بالمباينة وعدلوا عن المداهنة ولم تفد فيهم الرسائل ولا الوسائل»(٧٥) ازاء ذلك استقر عزم قلاوون على استنزال الكرك مهما كلف ذلك من التضحيات • فمنذ أواخر سنة ٦٨٤هـ (١٢٨٦م) ، بدأ قلاوون يعد عدته ويجهز العساكر الكثيفة من مصر والشام لمحاصرة الكرك • ففي ٢ من المحرم سنة ٦٨٥هـ (٢٨ فبراير (شباط) ١٢٨٦م) ، سارت العساكر بقيادة الامير حسام الدين طرنطاي بن عبد الله المنصوري(٧٦) ، باتجاه الكرك ، فتلقاه عسكر دمشق في ألفي فارس صحبة الامير بدر الدين الصوابي(٧٧) ، ثم زحف حسام الدين على الكرك وشرع في حصارها ، وأحضر آلات الحصار من البلاد الشامية والحصون الاسلامية(٧٨) ، فنصب عليها المجانيق وقطع عنها الميرة ، مضيقا بذلك عليها الخناق •

وكان السلطان الملك المنصور قلاوون واكابر قواده على دراية تامة بالميزات الاستراتيجية العسكرية التي تتمتع بها قلعة الكرك ، كما كانوا على يقين بان اقتحامها بالقوة أمر مشكوك فيه ، اذا ما اخلص إصحابها في الدفاع عنها • لذلك آثر قلاوون ان يعمل بدبلوماسية هادئة « وخلط

---

(٧٥) ابن عبد الظاهر : تشريف الايام والعصور ، ص ١٢٣ •

(٧٦) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٢٥٧ « مخطوط » ، ابو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٣٩٩ ، النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٧ « مخطوط » ابن حبيب : درة الاسلاك في دولة الاتراك ، ج ١ لوحة ٤٢ « مخطوط » ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٣٥ •

(٧٧) ابن كثير البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٣٠٧ ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٣٥ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٧٣٠ والخطط ، ج ٤ ص ٢٢٨ •

(٧٨) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٢٥٨ « مخطوط » ، النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٧ « مخطوط » ، ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ج ١٢ لوحة ٢٦١ « مخطوط » ، العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ لوحة ٧٠٤ « مخطوط » •

الترهيب بنوع من الترغيب »[٧٩] ، فأرسل حسام الدين سرا الى بعض زعماء الكرك وبذل لهم العطاء ، وخاطبهم بالاحسان ومناهم ووعدهم ونجح في استمالتهم اليه في أيام قلائل « فتسلل أكثر الرجال اليه »[٨٠] وعندئذ لم ير أبناء الظاهر بدا من الاذعان والطاعة ، فأرسل الملك المسعود وأخوه سلامش شروطهما لحسام الدين طرنطاي ، وطلبا الامان ممهورا بخاتم السلطان نفسه . ولم يتردد السلطان المنصور قلاوون في الموافقة على طلبهما . وارسل كتاب الامان صحبة الامير بيبرس الدوادار المؤرخ ويعبر بيبرس الدوادار نفسه على ذلك بقوله : « فندبني السلطان اليهم ومعي أمانة الشريف فسرت على البريد الى الكرك فاجتمعت بالامير حسام الدين فاعلمهما بحضوري،فدخلت اليهما بالامان وابلغتهما رسالة السلطان»[٨١]. فنزل الملك المسعود واخوه بدر الدين سلامش الى الامير طرنطاي ، وسلماه القلعة والمدينة في ٥ صفر ٦٨٥هـ (٢ ابريل (نيسان) ١٢٨٦م) وعلى أثر ذلك صعد طرنطاي الى المدينة والقلعة ورتب أمورها واجلى « منها خلقا من الكركيين واستخدموا بقلعة دمشق »[٨٢] . كما خلع على رجال القلعة ومقدمي المدينة وامراء العربان . ثم استدعى الامير عز الدين أيبك الموصلي نائب الشوبك وأقره على نيابة الكرك[٨٣] . ورتب السلطان في ولاية القلعة الامير بدر الدين بكتوت العلائي ، وفي ولاية الامير عز الدين أيبك النجمي[٨٤] . وبعد ان استقرت الاحوال بالكرك ، خرج الامير حسام الدين طرنطاي بقواته قاصدا الديار المصرية مصطحبا معه أولاد الظاهر

---

(٧٩) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٢٨٥ « مخطوط » .

(٨٠) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٢٥٨ « مخطوط » .

(٨١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٢٥٩ « مخطوط » ــ وانظر أيضا : النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ وحة ٧ « مخطوط » العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ لوحة ٧٠٥ « مخطوط » .

(٨٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٣٠٧ .

(٨٣) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٧ « مخطوط » ــ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٠٠ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٧٣٠ والخطط ، ج ٤ ص ٢٢٨ ــ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ لوحة ٧٠٥ « مخطوط » . ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣٤٥ « مخطوط » .

(٨٤) العيني : عقد الجمان : ج ٢٠ ق ٤ لوحة ٧٠٥ « مخطوط » .

بيبرس جميعا ، تماما كما فعل والدهم مع ابناء الملك المغيث عمر الايوبي أمير الكرك • وعندما اقترب الموكب من القاهرة خرج السلطان الى لقائه ، وكان وصوله في ١٢ ربيع الاول ٦٨٥هـ ، فدقت البشائر بقلعة الجبل والقاهرة • ولقد بالغ السلطان في اكرام الملك المسعود واخيه سلامش وامر كلا منهما امرة مائة فارس[٨٥] ، وصارا يركبان معه في المواكب والميادين، كما يركبان مع ابنه الملك الصالح علي • وهكذا هدأت نفس السلطان الملك المنصور ، واطمأن باله وقضى على آخر جيب للمقاومة والثورة في بلاده •

(٨٥) المنويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٧ « مخطوط » ــ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٣٧ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٧٣١ ــ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ لوحة ٧٠٦ « مخطوط » ــ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣٤٥ « مخطوط » •

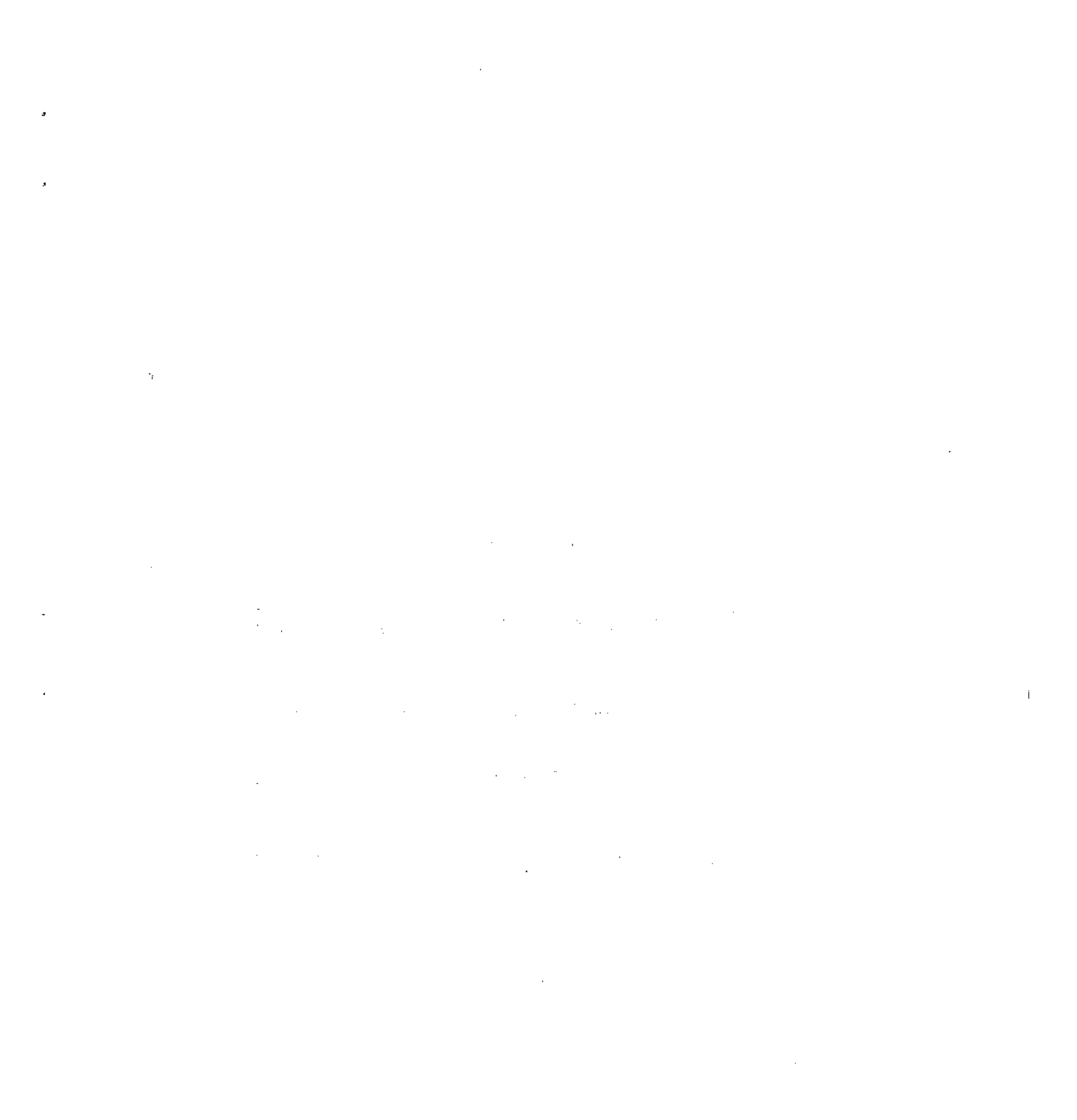
الفصل الثالث

شرقي الاردن في عهد السلطان قلاوون وابنه الاشرف خليل

١ ـ مظاهر اهتمام قلاوون بالمنطقة ٠

٢ ـ اشتراك قوات الكرك في فتح عكا ٠

٣ ـ موقف الاشرف خليل من الشوبك ونتائجه ٠



(١)

مظاهر اهتمام قلاوون بالمنطقة

كان السلطان الملك المنصور قلاوون على دراية كاملة بما تمثلـــه تحصينات منطقة شرقي الاردن في عجلون والصلت والكرك والشوبك ، من أهمية استراتيجية وعسكرية وما يمكن ان تؤدية دروبها من خدمات جليلة لتجارة الترانسيت الشرقية التي عمل قلاوون جاهدا على تنشيطها وازدهارها ، ولعبور قوافـــل الحجيج مـــن مصر والشام الى الاراضي المقدسة · ولم يغب عن بال قلاوون كل ذلك في تلك المرحلة الحاسمة من النضال مع الفرنج والتتار ، ولهذا اولاها اهتمامه البالغ ، فأقام للحجاج مراكز لنجدة المنقطعين منهم وزودها بالمؤن والماء والجمال[١] · ولا نشك أبدا في ان الخانات التي بنيت في منطقة شرقي الاردن كخان الحسا وخان القطرانة وخان قياد (ضبعة)[٢] ، قد انشئت في هذه الفترة ، لخدمـــة التجارة النشطة عبر الاردن ، وخدمة قوافل الحجيج الشامي ·

وترجع بداية اهتمام قلاوون بهذه المنطقة الى اليوم الذي تسلم الكرك من ابناء الملك الظاهر بيبرس ، فقد اهتـــم بارسال ، البريد والمكاتبات بمهمات الكرك وحمل الذخائر اليها مـــن كل شيء وكل صنف مـــن الاصناف[٣] » · ولم يكتف بذلك بل سارع الى الاستعداد والخروج اليها بنفسه ، ففي اليوم السادس مـــن رجب ٦٨٥هـ (٢٨ أغسطس (آب) ١٢٨٦ م) ، خرج من قلعة الجبل مبرزا ومعه العساكر المصرية باتجاه الشام عندما بلغته الانباء بتجدد تحركات العدو ، وكان لنزول قلاوون في غزة أعظم الاثر في حمل العدو على التوقف ، ولهذا تحول الى الكرك في الرابع عشر من شعبان وبرفقته عدد من جنده وبعض كبار الأمراء · وكان أهل الكرك يخشون أن يصب عليهم جام نقمته بسبب تأييدهم لأبناء الظاهر بيبرس · ولكن ظنونهم تبددت بسبب ما اسبغه عليهم من عطف

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة ، ج ١ ص ٢٣ ·

(٢) انظر التفاصيل عن الخانات الاردنية في الفصل الاخير ·

(٣) ابن عبد الظاهر : تشريف الايام والعصور ، ص ١٢٥ ·

ورعاية . فأكرم أهلها « وشملت مباره وانعامه وخلعه وتشاريفه وافتقاده أهل الكرك من كل ذي خدمة ، وكل ذي حرمة وكل ذي نعمة »(٤) . ثم رتب أحوال العربان وطلب أمراءهم وجدد مناشير اقطاعاتهم(٥) ، وأجرى عليهم الارزاق التي كانوا اعتادوا عليها ، ثم أمر بحمل الغلال الى الكرك ، ورسم بشحن ألفي غرارة قمح فيها للمهمات(٦) ، ونقل اليهـا الاموال وجعلها خزانة وحصنا له ولابنائه من بعده ، وملأ خزانتها بالأسلحة والزرد والزردخاناة ، ثم استقدم اليها جمعا كبيرا مـن المماليك السلطانيـة المنصورية « للاقامة بها لحفظ حوزتها وتكثير ميرتها »(٧) لان الامير حسام الدين طرنطاي كان قد نقل المماليك البحرية الذين شحنهم بها الظاهر بيبرس الى دمشق واستخدمهم في قلعتها هناك . ثم طاف قلاوون بعد ذلك بالقلعة ظاهرا وباطنا ، وامر باصلاح ما تهدم منها ، فجدد عمارتهـا وضاعف في تحصينات القلعة والمدينة(٨) . وكانت بركة القلعة القديمة من باب النصر(٩) قد طمت بالاتربة والطين ، فأمر بحفرها وأشرف بنفسه عليها ، وعمل فيها جميع من كان في خدمة السلطان من المماليك والحاشية مدة سبعة ايام(١٠) » . ثم أمر بتنصيب الامير بيبرس الدوادار في نيابة الكرك بعد ان نقـل نائبها عـز الدين آيبك الموصلي الى نيابة قلعـة صفد(١١) . وانعم السلطان على نائبها الجديد بأمرة مائة فارس واقطاع

---

(٤) ابن عبد الظاهر : تشريف الايام والعصور ، ص ١٣٨ .

(٥) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ لوحة ٧٠٦ « مخطوط » .

(٦) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٧٣٢ .

(٧) ابن عبد الظاهر : تشريف الايام والعصور ، ص ١٢٥ ، وانظر : المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٧٣٢ .

(٨) ابن حبيب : درة الاسلاك في دولة الاتراك ، ج ١ لوحة ٤٣ ، ٥٠ « مخطوط » .

(٩) ابن عبد الظاهر : تشريف الايام والعصور ، ص ١٣٨ ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٣٧ « مخطوط » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٧٣٢ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ لوحة ٧٠٦ « مخطوط » ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣٤٦ « مخطوط » .

(١٠) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٣٨ .

(١١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٢٥٩ « مخطوط » ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٣٧ « مخطوط » ـ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٣٨ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٧٣٢ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ لوحة ٧٠٦ « مخطوط » ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣٤٦ « مخطوط » .

الامير علم الدين سنجر الدوادار الصالحي ، وارسل اليه المنشور بذلك على البريد[١٢] ، وجعل في خدمته ثمانين طواشيا ، وهي ميزة خاصة لنائب الكرك • وقد استعادت الكرك بهذه الاجراءات عزها القديم ، وفي ذلك يقول ابن عبد الظاهر :

فلم تك تصلح الا لـه ... لزلزلت الأرض زلزالها
ولو رامها ملك غيره ... ولم يك يصلح الا لها

ثم قفل السلطان عائدا الى غزة في التاسع والعشرين من شعبان • وكان عسكره قد أصيب بوباء ، فأمر بنقل العساكر الى غابة أرسوف ، وظل مقيما هناك حتى وقع الشتاء وأمن حركة الفرنج في عكا[١٣] • ثم عاد الى مصر فوصلها في الرابع عشر من شوال •

أما نائب الكرك الجديد فقد استقر فيها في شهر شعبان ٦٨٥هـ (اكتوبر (تشرين اول) ١٢٨٦م) فألفى « أحوالها قاصرة وأعمالها دائرة ، وأراضيها بايرة واهرآها شاغرة »[١٤] بسبب ما توالى عليها من مضايقات الحصار • فعمل على اصلاح أمورها واعادة ما تخرب من بنيان مدنها وقراها ، وامر بزرع اراضيها بالزروع والاشجار بعدما فتكت بها الجيوش المحاصرة ، وسرعان ما أثمرت هذه الزروع بسبب الأمطار الغزيرة وخصوبة الارض ، فعم الخير ، ونمت الغروس والبقول « وكان عاما بالخير عاما وبالخصب تاما »[١٥] ، ثم اعتل الملك المنصور قلاوون بينما كان يستعد لغزو عكا واشتد عليه الداء في العشر الاخير من شوال الى ان فاضت روحه

---

(١٢) انظر نص المنشور في الملاحق •

(١٣) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٢٣ — النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٣٧ « مخطوط » • ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٣٩ — المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٧٣٢ — العيني : عقد الجمان ، ج ٢٠ ق ٤ لوحة ٧٠٦ « مخطوط » — ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣٤٦ « مخطوط » •

(١٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٢٦١ « مخطوط » •

(١٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٢٦١ « مخطوط » •

في السادس من ذي القعدة ٦٨٩هـ[١٦] (١٠ نوفمبر (تشرين ثاني) ١٢٩٠م) بعد رحلة عمره التي قضاها في أعمال البناء الداخلي ، وتوطيد أركان دولة المماليك في مصر والشام وتحريره لعدد كبير من حصون الفرنج على سواحل الشام ، وتنظيمه لأمور البلاد وكان قلاوون في الحقيقة من عظام سلاطين المماليك ، فقد استقر الملك في عائلته مدة مائة سنة تقريبا ، وترك لنا بنوه وأحفاده من الآثار الخالدة في عاصمة ملكهم القاهرة ما يدل على عظمة هذه الاسرة .

---

(١٦) ابن عبد الظاهر : تشريف الايام والعصور ، ص ١٧٨ ــ بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٢٧٣ « مخطوط » ــ ابو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٢٥ ــ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٤٨ « مخطوط » ــ ابن الوردى : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢٣٥ ــ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٣١٦ ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٩٧ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٧٥٥ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣٥٣ « مخطوط » .

Lane Poole : AHistory of Egypt, P. 282.
Muir : The Mameluke, P. 44.

(٢)

اشتراك قوات الكرك في فتح عكا

بعد انتصار صلاح الدين يوسف على الفرنج في موقعة حطين ٥٨٣هـ (١١٨٧م) افتتح المسلمون عكا ، الا ان الفرنج لم يلبثوا ان استردوها بعد اربع سنوات ، واتخذوا منها حاضرة لمملكة بيت المقدس اللاتينية ، جعلها الصليبيون مركزهم الاول ، ونقطة انطلاقهم الهامة وميناءهـم الرئيسي ، فازدادت أهميتها ، ونشطت الحركة التجارية فيها نشاطا كبيرا ، فلم تنقطع الصلاة التجارية بينها وبين المسلمين • وكانت قوافل التجارة القادمة من الهند والصين عبر البحر الاحمر والجزيرة العربية ، تأتي اليها لتنقلها مراكب البنادقة والبيزيين والجنوبيين وغيرهم الى الغرب الاوروبي • كما كانت محاصيل الشام وفواكهها ومنتجاتها الصناعية ، لا سيما النسيج والتحف المعدنية والزجاجية تحمل منها الى سائر بلاد الغرب • وكانت مدينة عكا مركز العلاقات التجارية بين الفرنج والمسلمين، واعتقد ان المماليك كان بمقدورهم افتتاحها لو أنهم أرادوا ذلك ، فقد سبق لهم أن ا فتتحوا معاقل وحصونا ومدنا صليبية أمنع منها وأقوى ، وكانوا دوما يسارعون الى عقد الهدنة معها عندما تطلب منهم ذلك ويظهر أن المماليك اعتبروا عكا على الساحل الفلسطيني نافذة تجارية وحضارية على الغرب الاوروبي ، وكانت حركة التجارة في عكا على درجة عالية من النشاط ، وجنى أهل الشام بسبب ذلك أرباحا طائلة • وكانت بالاضافة الى ذلك المركز الرئيسي لحجاج المسيحية القادمين الى بيت المقدس ، يرسون فيها ومنها يبحرون ــ ولما شعر السلطان المنصور قلاوون بعقليته المتفتحة التي سبقت عصره أن الغرب الاوروبي في حاجة ماسة الى التجارة الشرقية التي تمر عبر بلاد مصر والشام ، وان الوقت قد حان فعلا لأن تتحكم دولته في هذه التجارة ، رأى ضرورة تطهير سواحل الشام مـن بقايا القوة الصليبية ، وتصفية الوجود الصليبي تماما من الارض العربية، تمهيدا لتحقيق هدفه في السيطرة على التجارة الشرقية ، وان كنا نضع في الاعتبار ايضا العامل السياسي والديني •

فقد حدث في شعبان ٦٨٩هـ (أغسطس (آب) ١٢٩٠م) ، أن قدمت جموع صليبية جديدة من ايطاليا الى عكا ، وتصادف وصولهم آنذاك في موسم انتعشت فيه التجارة مع عكا وامتلأت أسواقها بالتجار من البلاد المجاورة(١٧) . الا ان هـــذه الجموع الغوغائيـــة غير المنضبطة خرقت بتصرفاتها المشينة المعاهدة المعقودة بين قلاوون وهنري الثاني Herry (11) في عكا « فقد عمدوا تعبيرا عن حماسهم الديني الى التحرش ببعض تجار المسلمين ، وأقدموا على قتل عدد منهم وكان بعضهم يحمل رقيقا للسلطان قلاوون(١٨) . وسرعان ما اشتعلت نار الفتنة بين الطرفين . واندفـــع الايطاليون في الشوارع يهاجمون ويقتلون كل من كان يتزي بلباس شرقي ، وتعرض للقتل عدد كبير من نصارى العرب المتوظنين(١٩) ، ذلك أن الفرنج لم يفرقوا بين مسلم ومسيحي عربي . ولم يتمكن بارونات عكا وفرسانها وضع حد لهذه المجزرة الا بعد ان بذلوا جهودا مضنية ، وتم القبض على زعماء الفتنة .

ولكن هذه الانباء لم تكد تصل الى قلاوون حتى ثارت ثائرته ، وأسرع بارسال تجريدة بقيادة الامير شمس الدين سنقر المساح(٢٠) ، عسكرت في اللجون لتقف على جلية الامر ، ولكنها تعرضت هنـــاك لهجوم شنه فرسان الفرنج بعكا ، واستمر الاشتباك بين الطرفين قائما عدة ايام . فكتب سنقر المساح الى السلطان بذلك ، فوجدها السلطان فرصة مواتية لاستئصال شأفة الفرنج « وكان ذلك من اكبر الاسباب التي أوجبت فتح عكا »(٢١) .

---

(١٧) Setton, AHistory of the Crusades, vol. 2, P. 594.

(١٨) ابن عبد الظاهر : تشريف الايام والعصور ، ص ١٧٧ ، نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٤٨ « مخطوط » ـ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ص ١٨٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٣٢٠ النويري السكندري : الالمام فيما جرت به الاحكام المقضية ، لوحة ١٧١ ب « مخطوط » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٧٥٣ ، محمد جمال سرور : دولة بني قلاوون في مصر ، ص ٢٤٠ عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة صيداء ، ص ١٥٥ .

(١٩) Setton; AHistory of the Crusades, vol. 2, P. 595.

(٢٠) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٧٥٣ .

(٢١) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٩٣ .

وعلى الرغم من الاعتذار الصارخ الذي وجهه زعماء الفرنج بعكا الى السلطان مبررين ما حدث بأنه انما « جرى من فرنج الغرب »(٢٢) ، فان السلطان لم يترك المسألة تمر دون أن يقتص من المسؤولين كذريعة لتحقيق ما أزمع عليه ، فقد أجاب عليهم بان يسلموا اليه زعماء الفتنة ٠ واضطر عموري Amalrio حاكم عكا الى عقد اجتماع مع أعيان دولته للبحث في مطالب السلطان ، فاقترح وليم بوجيه Willian of Peaujeu رئيس الداوية بان يرسلوا الى القاهرة جميع المجرمين الموجودين في سجون عكا ، بزعم انهم زعماء الفتنة المتسببين فيها ٠ ولكن هذا الاقتراح لم يلق قبولا من الحاضرين ، وبدلا من ذلك حاولوا اقناع رسل السلطان بالقاء تبعة ما حدث على التجار المسلمين ، فقد اتهموهم بانهم هم الذين بدأوا الثورة ٠ وترتب على هذا التصرف السلبي قيام قلاوون باعلان الجهاد المقدس واستنفار جيوشه من جميع البلاد في مصر والشام ٠ ولما بلغت أنباء هذا الاستنفار الفرنج بعكا ، سارع وكلاء الداوية المعتمدين لدى البلاط المملوكي بتحذير مقدم الداوية في عكا ، ولم يتردد هذا الاخير في ارسال رسول شخصي الى القاهرة يلتمس العفو من السلطان ٠ وازاء ذلك طلب قلاوون أن يقدم اليه الفرنج بعكا قدرا من النقد البندقي مساو لعدد سكان المدينة(٢٣) في مقابل الابقاء عليها ، ولكن طلب السلطان قوبل بالرفض من المجلس الاعلى للمدينة ، وأخذ كل من الطرفين يستعد للمعركة الفاصلة ٠

أرسل السلطان قلاوون الى جميع البلاد الشامية بالتأهب ، وأمر باخراج المجانيق وآلات الحصار واعداد الاسلحة والزردخانات والابقار لجر المجانيق ، كما طلب ان تشترك كل قرية من قرى الشام بعدد من الرجال كل حسب قدرتها(٢٤) ٠ كذلك ندب الامير عز الدين آيبك الافرم لتجهيز المعدات والمجانيق وقطع الاخشاب اللازمة لها من جباء بعلبك

---

(٢٢) ابن عبد الظاهر : تشريف الايام والعصور ، ص ١٧٧ ٠

(٢٣) Setton, op. cit. vol. 2, P. 594.

(٢٤) ابن عبد الظاهر : تشريف الايام والعصور ، ص ١٧٧ ٠

والبقاع[٢٥] • ثم خرج السلطان الى ظاهر القاهرة في آخر شوال لاستكمال استعداد قواته ، وأقام بمسجد التبر (أو مسجد التبن) فترة من الوقت مرض خلالها فاضطر الى البقاء هناك ولكن العلة اشتدت به فلم تمض أيام حتى قضى نحبه في ٦ ذو القعدة ٦٨٩هـ ، فنقل الى القاهرة حيث دفن في تربته •

وتقلد الامور بعده ابنه الملك الاشرف صلاح الدين خليل في اليوم السابع من ذي القعدة ، وبعد ان قضى على المعارضة المألوفة في مثل هذه الظروف وثبتت أقدامه في السلطنة ، قدمت اليه وفود المهنئين من كل البلاد ، منها وفد الامير سابق الدين عبية أمير بني عقبة عرب الكرك[٢٦] ، حيث قدم التقادم والهدايا ، فأنعم عليه السلطان وأعاده الى بلاده مكرما مشكورا • وفي أوائل شهر صفر سنة ٦٩٠هـ (فبراية (شباط) ١٢٩١م) شرع السلطان الاشرف خليل في اتمام الاستعدادات لفتح عكا فأرسل الامير سيف الدين الايغاني الى الحصون بالشام لاستنفار الاهالي للجهاد المقدس[٢٧] ، كما طلب من جميع النواب هناك بالحضور بجيوشهم للمشاركة في شرف الجهاد •

ظن أهل عكا ان متاعبهم قد انتهت بموت السلطان قلاوون ، وأملوا أن يكون السلطان الجديد أكثر ميلا للسلم من ابيه ، لذا سارعت حكومة عكا بارسال سفارة الى الاشرف خليل يهنئوه بالملك ، وتطلب منه أن يضع شروطا جديدة للسلام[٢٨] ، كما طلب منه الرسل عقد معاهدة بينهما • ولكن الاشرف خليل لم يكن أقل حماسا من أبيه في ازالة الوجود الصليبي من الاراضي العربية ، سيما وان هذا الوجود لم يعد يمثل أي قوة بعد

---

(٢٥) ابن عبد الظاهر : المصدر السابق ، ص ١٧٧ ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ١١٠ – المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٧٥٣ ، ٧٦٣ •

(٢٦) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٧٦٠ •

(٢٧) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٢٨٣ « مخطوط » ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ١١١ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٧٦٣ •

(٢٨) Muir, The Mameluks, P. 44.
Setton, op. cit. vol. 2, P. 596.

سقوط العديد من المدن الصليبية في يد بيبرس وقلاوون ، بحيث أصبحت عكا في وضع لا تحسد عليه[٢٩] • فكان تصرف الاشرف خليل ازاء هذا الاجراء الصليبي من فرنج عكا معبرا عن هلاه الحقائق ، بالاضافة الى انه اراد ان ينفذ نفس الخطة التي رسمها ابوه وشرع في تنفيذها حتى وافته المنية ، اذ كان على يقين من أنه ان لم ينفذها يتعرض حتما لانتقادات مريرة في الداخل ، زد على ذلك أن دولة المماليك ستفقد حتما مكانتها أمام البقية الباقية من الحركة الصليبية • ولهذا كان طبيعيا أن يأمر بالقبض على رسل الفرنج بعكا ويزج بهم في السجن كرد حاسم على مطالبهم ، وتعبير واضح عن نواياه التالية • .

نشطت الاستعدادات العسكرية في جميع بلاد الشام ، وسارت العساكر باتجاه عكا تحمل الاسلحة والذخائر والمجانيق ، ومن جملتها عظيم يسمى المنصوري كان يحمل وحده مائة عجلة[٣٠] ، نقله الملك المظفر صاحب حماة من حصن الاكراد ، واشترك معه في نقله المؤرخ أبو الفداء • ويعبر أبو الفداء عن ذلك بقوله : « وكان المسلم الى منه عجلة واحدة لاني كنت اذ ذاك أمير عشرة »[٣١] • كان الوقت شتاء وقد تعرض الجند لكثير من المتاعب بسبب نقل معدات الحرب والحصار من سائر أنحاء البلاد الشامية والمصرية • وبينما كانت جنود دمشق وحلب وطرابلس وحماة تتجه جنوبا نحو عكا ، كان نائب الكرك اذ ذاك وهو المؤرخ بيبرس الدوادار[٣٢] يتأهب بدوره للمسير بقواته بعد ان وردت عليه مراسيم السلطان بتجهيز الزردخاناة والالات واعداد القوات للاشتراك في المعركة ، يقول بيبرس

---

(٢٩) Lane Poole AHistory of Egypt, Po 285.

(٣٠) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٢٥ ، ابن الوردى : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢٣٥ ، ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣٦٢ « مخطوط » •

(٣١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٢٥ •

(٣٢) الدوادار : لقب يطلق على الامير الذي يحمل دواة السلطان أو الامير أو غيرهما • ويتولى أمرها مع ما ينضم الى ذلك من الامور اللازمة لهذا المعنى كتبليغ الرسائل عن السلطان وتقديم القصص اولبريد اليه ، كما يقدم الى السلطان كل ما تؤخذ عليه العلامة السلطانية في المناشير والتواقيع والكتب ومتواليها أمر كبير (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٥ ص ٤٦٢ ، المقريزي : الخطط ، ج ٣ ص ٣٦١) •

الدوادار : « فجهزت من الزردخانات المانعة والآلات النافعة والرجال المجتهدين والرماة والحجارين والغزاة والنجارين »[٣٣] ، وتوجه بجيش الكرك حيث وافى السلطان على غزة ، فوجد منـــه الاكرام • وسار في ركابه الى عكا ، فحطت جموع الجيوش الاسلامية حولها في ٣ ربيع الآخر ٦٩٠هـ[٣٤] (٥ ابريل (نيسان) ١٢٩١م) • بعد ان ارسل الاشرف خزانته وحريمه الى دمشق •

وأخذت قوات المماليك تتقاطر الى عكا حتى اكتمل وصولها ، فأمر الاشرف خليل بنصب المجانيق حولها وكانت اثنين وتسعين منجنيقا[٣٥] « منها خمسة عشر كبيرا يرمي بقنطار دمشقي وأكبر »[٣٦] • واجتمع حول عكا من القوات والمعدات مالم يجتمع على غيرها في عهد المماليك[٣٧] • ورتب الاشرف قواته ، فأنزل الحمويين برأس الميمنة في مواجهة الداوية ، ويعبر أبو الفداء على هذا الوضع الذي وضعوا فيه بقوله : « فكنا عـــلى جانب البحر والبحر عن يميننا اذا واجهنا عكا »[٣٨] • أما جيش دمشق فكان يقف في مواجهة الاسبتارية • أما قوات مصر فقد تمركزت ما بين نقطة تقابل الاسوار الشمالية والجنوبية للمدينـــة ، حيث يوجد بروز ناتيء عليه برج ضخم كبير حتى خليج عكا ، حيث ضربت خيمة السلطان

---

(٣٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٢٨٣ « مخطوط » •

(٣٤) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ١١١ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٧٦٥ •

(٣٥) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٥٥ « مخطوط » ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ١١٢ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٧٦٥ والخطط ، ج ٣ ص ٣٨٨ ، وليم موير : المماليك ص ٦٢ ، محمد جمال سرور : دولة بني قلاوون في مصر ، ص ٢٤١ Setton, op. cit, vol. 2, P. 595. أما النويري السيكندري فجعلها سبعين منجنيقا (الاعلام بما جرت به الاحكام المقضية ، لوحة ١٧١ ب « مخطوط ») ، ولكن العيني يجعلها ٥٢ منجنيقا وفي ذلك يقول : « وكان عدة مانصب عليها من المجانيق اثنان وخمسون منجنيقا شيطانيا ، وقال بعضهم أثنان وسبعون منجنيقا » (انظر : عقد الجمان ، ج ٢١ ق ١ لوحة ١٨ « مخطوط ») • في حين يجعلها ابن اياس خمسة وسبعين منجنيقا (بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٢٣) •

(٣٦) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٦ •

(٣٧) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٢٥ ، ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣٦٢ «مخطوط» •

(٣٨) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٢٦ •

قريبا من الشاطئ[٣٩] ، وقدرت عدد قوات المسلمين المحاصرة لعكا بنحو ٦٠ ألف فارس و ١٦٠ ألفا من المشاة[٤٠] .

كانت مدينة عكا مدينة حصينة ، فكل زاوية منها كان يدعمها برج ضخم منيع ، وكانت بواباتها تغلق بأبواب حديدية ، كما حصن ميناؤها بالسلاسل الضخمة[٤١] التي كانت تشد على الميناء من برجين منعا لدخول السفن غير المرغوب فيها . وكان البحر يشكل خندقا طبيعيا يحيط بها من الجهتين الغربية والقبلية ، في حين كان يحيط بها من الجانبين الشمالي والشرقي أسوار رئيسية وأمامية[٤٢] .

وكان الفرنج عندما أحسوا باقتراب النهاية قد استنصروا بكبار ملوك المسيحية « واجتمع بها جمع كبير من الدوية والاسبتار »[٤٣] . فوفدت اليهم النجدات من كل جهة ، وتجمع داخل أسوارها أفواج كبيرة من الفرنج ينتمون الى أمم متعددة بلغ عددها سبع عشرة ، منهم : الانجليز والافرنسيون والقبارصة والبيازنة والبنادقة[٤٤] . وبلغت عدة هذه الحشود المتنافرة نحو ألف فارس ، وما يتراوح بين اثني عشر وأربعة عشر

---

(٣٩) Setton, op. cit. vol. 2, P. 596
Setton, op. cit. vol. 2, P. 596.

(٤٠) سعيد عاشور : العصر المماليكي ، ص ٧٢ ،

(٤١) كانت عكا احدى المدن التي اختصت بنوع من السلاسل (المآصر الضخمة) تتخذ من سلاسل حديد ، ويدخل في تركيبها اقفال محكمة الصنع ، توضع عند اطراف السلاسل تفتح وتغلق عند الحاجة . وعند دخول أية سفينة الى الميناء ، ترخى السلسلة بعد ذلك (انظر : ميخائيل عواد : المآصر في بلاد الروم والاسلام ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٤٨م ، ص ٢٤ ، ٣٣) .

(٤٢) Setton, op. cit. vol. 2, P. 596.

(٤٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٢٨٤ « مخطوط » . اما ابن الفرات فيقول « كاتبوا ملوك البحر من الفرنج وسألوهم انجادهم فاتوهم من كل مكان ، واجتمع بعكا منهم جموع كثيرة فقويت نفوسهم » (انظر : تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ١١٢) . ويقول المقريزي : « أتت جمائع الفرنج الى عكا ارسيالا من البحر وصار بها عالم كبير (انظر : السلوك ، ج ١ ص ٧٦٥) .

(٤٤) Lane Poole, Ahistory of Egypt, P. 286.
Setton, op. cit. vol. 2, P. 596.
Setton, op. cit. vol. 2, P. 595.

ألفا من المشاة(٤٥) ٠ يقودهم من كبار قادة الفرنج وليـــم بوجيه رئيس الداوية وحنا فيلييه John of Villiers زعيم الفرسان الاسبتاريـة ٠ وكنراد فوشتفانجـــن Conrad of Feuchtwangen رئيس فرســـان التيوتون ، بالاضافة الى هنري الثاني ملك قبرص ومملكة بيت المقدس اللاتينية وأخوه عموري حاكم عكا(٤٦) ٠

وبدأ حصار المماليك لعكا في ٣ ربيـع الثاني ٦٩٠هـ (٥ ابريـــل (نيسان) ١٢٩١م) وعندما تم نصب المجانيق حولهـا ، بدأت توجـــه ضرباتها الى منشآت المدينة وأسوارها ، واتفق ان كان لدى الفرنج في عكا بواق من أسرى المسلمين يقف على أسوار القلعة ، فلما رمت المجانيق لم تصل حجارتها الى الاسوار ، فصار ينادي ببوقه ويقول : قدموا قدموا ويكرر ، ففهم المسلمون مقصده ، وأعلموا السلطان بذلك فطلب منهـــم تقديم المجانيق فقدموها(٤٧) ، وراحت تصليهم ليلا ونهارا بنيرانها ٠

أبلى الطرفان في الحرب ، وكان الفرنج قـــد أبقوا أبواب الاسوار مفتحـــة(٤٨) ، فيخرجون منهـــا ويهاجمون المسلمين ثـــم يعودون الى الداخل(٤٩) ٠ وثبتت صفوفهم ثباتا تاما أمام المسلمين ، ومع ذلك فانهم قاموا بترحيل عدد كبير من نسائهم وأطفالهم الى قبرص عن طريق البحر عندما أحسوا بخطورة الموقف وتحرجه ٠ وفي ٣ جمادى الاولى (٤ مايو (أيار) ، وصل الملك هنري الثاني من قبرص في مائة فارس وألفين مـــن المشاة كما قدم بصحبته أيضا حنا تركو أسقف نيقوسيا ، الذي لم يتردد في أن يبعث رسله الى السلطان الاشرف خليل في محاولة يائسة لعقد هدنة

---

(٤٥) سعيد عاشور : العصر المماليكي ، ص ٧٣ ،
اما Jacop فيقول بأن جيش عكا وصل بعد مساعدات قبرص ٢٥ ألفا (انظر : Jacob, History of Palestine, 393.
(٤٦) Setton, op. cit. vol. 2, P. 595.
(٤٧) النويري السكندري : الالمام بما جرت به الاحكام المقضية ، لوحة ١٧١ ب « مخطوط » ٠
(٤٨) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٢٨٤ « مخطوط » ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ١١٢ ٠
(٤٩) أبو لفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٢٦ ، Setton, op. cit. vol. 2.

مع المسلمين • وظن السلطان أنهم قدموا للتسليم ، فلما عرف منهـــم قصدهم حذرهم من عاقبة المطاولة ، ووعدهم بالابقاء على ارواح السكان اذا ما استسلموا له طائعين • وبينما كان السلطان يتحدث اليهم سقط حجر طائش بالقرب منهم ، فاشتد غضب السلطان ، وقطع المناقشة وأراد أن يقتـــل الرسل ، الا ان اعوانه أقنعوه بضرورة عودتهـــم أحياء الى عكا(٥٠) • وعنما ايقن الملك هنري من المصير المحتوم(٥١) انتهز فرصة خلاف وقع بينه وبين القادة الفرنج بعكا ، وبادر بالهرب الى قبرص ومعه ثلاثة آلاف من رجاله •

ثم شدد المسلمون حصارهم لعكا ، وكان جيش الكرك بقيادة نائبها بيبرس الدوادار قد ابلى بلاء حسنا في هذه المعركة ، فقد كان يسعى سعيا متواصلا لايجاد منفذ يتسلل منه الى المدينة • وحدث اثناء طوافه حول السور أن لمح برجا قد فعلت فيه المجانيق فعلها ، وهدمت قسما منه ، وكان بينه وبين السور فسحـــة مكشوفـــة لا يمكن اجتيازها ، لأن جروخ(٥٢) الفرنج مسلطة عليها • فأقام مع جنده ستارة من اللبود(٥٣) الملفق ، ونصبها ليلا في غفلة من العدو تجاه البدنة(٥٤) المهدومة مـــن

---

(٥٠) Setton, op. cit. vol. 2, PP. 296 - 297.

(٥١) Lane Poole, AHistory of Egypt. P. 286.
Muir, The Mameluke, P. 44.
Setton, op. cit. vol. 2, P. 597.
محمد جمال سرور : دولة بني قلاوون في مصر ، ص ٢٤٢ ، سعيد عاشور : العصر المماليكي ، ص ٧٣ ، ومصر في عصر دولة المماليك البحرية ، ص ٦٩ •

(٥٢) الجروخ : جمع جرخ ، كلمة فارسية وهي آلة حربية من نوع القوس الرامي ، يستعمل لرمي السهام والنفوط والحجارة ، ويقال لمستخدمها من الجند جرخى (انظر : ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ حاشية صفحة ١٥٠ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ حاشية صفحة ١٠٠٣) •

(٥٣) اللبود : ويقال له اللباد أيضا • يصنع من غزل الصوف ويسقى بالصمغ ، ويكون بالوان مختلفة ، فمنها الازرق والاحمر وصانعوها يسمون اللبوديون (انظر : ابن الاخوة : معالم القربة في احكام الحسبة ، ص ٣٣٧) •

(٥٤) البدنة : بدن جمعها ابدان ، اما كلمة بدنة فجمعها بدنات فالبدنات هي الاجزاء البارزة في السور ، غير أنها ليست مفصولة عنه تماما كما هو الحال بالنسبة للابراج ، فالابراج تعتبر حصونا قائمة بذاتها (انظر : كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة القاهرة ، ص ٤٥) •

البرج بواسطة بكر وحبال ، وشاهد الفرنج هذه السنارة في الصباح فرموها بالجروخ والمجانيق ولكن حجارة المجانيق عندما كانت تصطدم بها يتراخى اللبد تحتها فتبطل قوتها ، أما الجروخ فلم تستطع النفاذ منها • وبذلك تمكن بيبرس الدوادار وجنده الكركيون ومن معهم من أجناد المسلمين ، اتقاء رمي الفرنج ، ووصلوا الى الخندق الفاصل بين السورين حيث اجتهدوا في طمه ، واستعملوا شتى الوسائل حتى مخالي الخيل ملؤوها بالتراب وألقوها فيه ، بالاضافة الى الاخشاب والحجارة • ولما وردت أنباء ذلك الى السلطان الملك الاشرف خليل أعجبه ذلك وأثنى عليهم ، وركب بنفسه وتهيأ للهجوم الكبير(٥٥) •

وفي صبيحة يوم الجمعة الموافق ١٧ من جمادى الاولى ٦٩٠هـ(٥٦) ١٨ مايو (أيار) ١٢٩١ م) أمر السلطان بضرب الطبلخانات والكوسات دفعة واحدة ، وكانت محمولة على ثلاثمائة جمل(٥٧) • فضربت وتردد صداها في الآفاق فصمت لدويها الآذان ، وهال ذلك أهل عكا وراعهم ،

---

(٥٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٢٨٥ « مخطوط » •

(٥٦) الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ص ١٩٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٣٢٠ ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ١١٢ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٧٦٥ ، والخطط ، ج ٣ ص ٣٨٨ •

Thomson, History of the middle ages, P. 206.
Oman, History of the art of war, vol. 1, P. 264.
Setton, op. cit. vol. 2, P. 597.

محمد جمال سرور : دولة بني قلاوون في مصر ، ص ٢٤٢ ، عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة صيداء ، ص ١٥٦ • اما أبو الفداء فجعل فتحها في ١٧ جمادى الاخرة (انظر : المختصر ، ج ٤ ص ٢٦) ووافقه في ذلك كل من بيبرس الدوادار (انظر : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٢٨٦ « مخطوط ») وصالح بن يحيى (انظر : تاريخ بيروت ، ص ٢٨) وابن اياس في بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٢٣ •

(٥٧) الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ص ١٩٠ ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ١١٢ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٧٦٥ •

الطبلخاناه : كلمة فارسية تعني الفرقة الموسيقية السلطانية ، وهي أيضا مرتبة حربية من مراتب ارباب السيوف في عهد المماليك • والطبلخاناه تدق عادة في القلعة بعد صلاة المغرب وتصاحب السلطان في اسفاره وفي الحروب (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ص ٨ ـ ١٢) •

ثم زحف بقواته نحو الاسوار ، فلم ترتفـــع شمس النهار حتى كانت السناجق الاسلامية قد علت أسوار عكا[٥٨] ، وانكسر الفرنـــج كسرة شنيعة ، وانهزموا امام قوات المماليك الظافرة ، فهرب قسم في البحر الى قبرص[٥٩] بينما هلل عدد كبير منهم لشدة الازدحام تحت سنابك الخيل، وغرق آخرون ، أما الباقون فاما تعرضوا لسيوف المماليك فقتلوا او وقعوا في قبضتهم فأسروا • واجتاحت جموع المسلمين عكا بعد حصار دام اربعة واربعين يوما ، وأعيدت الى حظيرة الحكم الاسلامي بعد غربة دامت مائة وثلاث سنوات كاملة • ومن عجيب الصدف أن يكون يوم سقوط عكا في أيدي الصليبيين وهو الجمعة ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ متفقا مع يوم استردادها على يدي الاشرف خليل في يوم الجمعة ١٧ جمادى الاولى سنة ٦٩٠هـ • وقد ترتب على سقوط عكا انهيار مقاومة الفرنج في الساحل ، فبادروا باخلاء معاقلهم وولوا الادبار ناجين بأنفسهم ، واستولى المماليك على : صيداء وبيروت وصور وحيفا وعثليت وأنطرطوس ، فأمر السلطان بهدمهما جميعا • وهكذا سقطت آخر المعاقل الصليبية في شرقنا العربي ، في أيدي المماليك وتحررت أراضي الشام تماما من سيطرتهم ويعلق العديد من المؤرخين على هذا الحدث الهام بأقوال مختلفة ، فأبو الفداء يقول : « وتطهر الشام والسواحل من الفرنج »[٦٠] • أمـــا الذهبي فيقول : « وتنظفت الشام من الفرنج »[٦١] ، ويقول ابن كثير : « ولم يبـــق بالسواحل ولله الحمد معقل للفرنج الا بأيدي المسلمين وأراح الله منهم البلاد والعباد »[٦٢] • أما القلقشندي فيعلق بقوله : « وتكاملت جميع

---

(٥٨) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٧٦٥ • السناجق : أو الصناجق ، وتسمى أيضا بالعصائب ، وهي الاعلام ، وهي عدة رايات منها راية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش • ورايات صفر صغار تسمى السناجق (انظر : القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ص ٨ ، ماير : الملابس المملوكية ، ص ٨٣) •

(٥٩) الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ص ١٨٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٣٢١ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٧٦٥ ،

Muir, The Mameluke, P. 44.
Setton, op. cit. vol. 2, P. 597.

(٦٠) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٢٧ •

(٦١) الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ص ١٩١ •

(٦٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٣٢١ •

البلاد الساحلية للاسلام »[٦٣] ، وابن بهادر بقوله : « وتكملت بهــذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية الاسلامية ، وكان امرا لا يطمع فيه ولا يرام وتطهر الشام والسواحل من الفرنج »[٦٤] .

وما ان انتهى السلطان من مهمته في عكا حتى توجــه الى دمشق ، فزينت لمقدمه أحسن زينة « ودخل دخولا ما دخله ملك قبله »[٦٥] ، فأقام بها مدة ، ولعب الكرة في ميدانها ، ثم عين في نيابتها الامير علم الدين سنجر الشجاعي المنصوري وتهيأ للعودة الى مصر . ورسم للامير بيبرس الدوادار نائب الكرك بالتوجه الى نيابته ، ولكن بيبرس سأله أن يستعفيه من النيابة مؤثرا القيام على خدمته والعودة في ركابــه وصحبته[٦٦] . فأجاب السلطان التماسه وأعفاه من العود اليها وأقره في جملة الأمراء بالديار المصرية ثم رتب مكانه في نيابة الكرك الامير جمال الدين آقوش الاشرفي[٦٧] ، وأمره بالتوجه اليها ثم سار السلطان الاشرف الى الديار المصرية فدخل القاهرة في ٩ شعبان ٦٩٠هـ ، واحتفل اهل مصر بعودتــه « احتفالا عظيما أضعاف احتفال أهل دمشق »[٦٨] .

---

(٦٣) القلقشندي : مآثر الانافة في معالم الخلافة ، ج ٢ ص ١٢٢ .
(٦٤) ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣٦٥ « مخطوط » .
(٦٥) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٥٩ « مخطوط » .
(٦٦) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٢٩٠ « مخطوط » .
(٦٧) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ١١٩ ، ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٠٤ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٧٦٨ ، العيني : عقد الجمان ، ج ٢١ ق ١ لوحة ٣٠ « مخطوط » .
(٦٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٠ .

(٣)

موقف الاشرف خليل من الشوبك ونتائجه

جرى الملك الاشرف خليل على سنة ابيه في اختصاص منطقة شرقي الاردن بجانب كبير من عنايته ورعايته ، فعندما بلغه ما سببته عواصف الشتاء العاتية والسيول الجارفة من أضرار بعمران المنطقة وبسكانها ، بادر باصدار أمره باصلاح ما أحدثته العواصف والزلازل(٦٩) • وكان معظم تأثيرها بالكرك فانهدم ثلاثة أبراج من قلعتها(٧٠) ، كما هدمت العديد من الدور والاماكن في مدينة الكرك نفسها • وندب الامير علاء الدين أيدغدي الشجاعي(٧١) ، بمرسوم شريف من دمشق ، وأمره بان يصطحب معه الحجارين والصناع لعمارة ما انهدم في قلعة الكرك ومدينتها ، ونفذ الامير الشجاعي عمارة ما أتلفته الزلازل على أحسن وجه •

وفي جمادى الاولى ٦٩٢هـ (ابريل (نيسان) ١٢٩٣م) أمر السلطان الملك الاشرف خليل باستقدام كل من الملك المظفر محمود صاحب حماة

---

(٦٩) في شتاء عام ٦٩١هـ حج الشيخ تقي الدين بن تيمية مع الركب الشامي • وعند وصول قوافل الحجيج الى مدينة معان نالهم ريح شديد جدا كانت سببا في وفاة العديد منهم ، وكانت الرياح من الشدة بحيث حملت جمالا عن اماكنها •
(ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٣٣٣) • وفي شهر صفر ٦٩٢هـ (يناير (كانون ثاني) ١٢٩٣م) وقع برد وصقيع شديد ، افسد الكثير من الغلات ، فغلت الاسعار ونفقت الدواب ، وهطلت الامطار غزيرة متوالية ليلا ونهارا حتى تسبب في هدم الكثير من البيوب والعقود في مدينة الرملة وغزة وغيرهما من المدن • واجتاحت السيول البلاد ، فهدمت الطواحين وكسرت آلاتها ، وقطعت الجسور حتى وحوش البراري لم تسلم منها ، فوجد أحد عشر اسدا ميتا قد غرقت بالسيل • (ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ١٥٤ ـ المقريزي ، السلوك ، ج ١ ص ٧٨٣) وتبعت هذه السيول زلزلة عظيمة اجتاحت سواحل الشام كلها وهدمت العديد من الاماكن ، فانشقت منارة جامع الرملة وسقطت ، كما وقعت منارة جامع غزة (ابن الفرات : المصدر السابق ، ج ٨ ص ١٥٤) •

(٧٠) الذهبي : تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام مجلد ٣٣ لوحة ١١٤ « مخطوط » ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ١٥٤ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٧٨٣ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٣٦ •

(٧١) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٧٠ « مخطوط » ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٧٨٣ •

وعمه الملك الافضل علي فقدما على البريد ، ولكن السلطان شملهما برعايته وغمرهما بعطفه وعنايته وأنعم عليهما بملبوس يليق بهما وأقاما في ضيافته عدة ايام ، ثم أمرهما بالاستعداد للرحيل معه . ثم خرج السلطان الاشرف متجها على الهجن الى الكرك والشوبك ، وبرفقته صاحب حماة وعمه وبعض الامراء والخاصكية(٧٢) ، في حين أصدر امره الى الامير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة بمصر بالتوجه بالعسكر الى دمشق . وعندما وصل السلطان الى الكرك أخذ يطوف بقلعتها ويتفقد ما تم اصكحه من الابراج التي هدمت فيها ، فأصلح أمورها ورتب أحوالها(٧٣) ، ثم أكرم نائبها : جمال الدين آقوش الاشرفي ، فزاد في اقطاعه سبع بلاد من أعمالها(٧٤) . ولما انتهى من ذلك كله واصل رحلته نحو دمشق متصيدا في كل مراحل الطريق اليها واشترك معه في صيده صاحب حماة عمه . وقد أعجب الاشرف بخبرة الملك الافضل علي في صيد الفهود من منطقة الكرك والبلقاء(٧٥) . وعند وصولهم الى زيزاء الواقعة بالقرب من مدينة عمان لاقتهم تقادم صاحب حماة(٧٦) ، وكان قد ارسل في طلبها عندما كانوا بالكرك ، فقدمها الملك المظفر وعمه الى السلطان فقبلها وانعم عليهما ، وتابع سيره الى دمشق فوصلها في تاسع جمادى الآخرة .

ولم يطل مقام السلطان بدمشق ، فلم يلبث ان خرج من دمشق في معظم عسكره ، متجها الى حمص بحجة انه خارج للصيد ، ونزل في أطراف حمص فحضر لخدمته الامير مهنا بن عيسى أمير العرب وأخواه محمد وفضل وابنه موسى ، فألقى القبض عليهم جميعا وأرسلهم الى مصر حيث سجنوا بقلعة الجبل(٧٧) ، وكان قد تغير خاطره من جهتهم بسبب

---

(٧٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٢٩ ؛ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ ق ٣ لوحة ٦٦٢ « مخطوط » . ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢٣٧ .

(٧٣) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٧١ « مخطوط » ـ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ١٥٥ ، ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٠٥ ، ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٢٥ .

(٧٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٣٠٣ « مخطوط » .

(٧٥) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢٣٨ .

(٧٦) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٢٩ .

(٧٧) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٣٠٣ « مخطوط » ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٢٩ ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢٣٧ ـ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ١٥٦ .

أمور بلغته عنهم[٧٨] • وكان السلطان الملك الاشرف خليل قبل توجهه الى حمص قد أصدر امره الى الامير عز الدين آيبك الافرم نائب الشام بأن يتوجه الى قلعة الشوبك ويهدمها[٧٩] • ولكن الافرم حاول ان يثنيه عن ذلك بحجة انها قلعة من قلاع الاسلام[٨٠] ، غير ان السلطان انتهره بعنف ، فلم يسمع الافرم الا تنفيذ أمره • وفي رجب ٦٩٢هـ (يونية (حزيران) ١٢٩٣م) ، توجه الافرم الى الشوبك ومعه الحجارين والفعلة ، وشرع في هدم قلعتها وما زاء يخربها حتى سواها بالارض ، ولم يبق الا على القلة فقط[٨١] ، ووجد الافرم في القلعة ، أربعة آلاف ختمة مخطوطة بخط منسوب مذهب ، وربعات كثيرة ، والعديد من الكتب الهامة ادخرها بها سلاطين بني أيوب بالاضافة الى أسلحة وزردخانات عظيمة القدر ، ووجد من جملة ذلك سيف عرضه شبر وأربعة أصابع مفتوحة ، وطوله أربعة أذرع ، قيل أنه سيف خالد بن الوليد رضي الله عنه[٨٢] • وقد اختلف المؤرخون في تفسير الاسباب التي حملت السلطان على هدم

---

(٧٨) الذهبي : تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام مجلد ٣٣ لوحة ١١٥ « مخطوط » •

(٧٩) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات : ج ٨ ص ١٥٦ ـ مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٣٩٦ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢١ ق ٢ لوحة ٦٢ « مخطوط » ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٦ ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣٧٥ « مخطوط » ـ وكان السلطان الاشرف خليل قد عين الافرم في نيابة دمشق في سادس شوال سنة ٦٩٠هـ (انظر : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٣) •

(٨٠) قال له الافرم : « ياخوند كيف تخرب مثل هذه القلعة وهي قلعة عامرة آهلة وهي حصن من حصون المسلمين » فانتهره السلطان قائلا له : « انتم نفوسكم كبار تزعمون انكم اصحاب رأي ولا يجيء رأيكم الا على رؤوسكم » ـ وأمره باتمام مهمته وقد اضمر له الشر (انظر : العيني : عقد الجمان ، ج ٢١ ق ١ لوحة ٦٢ « مخطوط ») •

(٨١) القلة : هو البرج المرتفع القائم بمفرده ، وقد وردت اشارة عن وجود القلعة في قلعة الجبل بالقاهرة وقلعة الكرك بالاردن (انظر : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ص ٤٥ ـ كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة القاهرة ، ص ١٠٣) •

(٨٢) العيني : عقد الجمان ، ج ٢١ ق ١ لوحة ٦٢ « مخطوط » ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣٧٥ « مخطوط » • الربعة : هي المصحف الكريم مقسم الى ثلاثين جزءا ، كان يحتفظ بها في صندوق خشبي مقسم بعدد هذه الاجزاء ، ويطلق عليه صندوق الربعة ، وكثيرا ما كان يكتب اسم السلطان ، أو الامير والقابه على جوانب الصندوق الخشبي بالالوان المختلفة ، وخاصة من الذهب واللازورد (انظر : عبد اللطيف ابراهيم : نصان جديدان من وثيقة الامير صرغتمش ، مجلة آداب جامعة القاهرة ، ديسمبر ١٩٦٦م ، ص ١٦١) •

قلعة الشوبك ، فبعضهم يذكر أن نائب الكرك ابلغه ان عرب الشوبك يقيمون فيها ويطلعون الى قلعتها(٨٣) ، فاستاء من ذلك واشتد غضبه ، وفي غمرة ثورته أمر بهدم القلعة • وذكر آخرون أنه انما أمر بتخريبها أخذا برأي الامير عتبة بن عقبة أمير عرب بني عقبة(٨٤) • وأيا ما كان الامر فقد دهش المؤرخون من تصرف السلطان وانتقدوه • فابن كثير يقول : « وكانت من أحصن القلاع وأمنعها وأنفعها ، لانها كانت شجى في حلوق الاعراب الذين هناك »(٨٥) • ويعلق النويري بقوله : « وكان هدمها من الخطأ وسوء التدبير ، فان القلاع والحصون معاقل الاسـلام وذخائر المسلمين ، واليها يلجؤون في أوقات الشدائد والحصارات ومنازلة الاعداء »(٨٦) • ويقول مفضل بن ابي الفضائل : « وكان هـذا الملك طالعه يقتضي الخراب ، فانه أخرب شيئا كثيرا في قلعتي مصر والشام ، وكذلك بظاهر دمشق من حد الميدان الى تحت القلعة ، وكان على يده خراب جميع الساحل »(٨٧) • أما ابو المحاسن فيتساءل عن السبب ، فلا يجد لهدمها مبررا أيا ما كان ، وينتقد هذا العمل بانه خطأ وتدبير فاسد ، يقول ابو المحاسن : « وكان ذلك غاية ما يكون من الخطأ وسوء التدبير ، وكان أخرب قبل ذلك أيضا عدة أماكن بقلعة الجبل ، وبقلعة دمشق أيضا أخرب عدة قاعات ومباني هائلة ، واما قلاع السواحـل فأخرب غالبها ، وكان يقصد ذلك لمعنى يخطر بباله »(٨٨) •

واعتقد ان السلطان الاشرف خليل كان مصابا بلوثة ، او كان يغلب عليه ما يعرف بالسادية ، او كانت تستبد به رغبة جامحة لتدمير الحصون والقلاع بخلاف كل من أبيه المنصور قلاوون وأخيه الناصر محمد اللذين كانا يولعان بالانشاء والتعمير • والظاهر أنه كان يخشى ان تتخذ هذه القلاع مأوى للمنتزين ضده والثائرين عليه • أما بالنسبة لقلاع الساحل

(٨٣) العينى : عقد الجمان ، ج ٢١ ق ١ لوحة ٦٢ « مخطوط » •
(٨٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٣٣٢ •
(٨٥) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٣ ص ٣٣٢ •
(٨٦) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٧٢ « مخطوط » •
(٨٧) مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٣٩٧ •
(٨٨) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٥ ، ١٦ •

الشامي ومدنه فقد كان يخشى ان يعود الفرنج لاحتلالها فتصبح قواعد صليبية ضده • وقد يكون الاشرف خليل قد اقتدى بمن سبقه من سلاطين بني أيوب ، فقد رأينا ان صلاح الدين الايوبي كان قد أخرب عسقلان وقلعتي اللد والرملة بعد سقوط عكا ، والمعظم عيسى أخرب أسوار القدس عند الحملة الصليبية الخامسة على دمياط • والعادل أخرب قلعة الطور في غور الاردن وقلعة كوكب الهواء المقابلة لقلعة عجلون ، بعد ان انتزعها من صاحبها الامير عز الدين أسامة • ولكننا اذا كنا بلتمس للايوبيين العذر في تبرير هذه التصرفات ، بسبب قوة الصراع الصليبي آنذاك وشدته(٨٩) ، فاننا نجد ان الامر لم يكن يستوجب ذلك في أيام الاشرف خليل ، خصوصا وان الخطر الصليبي قد خفت جذوته ، وخمدت أنفاسه ، وكان اولى بالاشرف خليل ان يشحنها بالرجال ، فتصبح مصدر قوة له ولدولته ، بدلا من هدمها ثم انه بعمله هذا قد أضعف حركة التجارة البحرية التي كان والده يعمل على تنشيطها فاقفرت موانىء الشام بعد تدميرها ، وفي ذلك يقول مفضل بن أبي الفضائل : « وتعطلت بلاده من جميع الاصناف التي تجلب من البحر »(٩٠) • واذا كنا نكن للاشرف خليل الاعجاب والتقدير لتطهيره بلاد الشام من الصليبيين ، فاننا نأخذ عليه تدميره لقلاع الشوبك والساحل ، مؤيدين في ذلك ما ذهب اليه مؤرخو العرب الذين انتقدوا الاشرف على هدمه لأكثر مدن الساحل وقلاعها(٩١) ، بعد تحريرها من ربقة السيطرة الفرنجية • فليس هناك مبررا لفعلته تلك اللهم الا انه « كان يقصد ذلك لمعنى يخطر بباله »(٩٢) •

اشتد الخلاف والنزاع بين الملك الاشرف خليل وأمراء المماليك بعد عودته الى مصر ، وقد ترتب على هذا النزاع اتفاق هؤلاء الامراء على

---

(٨٩) قام المنصور قلاوون بهدم مدينة طرابلس الشام القديمة الواقعة مباشرة على البحر ، واقام عوضا عنها مدينة مستحدثة ، اسست في الداخل بعيدا عن الساحل ، وانشا في موضعها القديم عددا من القلاع لحماية الساحل الطرابلسي من غارات الاسبتارية البحرية ، وحتى تندرج ذكرى المدينة الصليبية في طي النيسان (راجع : عبد العزيز سالم • طرابلس الشام ، ص ٣٧٠) •

(٩٠) مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٣٩٧ •

(٩١) عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة صيداء ، ص ١٥٧ •

(٩٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٦ •

التخلص منه بقتله . ففي أوائل سنة ٦٩٣هـ خرج السلطان للصيد خارج القاهرة ، فوجدها المتآمرون فرصة مواتيـــة لتنفيذ مخططهم فتبعوه . وعندما ابتعد عن حاشيته طلبا للصيد ، ابتدره الامير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة بمصر ، وضربه بالسيف ضربة قطع بها يده ، ثم هوى بسيفه على كتفه فسقط السلطان على الفور أرضا وعندئذ أجهز عليه كل من : الامير حسام الدين لاجين وسيف الدين بهادر ، وتم قتله في الثاني عشر من المحرم ٦٩٣هـ(٩٣) (١٣ ديسمبر (كانون اول) ١٢٩٣م) ، وظلت جثة الاشرف مطروحة هناك مدة يومين ثم نقلت الى القاهرة ودفنت في تربته .

اتفق المتآمرون بعد مقتل الاشرف على تنصيب بيدرا سلطانا ولقبوه بالملك القاهر وقيل الاوحد ، وقيل المعظم . وما كاد يتوجه الى قلعة الجبل لينزل بها حتى اشتعلت نار الفتنة في البلاد ، وقام مماليك السلطان الملك الاشرف والخاصية بزعامة الامير زين الدين كتبغا يطلبون الثأر لاستاذهم ، وطاردوا القتلة ، وتمكنوا من بيدرا فقتلوه ورفعوا رأسه على رمح . وقتلوا بعض أعوانه وهرب الباقون ، فما زالوا بهم يطاردونهم حتى ظفروا بهم جميعا ، وقتلوهم شر قتلة . واتفق الامراء بعد مكاتبات عديدة وتسكينا لما وقع واخمادا للفتنة(٩٤) ، ان يقيموا على عرش السلطنـــة محمد بن قلاوون أخا الاشرف خليل ، وكان طفلا لا يتجاوز عمره تسع سنوات ، فأجلسوه على سرير المملكة في الرابع عشر من محرم ، أي بعد مقتل أخيه بيومين فقط ، وبايع له الامراء بالسلطنة ولقب بالناصر محمد(٩٥) .

---

(٩٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٣٠٨ « مخطوط » ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٧٤ « مخطوط » ـ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢٨ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٧٩٠ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٧ .
Lane Poole, AHistory of Egypt, P. 288.

(٩٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٢٠ .

(٩٥) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٧٦ « مخطوط » ـ مفضل بن ابي الفضائل ، النهج السديد ، ج ٢ ص ٤١١ . اما المقريزي فيقول انه جلس على العرش في السادس عشر من محرم تخمينا ، بسبب ما وقع في ذلك من الاختلاف بين المؤرخين (انظر : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٤١) .

الفصل الرابـع

شرقي الاردن في عهد الناصر محمد بن قلاوون

١ ـ الاحداث المقترنة بالسلطنة الاولى للناصر محمد ٠

٢ ـ أعمال حسام الدين لاجين بالشوبك ٠

٣ ـ دور نيابة الكرك في اعادة الناصر محمد الى السلطنـة للمرة الثانية ٠

أ ـ قدوم الناصر من الكرك ٠

ب ـ انتصار غازان في واقعـة الخزندار وتوغلـه في الاردن ٠

ج ـ موقعة شقحب ٠

٤ ـ خلع الناصر محمد للمرة الثانية ٠

أ ـ التجاء الناصر محمد الى الكرك ٠

ب ـ قضية تنازله عن الملك ٠

٥ ـ ثورة الناصر محمد بالكرك وعودته الى السلطنة للمرة الثالثة ٠

أ ـ موقف امراء المماليك في مصر والشام من حركة الجاشنكير ٠

ب ـ تأهب الناصر للمواجهة ٠

جـ ـ سيطرة الناصر محمد على دمشق ٠

د ـ دخول الناصر محمد القاهرة وبداية سلطنته الثالثة ٠

٦ ـ مظاهر اهتمام الناصر محمد بمنطقة شرقي الاردن ٠

أولا : ما يتعلق بأعمال الانشاء والتعمير :

أ ـ في منطقة الكرك ٠

ب ـ العقبة ٠

جـ ـ الصلت ٠

د ـ عجلون ٠

هـ ـ الاغوار ٠

ثانيا : مظاهر اهتمامه بالمنطقة :

١ ـ حرصه على تطبيق العدالة وازالة المكوس ٠

٢ ـ زياراته للمنطقة :

ب ـ حسبان ٠

أ ـ الكرك ٠

٣ ـ ارسال اولاده للاقامة في الكرك ٠

٤ ـ مواقفه الودية من أهالي المنطقة ٠

(١)

الاحداث المقترنة بالسلطنة الاولى للناصر محمد

استقر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون على عرش السلطنة منذ يوم ١٤ من المحرم ٦٩٣ هـ (١٥ ديسمبر (كانون اول) ١٢٩٣ م) ، وأصبح الامير زين الدين كتبغا نائبا للسلطنة بالديار المصرية ، في حين أصبح علم الدين سنجر الشجاعي وزيرا ومدبرا للمملكة وأتابكا للعسكر ، ولم يمضي طويل وقت حتى دب الشقاق والنزاع بين كتبغا والشجاعي ، وأخذ كل يتحين الفرصة للانقضاض على الآخر . الى أن تهيأت الفرصة لكتبغا وأعوانه من احكام الحصار حول الشجاعي في القلعة ومضايقته فاضطر أعوانه ومماليكه ومؤيدوه الى التفرق عنه وخذله ، مهيئين لكتبغا المجال لقتله والقضاء عليه[١] ومنذ ذلك الحين استبد الامير زين الدين كتبغا بالامور ، خاصة وان السلطان كان بعد طفلا لا حول له ولا قوة فلم يكن له من الملك الا الاسم فقط[٢] واتفق ان اتصل بالامير كتبغا سرا الامير حسام الدين لاجين المنصوري ، وهو أحد رؤوس المؤامرة الذين قتلوا الملك الاشرف خليل ، وطلب منه ان يتوسط عند السلطان ليعفو عنه ، فحدث كتبغا الامراء الاشرفية في أمره ، وحثهم على العفو عنه ، وما زال يلح عليهم وعلى السلطان حتى طيب نفوسهم نحوه ، واعلن السلطان العفو عنه ومسامحته وعلى أثر ذلك ظهر الامير حسام الدين لاجين في يوم عيد الفطر ٦٩٣ هـ (أغسطس (آب) ١٢٩٤ م) ، وحضر سماط السلطان ، فلم يعاتبه على غدره بأخيه الاشرف ، بل خلع عليه وأدناه منه ، وأمر فحملت اليه الهدايا والتحف من الامراء وغيرهم تكريما للامير كتبغا ومن اجل خاطره[٣] .

---

(١) المقريز : السلوك ، ج ١ ص ٨٠١ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٤٦ ، والمنهل الصافي ، ج ٢ لوحة ٢٤٣ « مخطوط » ـ بامخرمة : قلادة النحر في وفيات اعيان الدهر ، ج ٣ لوحة ٩٨٨ « مخطوط » .

(٢) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٨١ « مخطوط » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٧٩٤ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٤٧ .

(٣) ابن الفوطي : التجارب النافعة ، ص ٤٨٠ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٤٨ .

كان حسام الدين لاجين يخشى على نفسه من الناصر محمد والمماليك الاشرفية ، على الرغم من صفحهم عنه على جريمته الشنعاء ، كان يخاف ان ينقلب عليه الناصر عندما يستأثر بالحكم عند البلوغ فيقضي عليه ، ولذلك أخذ يوصي الامير كتبغا على خلع السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، واعتلاء دست السلطنة مكانه ، وصار يهون عليه الامر ويستحثه على تنفيـذ الانقلاب والناصر بعد حدث صغير يمكنه التغلب عليه ، وانه متى شب واشتد عوده لن يبقي عليه وعلى من تواطأ معه على قتل الاشرف خليل ، وصار يخوفه من المماليك الاشرفية ويحذره من فرصة مواتية يتحينونها للاطاحة به ٠

وكان المماليك الاشرفية قد هالهم الدور الذي لعبه كتبغا من أجل الحصول على قرار من السلطان بالعفو عن قاتل استاذهم ، كما ساءهم أن أخذ يتعالى ويتسلط على الدولة ٠ فقر عزمهم على الثورة على كتبغا ولاجين معا ، وتم لهم ذلك في ١١ من المحرم سنة ٦٩٤ هـ[٤] (أول ديسمبر (كانون اول) ١٢٩٤ م) ، وكانوا زهاء الف مملوك[٥] ، وقيل ثلاثمائة مملوك ، وطالبوا برأس كتبغا ولاجين معا، ومكنهم اختلفوا في حركتهم ، وتمكن كتبغا بمساعدة أعوانه من سحق الثورة في قوة وعنف ، قتل عددا وكحل آخرين ومثل بالعديد وغرق عددا منهم في النيل[٦] ، فقضى بذلك على المقاومة وصفا له الجو ٠ وعندئذ أخذ يتطلع الى تنفيذ أعز أمانيه ، وهو الاستئثار بالحكم دون الناصر ، وكانت هذه الأمنية تختلج في نفسه وتكمن في تفكيره ، ويسعى الى تحقيقها سرا رغم الحاح لاجين عليه — الى ان كان مساء يوم الحادي عشر من المحرم ٦٩٤ هـ ، عندما طلب كتبغا الخليفة والقضاة والامراء وتحدث اليهم في ضرورة اختيار سلطان قدير كفء يصلح للسلطة

---

(٤) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٩١ « مخطوط » — المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٨٠٦ ٠ اما أبو المحاسن فيجعل ذلك في العاشر من المحرم (النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٤٨) ٠

(٥) مفضل بن ابي ابي الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٤٢٠ ٠

(٦) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٨١ « مخطوط » ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٨٥٠ — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٤٩ — ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٣٢ ٠

دون الناصر الذي كان صغر سنه لا يؤهله لهذا المنصب ، سيما وان الظروف السياسية كانت تقضي بأن يكون السلطان رجلا قويا كامل الرجولة يستطيع أن يمسك في قوة بأزمة الامور ، ويحسن سياسة الدولة ويهابه الجند والرعية . فاقتنع الحاضرون بوجاهة رأيه واجمعوا على خلع الناصر محمد وتنصيب الامير كتبغا على دست السلطنة مكانه ، وتم الامر على ما اشتهاه كتبغا ، فتلقب بالملك العادل ، وجلس على تخت الملك ، واتخذ حسام الدين لاجين نائبا عنه في السلطنة ، ثم بايعه الامراء واعيان الدولة[7] ، وعلى أثر ذلك أصدر أمره بالحجر على الناصر محمد ، فأدخل الى قاعة جوانية في القلعة ، ومنعه من الركوب او الظهور[8] وعامله بما لا يليق به ، وكان عمر الناصر اذ ذاك عشر سنوات .

ولم يستقر العادل زين الدين كتبغا على دست الحكم اكثر من تسعة شهور خلع بعدها عن العرش ، ففي شهر شوال سنة ٦٩٥ هـ (أغسطس (آب) ١٢٩٦ م) توجه الملك العادل زين الدين كتبغا الى الشام ، وبصحبته الامير حسام الدين لاجين المنصوري والعساكر وبعض الامراء فوصل دمشق في شهر ذي القعدة من هذا العام ، وبعد أن نظر في أحوال بلاد الشام وتفقد اعمال نياباتها ورتب أمورها ، خرج في المحرم سنة ٦٩٦ هـ (نوفمبر (تشرين ثاني) ١٢٩٦ م) من دمشق متوجها الى

---

(٧) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٣٣ ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٨١ « مخطوط » ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٣٣٩ ـ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٣٣ ـ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ١٩٣ ـ مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٤٢١ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٨٠٦ ـ العيني : السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، ص ٢١١ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٤٩ .

Lane Poole, AHistory of Egypt, P. 288.
Muir, The Mameluke, P. 48.

(٨) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٣٣ ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٨١ « مخطوط » ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٣٣٩ ـ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ١٩٣ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٨٠٧ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٥٠ .

الديار المصرية ولكنه ما كاد يصل الى نهر العوجاء بطلبه[9] وحاشيته ويخيم هناك ، ثم يسكن الى دهليزه ويتفرق عنه مماليكه حتى وثب عليه الامير حسام الدين لاجين ، وكان قد تآمر مع عدد من الامراء على قتله ، ولما لم يتمكن من الوصول اليه عمد الى اميرين من أخلص خلصاء العادل هما سيف الدين بتخاص وبكتوت الازرق العادلين فقتلهما ، ولما احس العادل بالفتنة ، اسرع بامتطاء صهوة جواده ، وعبر القنطرة التي على النهر ، ومعه بعض أعوانه • وقفل راجعا الى دمشق[10] • فاستولى الامير حسام الدين لاجين على دهليز السلطان وخزانته ، واتفق الامراء على مبايعته بالسلطنة في العوجاء ، وحلفوا له ، ولقب بالملك المنصور وما ان تم له ذلك حتى واصل سيره متجها الى الديار المصرية حيث استولى على القلعة دون مدافع ، أما كتبغا فقد أعلن خلع نفسه في دمشق امام القضاة والامراء ، ورضي بما قرره الملك المنصور لاجين بشأنه وكان قد خصص له قلعة صرخد[11] • فتوجه اليها وكانت هذه مكافأة لاجين لكتبغا بعد هذا الاحسان كله بأن دبر عليه حتى أخذ الملك منه وتسلطن عوضه[12] • ومنذ أن خلع كتبغا نفسه اجتمعت

---

(٩) نهر العوجاء : ويسمى نهر ابي فطرس ، ويقع شمالي مدينة الرملة من فلسطين يبعد عنها ١٢ ميلا ويجري من الشرق الى الغرب ويصب في البحر المتوسط جنوبي غابة ارسوف (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ص ٨١ ، ٨٢) ، الطلاب : جمع طلب وهو لفظ كردي معناه الامير الذي يقود مائتي فارس ، ثم تطور معنى اللفظ : صبح يطلق على الكتيبة من الجيش (المقريزي : السلوك ، ج ٣ حاشية رقم ١ ص ٣) •

(١٠) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٣٥ ــ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٨٩ « مخطوط » ــ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٤ ص ٣٥٦ ــ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٣٤٧ ــ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٤٠ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٨٢٥ ــ ٨٥٩ ــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٦٣ ــ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣٩٣ « مخطوط » •

(١١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٣٥ ــ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٩١ « مخطوط » ــ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ص ٣٤٨ ــ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٤٣ ــ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ص ٢٢٨ ، مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٤٤٥ ، المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٨٢٦ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٦٧ •

(١٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٤٨ •

الكلمة لحسام الدين لاجين بمصر والشام في اليوم الرابع والعشرين من صفر ٦٩٦ هـ(١٣) (١٢ ديسمبر (كانون أول) ١٢٩٦ م) ٠

كان الملك المنصور حسام الدين لاجين ما يزال يتوجس خوفا من المماليك الاشرفية وبعض الامراء المعارضين ولذلك رأى أن يتقرب منهم ويجزل العطاء اليهم ، وفي نفس الوقت كان لا يتردد في اعتقال من كان يمثل منهم خطرا عليه ٠ كذلك كان يخشى أن يجتمع الامراء والمماليك حول الملك الناصر محمد المعزول فيعيدونه الى السلطنة ولهذا قرر ابعاده عن القاهرة كي يطمئن فؤاده ٠ فاستدعى قاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف المالكي وصي الناصر محمد بن قلاوون ، وقال له : ان الناصر هو ابن استاذي ، وأنا مقام النائب عنه في السلطنة ، ولو أعرف أنه حري بأعباء السلطنة لاقمته وقمت بين يديه أخدمه ، وترجح عندي ارساله الى قلعة الكرك فيكون بها الى أن يشتد عضده ويكون من الله الخير(١٤) ٠ وذكر مبررا اقصائه عنه انه ما قصد ابعاده او نفيه وانما سعى لما فيه مصلحته ، وكان يقصد بذلك « تطييبا لقلب قاضي القضاة لا حقيقة »(١٥) ، فشكره قاضي القضاة ودعاله ، ثم أمر السلطان بتجهيز الناصر محمد وطلبه من الدور السلطانية وقال له : « لو علمت أنهم يخلوك سلطانا والله تركت الملك لك ، لكنهم لا يخلونه لك»(١٦) ، ثم ذكر له أنه أي حسام الدين مملوكه وسيقوم بحفظ الملك له حتى يشتد عوده ويترجل ، وشرط أن يعطيه دمشق ويكون فيها مثل صاحب حماه(١٧) ، ولم تجد والدة الملك

---

(١٣) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ١٠٤ « مخطوط » ـ الذهبي : تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام ، مجلد ٣٣ لوحة ١٢٠ « مخطوط » ٠

(١٤) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ٩٥ « مخطوط » ٠

(١٥) النويري : نهاية الارب ، ٢٩ لوحة ٩٥ « مخطوط » ٠ وانظر : ابن حبيب : درة الاسلاك في دولة الاتراك ، ج ١ لوحة ٦٠ « مخطوط » ٠

(١٦) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٨٣٢ ٠ وانظر أيضا : ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ص ٤٠٩ ـ صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ١٣٤ ـ العيني : عقد الجمان ، ٢١ ق ١ لوحة ١٣٧ « مخطوط » ٠

(١٧) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٤ ص ٣٥٧ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٨٣٣ ـ أبو المحاسن : المنهل الصافي ، ج ٣ لوحة ٢٤٤ « مخطوط » ٠

الناصر محمد بدا من الموافقة على الرحيل ما دام ذلك يبقي على حياة ابنها فخرج الناصر من القاهرة في أواخر عام ٦٩٧ هـ (منتصف ديسمبر (كانون أول) ١٢٩٧ م) ، ومعه بعض الامراء يقومون على خدمته . وكتب السلطان حسام الدين الى جمال الدين آقوش الاشرفي نائب الكرك باجراء ما يلزم لذلك . وأوصاه أن يلاحظه ويراقب تصرفاته ويعلمه بأخباره . فوصل الناصر محمد الى الكرك في الرابع من ربيع الاول ٦٩٧ هـ . وقوبل هناك بحفاوة بالغة ومد له نائبها سماطا عظيما ، ورتب من يقوم في خدمته والسهر على راحته ، وبذلك اتخذ الناصر محمد من الكرك مقاما وموطنا وملجأ أمينا(١٨) .

---

(١٨) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٣٣٣ « مخطوط » ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوخة ٩٥ « مخطوط » ، ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ج ١٢ لوحة ١٦٩ « مخطوط ـ النويري السكندري : الالمام بما جرت به الاحكام المقضية ، لوحة ١٧٤ أ « مخطوط » ـ مهجول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٤٥ ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٠٩ ـ ابن دقمان : الجوهر الثمين ، لوحة ١٣٨ « مخطوط » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٨٣٣ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢١ ق ١ لوحة ١٣٧ « مخطوط » ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٩٠ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٣٨٨ « مخطوط » .

(٢)

اعمال حسام الدين لاجين بالشوبك

لم يكن اهتمام السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين بمنطقة شرقي الاردن أقل من اهتمام من سبقه من سلاطين ، ويتمثل هذا الاهتمام بمواضع متعددة منها ، الا أنه خص قلعة الشوبك بعناية زائدة ، فقد رأى أن تخريب الاشرف خليل لقلعة الشوبك كان خطأ فاحشا ، لذا آثر أن يشملها برعايته ، فسير اليها العمال والبنائين والحجارين في سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ م) لاعادة بنائها ، وعهد بالنظر على أعمال البناء الى الامير علاء الدين قبرص المنصوري ، وتمت هذه الاعمال على يدي محمد بن عبد الحميد المهندس – ومن الغريب أن تتجاهل المصادر التاريخية هذه الاعمال الجليلة وتغفلها تماما ، ولكننا استقينا معلوماتنا هنا من مصادر أخرى لا يرقى الشك اليها ، تلك هي النقوش الخطية المسجلة على الابراج ، وفيها نطالع ما يشير الى أعمال لاجين بالقلعة ، فعند زيارتي للقلعة لاحظت أن الابراج التي أعيدبناؤها تقع في الجزء الشمالي والشمالي الشرقي من القلعة ، ومن هذه الابراج ما يتخذ شكل الصومعة المربعة ، ومنها ما كان يتخذ اشكال نصف اسطوانية ، وقد أمكنني أن أطالع على البرج المربع الواقع على يمين مدخل القلعة النص التالي بخط نسخي كبير :

« الله جل جلاله ، بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله محمد رسول الله ان الدين عند الله الاسلام ، أمر بانشاء هذه القلعة وتجديدها مولانا السلطان الاعظم الملك المنصور أبو الفتح لاجين خلد الله ملكه وأدام أيامه وذلك في سنة سبع وتسعين وستمائة وذلك في مباشرة الامير علاء الدين قبرص المنصوري رحمه الله (...) محمد بن عبد الحميد المهندس »[١٩] .

---

(١٩) وانظر النص كذلك في : Brunnow, Provincia Arabia, vol. 1, P. 119.

وهناك نقش كتابي آخر مسجل على جانب من جدار البرج نصف الإسطواني الواقع في الجهة الشمالية تجاه عين العنصر ، وتطالع فيه النص التالي :

« لا اله الا الله محمد رسول الله ان الدين عند الله الاسلام أمر بانشاء هذه القلعة وتجديدها مولانا السلطان الملك لمنصور العالم العادل المجاهد المؤيد المنصور حسام الدين والدنيا لاجين ۰۰۰۰ سعادته وأيد نصره وذلك سنة سبع وتسعين وستمائة »(٢٠) .

ونطالع نصا آخر منقوش في وجه أحد الابراج العادية بخط نسخي جميل :

« بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذه القلعة وتجديدها مولانا السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين وذلك في مباشرة الامير الكبير علاي الدين المنصوري قبرص سنة سبع وتسعين وستمائة »(٢١) .

كذلك سجل لقب السلطان على لوحة أخرى تذكارية مثبتة على واجهة أحد الابراج الركنية ونص الكتابة ما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذه القلعة وتجديدها السلطان الملك المنصور ۰۰۰۰۰ »(٢٢) .

---

(٢٠) انظر نص النقش كذلك في :
Brunnow, Provinoia Arabia, vol. 1, P. 119.

(٢١) وانظر أيضا :
Brunnow, op. cit. vol. 1, P. 118.

(٢٢) Brunnow, op. cit. vol. 1, P. 119.
وانظر نص هذه النقوش في دائرة الآثار الاردنية ـ قسم التسجيل ، عمان ـ والنصوص الموجودة لديهم اعتمدوا فيها على كتاب برونوف ، وليست عن طريق زيارة ميدانية للقلعة .

أما الكرك فقد ظلت تمارس عملها كخزانة لسلاطين المماليك ، بها يخزنون أموالهم لوقت الحاجة ، ففي سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٨ م) أرسل السلطان الامير سف الدين سلار الى الكرك ، وأمره باحضار ما فيها من الاموال[٢٣] لحاجته الماسة اليها · وعندما عاد اصطحب معه نائبها الامير جمال الدين آقوش الاشرفي ، فخلع عليه لاجين واكرمه واعاده الى نيابته في الكرك ·

(٢٣) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٨٣١ ·

(٣)

دور نيابة الكرك في اعادة الناصر محمد الى السلطنة

أساء حسام الدين لاجين معاملة الامراء وشتت شملهم ، وكم أفواه المعارضين منهم ، فقبض على البعض منهم وسجن كل من استوحش منه ، فاختفى بعضهم وفر آخرون الى بلاد التتار ، ومن بين هؤلاء الامير سيف الدين قبجق المنصوري نائب الشام[٢٤] . وهكذا اثار حسام الدين لاجين بسياسته الهوجاء سخط أمراء المماليك ، فنفرت منه قلوبهم » واجمعوا على عمل فتنة)[٢٥] . ففي الحادي عشر من ربيع الاخر ٦٩٨ هـ (٢٧ يناير (كانون ثاني) ١٢٩٩ م) ، وثب عليه بعض الامراء يتقدمهم الاميران سيف الدين كرجي مقدم المماليك السلطانية ، وسيف الدين طغجي بن عبد الله الاشرفي وقتلوه بينما كان يلعب الشطرنج مع بعض خواصه[٢٦] ، ثم قتلوا نائبه منكوتمر ، وحاول هذان الاميران الاستبداد بالامر طمعا في الاستيلاء على السلطنة ، ولكن الامراء الكبار لم يمكنوهما من ذلك وتم قتلهما في نفس الشهر ، عندئذ خلت السلطنة من سلطان يدير دفة الامور فيها ، وانقسم الامراء على أنفسهم ، ثم قرروا فيما بينهم سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون كي « تسكن الفتن بينهم »[٢٧] وتهدأ خواطر الناس بحضور ابن استاذهم وسلطانهم .

---

(٢٤) ابن الفوطي : التجارب النافعة ، ص ٤٩٩ ، ابن دقمان : الجوهر الثمين ، لوحة ١٤٢ « مخطوط » .

(٢٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٩٨ .

(٢٦) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٢٤٨ « مخطوط » ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٤١ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٣ ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤١١ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٨٥٩ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٠١ ، ١٠٣ .

(٢٧) العيني : عقد الجمان ، ج ٢١ ق ١ لوحة ١٧٥ « مخطوط » ـ وانظر أيضا : المقريزي : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ١٠٥ « مخطوط » ـ الذهبي : تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام ، مجلد ٣٣ لوحة ٢١٠ « مخطوط » .

أ ـ قدوم الناصر محمد من الكرك :

انتدب الامراء كلا من الاميرين : علم الدين سنجر الجاولي وسيف الدين الملك الجوكندار[٢٨] ، للتوجه الى الكرك واستدعاء الناصر محمد لتولي السلطنة وحمل هذان الاميران معهما كتبا من الامراء يجمعون فيها على استدعائه لاعتلاء عرش السلطنة ، كما كتبوا الى جمال الدين آقوش نائب الكرك كي يجهز السلطان للحضور الى عاصمة ملكه ، كذلك كتبوا الى والدة الملك الناصر محمد يعرفونها بما اتفقوا عليه ويطيبون خاطرها ، ولكنها أبدت امتناعها باديء ذي بدء خوفا من أن يكون في الامر خديعة قصد بها حسام الدين لاجين أن يتخلص من ولدها ، ولكن نائب الكرك والامراء الوافدين من مصر أبلغوها نبأ مصرع حسام الدين لاجين ، وان تلبية رغبة أمراء مصر جدير بالنظر ، وعرفوها أن امتناعها عن ارسال الناصر يترتب عليه نتائج سيئة « ويوقع فتنا وسفك دماء »[٢٩] • وكان الناصر محمد آنذاك بغور الكرك يتصيد مع بعض أتباعه[٣٠] ، فخرج الامراء اليه واطلعوه على جلية الامر ، ثم عادوا به الى الكرك ، وهناك شرع النائب في تجهيزه بما يليق بمقامه ، وسار بصحبته في اتجاه الديار المصرية •

وكان الامراء قد اتفقوا في القاهرة على تأليف قيادة جماعية من ثمانية أمراء يتحملون أعباء السلطة حتى وصول الناصر محمد من الكرك وهم[٣١] :

---

(٢٨) الجوكندار : لقب يطلق على الذي يحمل الجوكان مع السلطان في لعب الكرة • والجوكان هو المحجن الذي تضرب به الكرة ، ويعبر عنه بالصولجان (القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٥ ص ٤٥٨) •

(٢٩) العيني : عقد الجمان ، ٢١ ق ١ لوحة ١٧٦ « مخطوط » •

(٣٠) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ١٠٨ « مخطوط » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٨٧٢ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١١٥ •

(٣١) النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ١٠٦ ، ١٠٧ « مخطوط » مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٥٢ • مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٤٥٣ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٨٦٩ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢١ ق ١ لوحة ١٧٦ « مخطوط » ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٠٥ ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٤٠٧ « مخطوط » ـ Muir, The Mameluke, P. 51.

سيف الدين سلار وركن الدين بيبرس الجاشنكير(٣٢) ، وحسام الدين الرومي ، وعز الدين أيبك الخزندار(٣٣) ، وسيف الدين عبد الله السلحدار(٣٤) ، وسيف الدين كرت الحاجب(٣٥) ، وسيف الدين بكتمر أمير جاندار(٣٦) ، وجمال الدين آقوش الافرم • واتفقوا على أن « يبقى الامر شورى »(٣٧) بينهم ، لا ينفذ أمر الا بهم ، ولا يخرج مرسوم الا بخطهم جميعا ، وهي أول قياة جماعية تشكل في عصر دولة المماليك الذي تميز بحكم الفرد المتسلط والظاهر أنهم لجئوا الى هذا التنظيم المؤقت تجنبا لحركات الوثوب على السلطنة نتيجة أطماع شخصية ، واستمر هذا التنظيم القائم على القيادة الجماعية مدة واحد(٣٨) واربعين يوما ، حتى

---

(٣٢) الجاشنكير : وهو الذي يتذوق طعام وشراب السلطان قبل أن يقدم اليه خوفا من أن يدس احدهم السم اليه • ثم صارت من وظائف ارباب السيوف في الدولة لمملوكية ، وصاحبها من الامراء المقدمين (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ص ٢١ ، ج ٥ ص ٤٦٠) •

(٣٣) الخزندار : بكسر الخاء وفتح الزاي ، وهو لقب يطلق على الامير الذي يتولى خزانة السلطان أو الامير ، وتعني متولى الخزانة • وهي من الوظائف الكبيرة في دولة المماليك (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٥ ص ٤٦٢) •

(٣٤) السلحدار : أو السلاح دار ، وهو لقب يطلق على الذي يحمل سلاح السلطان أو الامير ، ويتولى امر السلاح خاناه وما يتبعها • وهي وظائف ارباب السيوف الكبيرة في الدولة (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٥ ص ٤٦٢) •

(٣٥) الحاجب : وهي وظيفة قديمة في الدولة الاسلامية وتطور مفهومها ، حتى صارت في عهد دولة المماليك تطلق على الامير الذي يقف بين يدي السلطان ونحوه في المواكب ، ليبلغ حاجات الرعية اليه ، ويتصدى أيضا لفصل المظالم بين المتخاصمين ولا يتولاها الا أمير كبير (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٥ ص ٤٤٩ ، ٤٥٠) •

(٣٦) أمير جاندار : وهو لقب يطلق على الذي يتسلم الباب ليستأذن على السلطان أو الامراء وغيرهم ، وفي أيام المواكب وعند الجلوس بدار العدل • وهو الذي يقدم البريد للسلطان اذا قدم مع الدوادار وكاتب السر • وهو الذي ينفذ القتل بالشخص الذي أراد السلطان قتله بذنب • وهي من وظائف أرباب السيوف (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٥ ص ٤٦١ ، والمقريزي : الخطط ، ج ٣ ص ٣٦٠) •

(٣٧) العيني : عقد الجمان ، ج ٢١ ق ١ لوحة ١٧٦ « مخطوط » ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٤٠٧ « مخطوط » ـ وانظر أيضا : النويري : نهاية الارب ، ج ٢٩ لوحة ١٠٦ « مخطوط » ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٨٦٥ ـ ٨٦٦ •

(٣٨) ابن دقماق : الجوهر الثمين ، لوحة ١٤٠ « مخطوط » ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢١ ق ١ لوحة ١٧٦ « مخطوط » السلامي : مختصر التواريخ ، لوحة ٣٦٩ « مخطوط » ـ ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٣٩ ـ بامخرمة : قلادة النحر في وفيات اعيان الدهر ، ج ٣ ق ٢ لوحة ١٠٧٠ « مخطوط » •

وصل الناصر محمد بن قلاوون الى قلعة الجبل في ١٩ جمادى الاولى سنة ٦٩٨ هـ (١٨ فبراير (شباط) ١٢٩٩ م) وفي هذا اليوم خرج سائر الامراء للقائه ، واستبشر الناس بقدومه « ولم يبق في ذلك اليوم أحد من الامراء والمقدمين والجند والعامة الا وقد خرج اليه ولاقاه »(٣٩) ، واستقر مرة ثانية في الملك ولم يكن يتجاوز من العمر وقتئذ أربع عشرة سنة ثم كتب اليه الخليفة تقليدا باستخراره بالملك(٤٠) ، وحلف له سائر الامراء وعليه خلعة الخلافة واتفق الامراء على أن يكون سيف الدين سلار نائبه للسلطنة ، والامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير استادار السلطان(٤١) .

ب ـ انتصار غازان خان في واقعة الخزندار وتوغله في الاردن :

ما كاد الناصر محمد يستقر في سلطنته الثانية حتى طرق على أبواب دولته خطر عظيم داهم ، واعني به التوسع التتاري في عصر الدولـــة الايلخانية ، فلقد استغل غازان ملك التتار الاحوال غير المستقرة في ديار المماليك ، والتنافس على السلطنة ، خاصة بعد أن لجأ اليه نفر من امراء المماليك هربا من بطش السلطان لاجين ، واخذوا يحرضونه على غزو بلاد الشام ، ومنهم سيف الدين قبجق المنصوري نائب دمشق . وكان من الطبيعي أن يغتنم غازان خان هذه الفرصة لتحقيق هدف طالما سعى اليه

---

(٣٩) العيني : عقد الجمان ، ج ٢١ ق ١ لوحة ١٧٦ « مخطوط » ـ وانظر : المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٨٧٢ .

(٤٠) انظر نص تقليد الخليفة باستقراره بالملك في الملاحق .

(٤١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٣٥٠ « مخطوط » ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٤٢ ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢٤٦ ـ ابن آيبك : كنز الدرر ج ٩ ص ٧ . ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤١٢ ـ مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٤٥٧ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٨٧٣ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢١ ق ١ لوحة ١٧٧ « مخطوط » ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١١٦ والمنهل الصافي ، ج ٣ لوحة ٢٤٤ « مخطوط »

Lane Poole, AHistory of Egypt, P. 288,

الاستدار : بكسر الهمزة ، وهو لقب الامير الذي يتولى قبض مال السلطان ، أو الامير وصرفه ، وانطاع اوامره فيه أي أنه يتولى أمر البيوت السلطانية كلها ، ويمشي بطلب السلطان في السرحات والاسفار ، وقد يطلق عليها « استادار » بضم الهمزة . وصارت من الوظائف الهامة في دولة المماليك وصاحبها أمير كبير (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٥ ص ٤٥٧ ـ المقريزي : الخطط ، ج ٣ ص ٣٦١) .

التتار عبثا ، وضمانا لانجاح مساعيه بعث وفوده الى البابا والى البلاطات الاوروبية يطلب منهم العون والمساعدة ، ومن بينها مائة الف حصان يستخدمها في حملاته المقبلة ضد المماليك بهدف معاقبتهم وفتح الشام ، الا أن طلباته قوبلت بفتور وقلة اهتمام(٤٢) . ولهذا اضطر الاعتماد على قواته الذاتية ، وشرع في مهاجمة دولة المماليك ، فاجتاحت قواته الاجزاء الشمالية من بلاد الشام ، واكتسحت ما كان يقابلها من عمران ، ونثرت الدمار والفناء في كل موقع وطئته — ولم يسع الناصر محمد بن قلاوون الا أن يخرج بقواته من مصر متوجها الى بلاد الشام ، حيث اشتبكت قواته مع قوات التتار بقيادة غازان خان في وادي الخزندار شرقي حمص وقرب سلمية(٤٣) . واحتدمت المعركة بين الطرفين في ٢٧ ربيع أول ٦٩٩ هـ (٢٣ ديسمبر (كانون أول) ١٢٩٩ م) ، وتمكنت قوات التتار من تمزيق قوات المماليك بسبب تدبير كل من الاميرين سلار والجاشنكير ، اللذين لم يستوفيا اعداد قواتهما على نحو يتلاءم مع خطورة المعركة(٤٤) — بالاضافة الى روح التنافس والمشاحنة والتصارع على السلطة ، وكان طبيعيا أن تنتهي المعركة بسبب ذلك بهزيمة المماليك مع الاخذ بعين الاعتبار أن قوات التتار كانت تتجاوز قوات المماليك ، فبينما كانت قوة المماليك لا تزيد على عشرين الفا ، بلغت عدة التتار مائة الف(٤٥) ، واضطر الناصر محمد الى الانسحاب جنوبا الى بعلبك ومنها الى الديار المصرية تتبعه فلول قواته « قوم بعد قوم وطائفة بعد أخرى واكثر الجند عراة حفاة »(٤٦) ، أما محمود غازان فقد تقدم بقواته الى دمشق ، ولم يجد أقل

---

(٤٢) Muir, The Mameluke, P. 69.
Newton,Trade and Travellers in the middle ages, PP. 138 - 139.

(٤٣) الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ص ٢٠٢ — ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٦ — مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٥٨ — مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٤٧٠ ابن دقمان : الجوهر الثمين ، لوحة ١٤١ « مخطوط » — أبو المحاسن : المنهل الصافي ، ج ٣ لوحة ٢٤٤ « مخطوط » .
Muir, op. cit. P. 54.
Quatrs mere. Histoire des Sultans Mamlouke, vol. 2, P. 176.

(٤٤) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٤٤ .

(٤٥) أبو المحاسن : المنهل الصافي ، ج ٣ لوحة ٢٤٤ « مخطوط » .

(٤٦) مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٥٠٧ .

دمشق بدا من ارسال وفد من علمائهم لطلب الامان ، يتألف من كبار القضاةوالائمة ، يتقدمهم الامام ابن تيمية خرج هذا الوفد لظاهر دمشق وطلبو منه الامان · فكتبه لهم ، وقرىء الامان في الجامع الاموي ، وخطب لغازان على منابر دمشق في ٧ ربيع الاخر من السنة ، ثم دخلت قوات التتار دمشق ، ولكنهم لم يراعوا حرمة العهد والامان ، فعاثوا فسادا في دمشق وضواحيها ، وأذرعوا في أهلها سبيا وقتلا ونهبا ، ثم واصلت قواتهم تقدمها الى الجنوب من دمشق ، فاجتاحت الاجزاء الشمالية من منطقة شرقي الاردن عجلون والبلقاء ووصلت طلائعهم الى بلاد الكرك(٤٧) ، ثم تقدمت الى القدس ونواحيها ، ومضى التتار في زحفهم ينهبون ويأسرون ويقتلون ، ولم يكتف غازان بذلك بل جرد عشرين الفا من قواته الى منطقة أغوار الاردن(٤٨) ، فنهبوا ودمروا وجمعوا الانوال الكثيرة وقد عانلأ أهالي الاغوار منهم كثيرا ، ولما تم للتتار ذلك قفلوا عائدين الى دمشق ، وكان غازان قد كافأ الامير سيف الدين قبجق على خيانته للمماليك واشتراكه معه في الغزو بتقليده نيابة دمشق ، وجاء في التقليد « فلذلك رسمنا ان نفوض اليه نيابة السلطنة الشريفة بالممالك الدمشقية والبعلبكية والحمصية والساحلية والحلبية والعجلونية والرحبية من العريش الى سلمية نيابة تامة عامة كاملة شاملة(٤٩) ، ومن الجدير بالذكر ان التتار يروا تعسفهم مع أهل دمشق بأنهم حفدة بني أمية الذين قتلوا الحسين بن علي في كربلاء(٥٠) وقد بلغ مجموع ما استخلصوه من أهلها ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف

---

(٤٧) أبو الفداء المختصر ، ج ٤ ص ٤٤ — المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٨٩٠ — محمد جمال سرور : دولة بني قلاوون في مصر ، ص ١٨١ ، سعيد عاشور : العصر المماليكي ، ص ٥٠ ·

(٤٨) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ١٢ — مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٥٠٣ — المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٨٩٤ ·

(٤٩) مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٤٨٧ ·

(٥٠) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ص ٣٦ · كانت قوات غازان مسلمة ، ومع ذلك تعرضت دمشق للعقاب بسبب هذا المعتقد وسوق تتعرض دمشق لعقاب آخر من قبل تيمورلنك بسبب هذا المعتقد في عصر دولة المماليك الثانية ، اذ اعتبرهم ورثة الامويين القدماء وعليهم أن يكفروا عن استشهاد الحسين (انظر : ارمينوس فامبري : تاريخ بخاري ، ص ٢٤١) ·

درهم[٥١] ، ومات تحت التعذيب نحو الثلاثمائة شخص أكثرهم بسبب المال ، واحترق من المؤلفات والكتب النفيسة في دمشق أعدادا هائلة خسرتها الحضارة الانسانية[٥٢] • وبعد أن رتب غازان أمور الشام ترك في دمشق نائبه قطلوشاه ثم رجع الى بلاده •

أما الناصر محمد فما كاد يصل الى مصر حتى بدأ يتأهب لمقابلة التتار من جديد فأخذ يعد عدته ويتجهز للمعركة الحاسمة وفي أثناء ذلك وردت الاخبار برحيل غازان عن الشام ، فسر الناصر بذلك ، وكان الامير قبجق بعد رحيل غازان عن دمشق قد اعتراه الخوف من قدوم الناصر محمد اليه خاصة بعد أن بلغته الانباء باستعداداته فلم يتردد قبجق في اعلان ولائه للناصر محمد وأعاد الخطبة باسمه في ١٧ رجب بعد أن قطعت مائة يوم[٥٣] ثم غادر دمشق مع بعض العساكر متوجها الى مصر معلنا الطاعة والولاء ، فلقيهم الناصر محمد بالصالحية[٥٤] في العاشر من شعبان ، وبالغ في اكرامهم ، وصفح عنهم وخلع عليهم ، واتابعت قوات مصر بقيادة الاميرين سلار وبيبرس سيرها الى دمشق ، ولما تم لها اقرار الاوضاع في بلاد الشام عادت هذه القوة الى مصر في شوال من هذه السنة[٥٥] ، اما الامير سيف الدين قبجق فقـــد طلب من السلطان أن ينعم عليه باقطاع

---

(٥١) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ص ٣٣ ــ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ص ٢٠٤ ــ مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٤٩٨ ــ أبو المحاسن : المنهل الصافي ، ج ٣ لوحة ٢٤٥ « مخطوط » •

(٥٢) ابن قاضي شهبه : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ٢ لوحة ٢٣٩ « مخطوط » •

(٥٣) أبن أيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ص ٣٧ ــ أبن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ١٢ ، مفضل بن ابي الفضائل : النهج السديد ، ج ٢ ص ٥٠٦ ــ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٩٠٠ ــ أبو المحاسن : المنهل الصافي ، ج ٣ لوحة ٢٤٥ « مخطوط » •

(٥٤) الصالحية : قرية مصرية تقع في آخر معمور الديار المصرية من جهة الشام • انشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٤هـ (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٤ ص ٣٧٧ ــ والمقريزي : الخطط ، ج ١ ص ٣٦٧) •

(٥٥) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٩٠٢ ــ أبو المحاسن : المنهل الصافي ، ج ٣ ص ٢٤٥ « مخطوط » •

الشوبك[٥٦] ، فاجيب الى طلبه وأعطيت له بأعمالها وبعد أن رتب أموره غادر القاهرة الى اقطاعه الجديد ٠

ج ـ موقعة شقحب :

لم يتخل التتار عن مطامعهم في بلاد الشام ومصر ، وظلوا يتحينون الفرص لتوجيه حملاتهم على الشام والانطلاق منها الى مصر للسيطـرة عليها[٥٧] ، وكانوا يشكلون على هذا النحو تهديدا مباشرا على الحدود الشمالية لدولة المماليك ٠ ففي سنة ٧٠٠ هـ (١٣٠٠ م) شاعت بين اهالي الشام الإنباء بأن التتار في طريقهم اليهم ، وانزعجوا لذلك لكثرة ما لاقوه على أيدي قوات غازان سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩ م) من قتل ونهب ، وطاشت عقولهم والبابهم ، وشرع كثير منهم في الهرب الى بلاد مصر والكرك والشوبك وعجلون وصرخد والحصون المنيعة[٥٨] ، ووقع الجفل في البلاد الشامية ، فغلت أثمان الدواب الى حد أن الحمار بيع بخمسمائة درهم والجمل بألف ولما رأت السلطات المملوكية ما تسببه الروع من خروج الاهالي من بلادهم ، صدرت الاوامر ببقاء الاهالي في مناطقهم ، وعدم السماح لهم بالانتقال ، والاستعداد للجهاد والذب عن البلاد ـ وأصدر السلطان أمره بحشد الرجال من المدن والقرى في البلاد الشامية للاشتراك في القتال[٥٩] ، وخرج الشيخ ابن تيمية من دمشق الى القاهرة يستحث السلطان وأمراء المماليك على المبادرة بانجاد الشام من الخطر المرتقب[٦٠] ولكن سرعان ما وردت الاخبار بانسحاب قوات التتار من الشام وعودتهم

---

(٥٦) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٣٩٣ « مخطوط » ـ أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٤٨ ـ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ص ٢٠٤ ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢٤٩ ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤١٥ ـ المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٩٠٢ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢١ ق ٢ لوحة ٢٢٢ « مخطوط » ٠

(٥٧) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ١٤ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٣١ ٠

(٥٨) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ص ٤٥ ـ ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ : ج ١٢ لوحة ٢٠٦ « مخطوط » ٠ ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٤ ص ١٤ ٠

(٥٩) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ص ٤٠ ٠

(٦٠) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ١٦ ٠

الى بلادهم ، لقلة قواتهم ، وفناء معظمها بسبب الامطار الغزيرة والثلوج الكثيرة التي تعرضت لها البلاد توطئة الى فرصة اخرى مناسبة ، فطمأن الناس وهدأت القلوب ·

ولكن الاهالي لم ينعموا طويلا بهذا الهدوء والاطمئنان ، فقد وافتهم الاخبار بقدوم محمود غازان اليهم من جديد بقيادة نائبه قطلوشاه · وكان المؤرخ أبو الفداء قد خرج ببعض القوات يرقب حركة العدو ، فصادفهم بالقرب من حماة ، فعاد ليخبر عن احوالهم وقوتهم[٦١] · وعلى أثر ذلك عزم السلطان الناصر محمد بن قلاوون على التحرك ، وقد استقر عزمه هذه المرة على الانتقام من هزيمة الخزندار ، وحدث الاشتباك بين التتار والمماليك في شقحب بطرف مرج الصفر خارج دمشق في الثاني من رمضان سنة ٧٠٢هـ (٢٠ ابريل (نيسان) ١٣٠٣م) ، وامتدت ساحة القتال الى شقحب وغباغب والصنمين[٦٢] · وحملت قوات المماليك عليهم حملة شديدة مزقت شملهم واوقعت بهم هزيمة نكراء[٦٣] ، أعادت الى الاذهان انتصار عين جالوت · وطاردت قوات المماليك فلول التتار المنهزمة حتى نهر الفرات وفتكت بهم ، ووقع في أسرهم عدد كبير ، في حين غرق العدد الاعظم منهم · ثم دخل السلطان الناصر محمد بن قلاوون دمشق في اعقاب هذا الانتصار في موكب حافل يحف به الخليفة والامراء فزينت البلد أجمل زينة احتفالا بمقدمه وابتهاجا بانتصاره ، وفي ذلك يقول جمال الدين أبو بكر قاضي عجلون :

الله أكبر جاء النصر والظفر   والحمد لله هذا كنت أنتظر
حتى اذا عب مثل البحر جحفلنا   ومد فيضا على أعدائنا وجزروا

---

(٦١) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٥٠ ·

(٦٢) ويقول العيني : « قلت هذه اسماء قرى هناك ، وهي اراضي وعرة ذات احجار سود (عقد الجمان ، ج ٢١ ق ٢ لوحة ٢٨٢ « مخطوط ») ·

(٦٣) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٥١ ـ ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ص ٨٣ ـ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ص ٢٠٩ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢٥ ـ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٨٣ ـ ابن دقماق : الجوهر الثمين لوحة ١٤٢ « مخطوط » العيني : عقد الجمان ، ج ٢١ ق ٢ لوحة ٢٨٣ « مخطوط » ـ أبو المحاسن : المنهل الصافي ، ج ٣ لوحة ٢٤٦ « مخطوط » ·

أصلوهم جاحما يشوي الوجوه وقد حمى الوطيس ونار الحرب تستعر

وأحرقتهم سراعا كل صاعقة من السيوف بنيران لها شرر

لاذو بشم شماريخ الجبال فما حمتهم قلل منها ولا صور

ومزقوا شردا بين الزحام فكم شلو تنازع فيه الذئب والنمر

أين المفر وقد حام الحمام بهم هيهات لا ملجأ يرجى ولا وزر(٦٤)

وقد ابدى الناصر محمد تقديره العظيم لأهل الشام الذين ضربوا المثل الاعلى للتضحية والفداء في هذه المعركة فأمر بمكافأتهم كما أعفاهم من البواقي المترتبة عليهم لخزينة الدولة وجملتها « ألف ألف وسبعمائة ألف وستة واربعون الفا ومائة الف وخمسة واربعون درهما ، ومن الغلال المنوعة تسعة آلاف واربعمائة واثنان واربعون غرارة ومن الحبوب مائتان وثمان وعشرون غرارة ، ومن الغنم خمسمائة رأس ، ومن الفولاذ ستمائة وثمانية أرطال ، ومن الزيت الفان وثلاثمائة رطل ، ومن حب الرمان الف وستمائة رطل(٦٥) واقام الناصر محمد مدة في دمشق ، ثم عاد الى الديار المصرية في الثالث من شوال من هذه السنة .

(٦٤) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ص ٩٣ . والقصيدة ١١٥ بيتا .
(٦٥) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٣ ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٤)

خلع الناصر محمد للمرة الثانية

أ ـ التجاء الناصر محمد الى الكرك :

استبد الاميران سيف الدين سلار وركن الدين بيبرس الجاشنكير بأمور الدولة ، وحجرا على السلطان الناصر محمد ، ومنعاه من التصرف في الامور فلم يعد يملك من السلطنة سوى الاسم[٦٦] • ولقد عانى السلطان من استبدادهما وتحكمهما في أمره وتبرم من القيود التي فرضت عليه حتى ما يتعلق بشئونه المالية • وحدث أن كلمهما بضرورة التنبيه على جمال الدين الافرم نائب دمشق بأن يحسن معاملة أهلها • ويخفف عنهم بعد اساءته اليهم ، وكان أهلها قد كتبوا الى السلطان يشكون اليه من سوء سيرته • فكانا يعد انه بالكتابة الى الافرم ولا ينفذان ما يعد انه به بحكم ارتباطهما بالافرم[٦٧] • وكان الناصر محمد مغرما بالخيل ، فحدث ان اشترى حصانا من سليمان بن مهنا أمير العرب بمبلغ كبير ، ولكن سلار وبيبرس استرداه من الامير • ولما علم السلطان بذلك قال : « اذا كنت اعطي شيئا ثم يسترد منه والله ما ارضى لنفسي بهذا ولاغنى لي أن اعمل شيئا يعجز عنه فحول الرجال ويتحدثون به من بعدي »[٦٨] • ولم يكن الناصر من الضعف بحيث يبيح لشرذمة من الامراء المماليك باهدار سلطانه وانما كان

(٦٦) المقريزي : السلوك ، ج ١ ص ٨٧٩ ، ج ٢ ص ٣٣ • وانظر أيضا : أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٥٧ ـ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٤ ص ٣٦٥ ـ ابن حبيب : درة الاسلاك في دولة الاتراك ، ج ١ لوحة ٨٩ « مخطوط » ـ العيني : السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، ص ٢١١ • ويقول ابن دقمان عن سبب خروجه الى الكرك : « استيلاء بيبرس وسلار على المملكة والاخذ على يد الملك الناصر بحيث لم يبق له معهما تصرف ولا حل ولا عقد » (انظر : الجوهر الثمين ، لوحة ١٤٤ « مخطوط ») ، أما أبو المحاسن فيقول : « والملك الناصر محمد معهما آلة في السلطنة الى أن ضجر منها » (انظر : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٢٣٢ ـ والمنهل الصافي ، ج ١ ص ٣٦٧ « مخطوط ») • ويقول ابن أياس : « كان مع سلار النائب وبيبرس الجاشنكير كالمحجور عليه لا يتصرف في شيء من أمور المملكة الا باختيارهما » (انظر : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٤٩) •

(٦٧) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٣٧ « مخطوط » •

(٦٨) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٣٨ « مخطوط » •

شخصية قديرة يتمتع بدهاء كبير وعقل راجح وشجاعة نادرة ، ولهذا آثر التروى والعمل في هدوء ، فكتم ما بنفسه وأخفاه ، ثم استقدم اليه الاميرين سلار وبيبرس بعد أيام وخاطبهما بأنه يرغب في زيارة بلاد الشام للوقوف على احوالها ، وقضاء الصيف فيها ، ولكنهما اعتذرا متعللين بقلة المال(٦٩) فاتخذ من ذلك الاعتذار ذريعة للتخلص من استبدادهما بأمور البلاد فاستقدم اليه الامير بكتمر الجوكندار أمير جاندار وأمره بالقبض عليهما عندما يدخلان اليه ، فاذا ما اعترضا على الدخول اليه ، قتلهما ثم انه رتب مماليكه في الابواب والدهاليز لتنفيذ هذه المهمة ، الا أن بكتمر افضى الى سلار وبيبرس بما عزم عليه السلطان • عندئذ ثار الاميران على السلطان وحاصرا القلعة وقتل عدد من الطرفين ، واستمر الوضع على هذا الحال الى أن تدخل الفقهاء والقضاة ، واصلحوا بين الجميع ، ووافقهم السلطان على اخراج بعض مماليكه الى الشام ، ومن بينهم بكتمر الجوكندار « لانه رأى من نفسه عجزا وتقصيرا في دفع هذا الشر »(٧٠) • واقسم السلطان ان لا يسمع فيه كلام واحد من الناس ، ولكن نار الغيظ كانت تحرق صدره لانكشاف خطته •

ولما تبين له أن منطق القوة لم يفده في تحقيق مآربه ، لجأ الى اصطناع السياسة الهادئة والحيلة والدهاء ، فبدأ يعمل على كسب ثقة سلار وبيبرس وابعاد شكوكهما عنه ، فكان لا يمضي وقت قصير حتى يخلع على كل منهما ايهاما منه بانه « وطن نفسه على كل ما يريدانه »(٧١) ، ولما اطمأن الى ان شكوكهما في نواياه بدأت تتلاشى وتزول ، رأى أن وجوده في مصر لن يحل له المشكلة ، وان عليه ان يبحث عن موضع يتخذ منه قاعدة لاسترجاع سلطانه ، فلم يجد انسب من الكرك • ففي

---

(٦٩) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٣٩ « مخطوط » •

(٧٠) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٨٧ « مخطوط » • وانظر أيضا : ابن حبيب : درة الاسلاك في دولة الاتراك ، ج ١ لوحة ٨٧ « مخطوط » ـ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٣٣ ، ٣٥ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٧٣ •

(٧١) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٤٣ « مخطوط » •

هذا الموضوع عاش فترة من عمره ، وفيه ارتبط بسكانه واهله ، وعرف فيهم المثل الاعلى للحب والاخلاص والوفاء . فهم الذين وقفوا الى جانب أميرهم الملك المغيث عمر ضد الظاهر بيبرس ، وهم الذين نصروا ابناء بيبرس في حركتهم ضد أبيه قلاوون . وبهذه النية افضى الى سلار وبيبرس برغبته في أداء فريضة الحج لهذا العام (رجب سنة ٧٠٨هـ (ديسمبر (كانون اول) ١٣٠٨م) مع ولده وحرمه وجميع ذويه[٧٢] ، ثم شرع في اعداد العدة وتعيين من يسافر في الصحبة . ولكن سلار وبيبرس توجسا من هذه الحركة ، فاتفقا على عقد اجتماع يحضره كبار أمراء المماليك بدار النيابة . فلما انعقد الاجتماع في شهر رمضان عرضا على الحاضرين ، وأظهرا مخاوفهما من التجاء السلطان بالكرك والاقامة هناك ، وطلبا منهم المشورة والرأي . فلم يجد بيبرس الدوادار وكان في جملة الحاضرين غضاضة في اقامته بالكرك ، حتى ولو اتخذها مقرا لحكمه وقال لهم : وما يضيره لو اقام في الكرك ، فالرسول قد اتخذ من يثرب مقاما ، وهي من أصغر المدن الحجازية ، وتبعه خلفاؤه من بعده ، وعمالهم في العراق وخراسان ومصر والمغرب والشام ، وبعوثهم في فتح البلاد سائرة ، والكل طائع لهم ، ولم يتغير شيء في الدولة لصغر موضع الاقامة « فلو فرضنا اقامة السلطان بالكرك في مملكته ، وانتما وساير نوابه مستمرون على طاعته وامساك اشارته واستمرار خطبته لجاز ذلك والنظام مستمر والحال مستقر »[٧٣] . وانقسم الحاضرون بين مؤيد ومعارض ، الا ان اكثرهم خالفوا أو صمتوا انتظارا لما تسفر عنه الاحداث المقبلة أما بيبرس وسلار فقد اعدا خطة قررا تنفيذها اذا ما استقر السلطان بالكرك . ويذكر العيني انه لما حان موعد خروج السلطان طلبا منه ان يترك لهما درجا ابيض مسجل عليه علامته ، حتى اذا ما وقع

---

(٧٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٤٦٨ « مخطوط » ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٣٠ لوحة ٥٢ « مخطوط » ـ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ١٣٦ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٤٥ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٥٢ « مخطوط » .

(٧٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٤٤٦ « مخطوط » ـ وانظر أيضا : العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٣٦ « مخطوط » .

امر يستدعي اصدار قرار اثناء غيابه أمكنهما أن يصدراه على هذا الدرج الموقع عليه بالعلامة السلطانية ، فاستجاب الناصر محمد لطلبهما فوقع علامته على درج أبيض سلمه اليهما(٧٤) قبل خروجه ومبالغة منهما في تتبع نوايا الناصر اتفق سلار مع بعض الامراء الذين خرجوا في صحبة السلطان أن يرسلوا اليهما بالنجاب بيانات تتضمن كل ما يفعله السلطان ساعة بساعة ويوما بيوم ٠

ثم رحل السلطان في ٢٥ رمضان ، ومعه خمسمائة مملوك مظهرا التوجه الى الحج ، فلما قطع مسافة من الطريق طلب من الامراء ان يتركوا الركب يسير الى العقبة مع حريمه وبنيه ، ويمضي هو والامراء الى الكرك للترويح عن النفس والصيد ، على ان يتلاقوا مع الركب في العقبة ، فوافقه الامراء على ذلك ٠ وفي الحال ارسل عيون بيبرس وسلار نجابا الى مصر يعرفونهما بانحراف السلطان عن طريقه الى الكرك فاجتمع الامراء في الحال وتشاوروا في الامر وقال سلار : « أخاف أن يطلع الى الكرك ولا يعود بعد هذا ثم انه بعد الشام فيحتاج الى صراع عظيم »(٧٥) ٠ فاتفق رأيهم على ارسال رسالة الى جمال الدين آقوش الاشرفي نائب الكرك يطلبون فيها منه الا يمكن السلطان من الطلوع الى القلعة ، ولكنهم يأمروه مع ذلك بان يقدم له كل ما يطلبه ٠ وعلم سلار وبيبرس على الكتاب وارسلوه مع علاء الدين الطنبغا(٧٦) أحد المماليك الذين كان يعتمد عليهم سلار في المهمات الخاصة ، وأعطوه خمسمائة دينار ، وطلبوا منه التوجه سريعا الى الكرك واوصوه في حالة اذا ما صادف السلطان في الطريق أن يبتعد عنه ولا يفصح له عن مهمته ، ووعدوه بامرة ومكافأة جزيلة بعد عودته ٠ وكان الطنبغا من الامراء الذين يخلصون للسلطان فشك في الامر ولكنه لم يفض بهذه الشكوك ومضى في طريقه ، وهو ينوي الاتصال بالسلطان وابلاغه مضمون الرسالة ، فلما شاهد وطاق

---

(٧٤) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٤٦ ولوحة ٥٧ « مخطوط » ٠

(٧٥) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٤٧ « مخطوط » ٠

(٧٦) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٤٧ « مخطوط » ، وانظر : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٧٩ ٠

السلطان في البرية ، أقبل اليه واجتمع الى آرغون بن عبد الله الدوادار واعلمه بمهمته ، فأدخله الى السلطان واطلعه على الرسالة ، فأطرق السلطان ساعة ثم امر ارغون بان يكتب كتابا يماثله الى نائب الكرك يأمره فيه على لسان بيبرس وسلار بانه : « ساعة وقوفك على هـذا الكتاب انزل ولاقي السلطان ، ثم أطلعه الى القلعة وقف في خدمته بكل ممكن وكلما يطلبه احضره بين يديه »(٧٧) ، ثم علم عليه بعلامة بيبرس وسلار واعطاه للطنبغا بعد أن أنعم عليه بألف دينار ، وطلب منه ان يعود الى بيته بعد تبليغه للرسالة ووعده وعودا مغرية ان مكنه الله من الملك وتخلص من مشكلته(٧٨) . فتوجه الطنبغا الى الكرك وسلم الرسالة الى نائب السلطنة فيها ، ولما قرأها النائب قال : السمع والطاعة وأمر باخراج الاقامات والعلوفات للسلطان ، وأخلى القلعة وفرش دار السلطان واستعد لاستقباله .

ب ـ قضية تنازله عن الملك :

بادر الناصر محمد بالسير سريعا الى الكرك خشية ان يسبقه اليها رسول آخر من قبل سلار وبيبرس . فوصلها في العاشر من شوال ٧٠٨هـ (٢٢ مارس (آذار) ١٣٠٩م) وزينت لمقدمه المدينة والقلعة . ولما صعد السلطان الى القلعة مر على الجسر الخشبي المنصوب على الخندق بباب القلعة وقد ازدحم حوله مماليك الخاصكية وارباب الوظائف على الجسر فضعف عن حملهم لقدمه وتآكل خشبه ، فانقطعت سلسلته وتكسرت أخشابه ، في الوقت الذي صارت رجلا فرس السلطان الاماميتان داخل باب القلعة ورجلاه الخلفيتان على الجسر فوثب الفرس به داخل القلعة على أثر صيحة اطلقها السلطان ليستحثه على الوثوب وانكسر الجسر بمن عليه من الخاصكية ، وكانوا خمسين شخصا وقيل مائة شخص سقطوا الى اسفل الخندق على عمق خمسين ذراعا ، فمات منهم اثنان

(٧٧) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٤٨ « مخطوط » .
(٧٨) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٤٩ « مخطوط » .

وقيل أربعة وقيل سبعة ، وتهشم بعضهم وسلم الباقون[79] . احتفل نائب الكرك بسلامة وصول الناصر احتفالا رائعا ، ومد له سماطا انفق عليه اربعة عشر ألف درهم[80] . ثم ان الناصر لم يلبث ان وضع يده على ما وجده في خزانة الكرك من الاموال وقدرها سبعة وعشرون الف دينار عينا وألف درهم وسبعمائة ألف درهم[81] ، بالاضافة الى مبلغ كان قد قدمه اليه نائب الكرك وقدره مائتا ألف درهم[82] . ولما تم له ذلك استقدم النائب وخلع عليه ثم أمره بالتوجه الى مصر فشكر النائب السلطان وقدم له من مغله شيئا كثيرا كان يدخرها بالكرك فقبلها منه ثم أمر السلطان مملوكه أرغون بن عبد الله الدوادار بالتوجه الى العقبة في مائتي مملوك لاحضار حريمه واولاده ومن كان يحرسهم من الامراء الى الكرك . فلما قدموا ، أدخل افراد أسرته القلعة في حين طلب من الامراء

---

(79) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٥٦ ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٣٠ لوحة ٤٨ « مخطوط » ـ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ص ٢١٣ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ ق ٣ لوحة ٦٧٩ « مخطوط » ـ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٤ ص ٣٦٥ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٤٧ ـ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٤٤ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٧٧ والمنهل الصافي ، ج ٣ لوحة ٢٤٧ « مخطوط » .

(80) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٤٧ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٥٠ « مخطوط » ـ أبو المحاسن : المنهل الصافي ، ج ٣ لوحة ٢٤٧ « مخطوط » ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٤٥٨ « مخطوط » .

(81) النويري : نهاية الارب ، ج ٣٠ لوحة ٥٢ « مخطوط » العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٥٢ « مخطوط » ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٧٩ ـ أما المقريزي فيقول أن الدراهم كانت سبعمائة ألف درهم فقط (السلوك ، ج ٢ ص ٤٤) ، بينما يذكر ابن بهادر أنها ثلاثون ألف دينار عينا وألف وسبعمائة ألف درهم (فتوح النصر ، لوحة ٤٥٩ « مخطوط ») .

(82) النويري : نهاية الارب ، ج ٣٠ لوحة ٤٨ « مخطوط » ـ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٥٣ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٧٣ « مخطوط » ـ أبو المحاسن : المنهل الصافي ، ج ١ لوحة ٣٦٨ « مخطوط » ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٤٦١ « مخطوط » .

العودة الى مصر ، واعاد معهم خمسمائة هجين من الهجن التي استصحبها معه(٨٣) .

كانت دهشة سلار وبيبرس بقدوم نائب الكرك الى القاهرة بالغة ، فلما حققا معه تبين لهما خيانة الطنبغا لهما ، ولم تمض ايام حتى قدم الامراء الذين كانوا بصحبة الناصر في الكرك يحملون رسالة الى امراء المماليك في مصر جاء فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، حرس الله تعالى نعمة الجنابين العاليين الكبيرين الغازيين المجاهدين ، وفقهم الله تعالى توفيق العارفين ، أما بعد ، فقد طلعت الى قلعة الكرك وهي من بعض قلاعي وملكي ، وقد عولت الاقامة بها فان كنتم مماليكي ومماليك ابي فاطيعوا نايبي ولا تخالفوه في أمر من الامور ، ولا تعملوا شيئا حتى تشاوروني فانا ما اريد لكم الا الخير ، وما طلعت الى هذا المكان الا لانه أروح لي وأقل كلفة وان كنتم ما تسمعون مني فأنا متوكل عـــلى الله والسلام »(٨٤) .

ويتضح لنا من هذه الرسالة ان الناصر اتخذ الكرك مقرا له وانه طلب من الامراء أن يستشيروه في أمور الدولة ولكنه لم يتطرق قط الى تنازله عن الملك . وهذه النقطة بالذات أثارت خلافا بين المؤرخين ، هل تنازل عن السلطنة أم عزله الامراء كما هي عادتهم مع كل سلطان ؟ . بادر الاميران سلار وبيبرس بالاتفاق مع بقية الامراء على الاطاحة بالناصر محمد قبل أن يطيح هو بهم ، فأعلنوا رفضهم لاقامته في الكرك ، وأجمعوا على عزله . وابعادا للشبهات عنهم أعلنوا أنه تنازل عن الملك ، وجاؤوا بالدرج الذي اخذوا عليه علامة السلطان قبل سفره ، ولفقوا على لسانه كتابا موجها الا الامراء بمصر يتضمن تنازله عـــن السلطنـــة بمحض

---

(٨٣) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٤٤ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ : ١ لوحة ٥٢ « مخطوط » ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٧٩ ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٤٥٨ « مخطوط » .

(٨٤) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٥٣ ، ٥٤ « مخطوط » . وانظر النص في : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٨٠ . ويقول ابن الوردي : واعلم الامراء أنه جعل الحجاز وسيلة الى المقام بالكرك (انظر : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢٥٥) .

اختياره ، ورغبته في تنصيب سلطان آخر عليهم[٨٥] . وأرغموا القاضي علاء الدين بن الاثير وكان بصحبة الناصر في الكرك على كتابته بخطه . ثم عقدوا مجلسا واحضروا القضاة الاربعة وقرءوا الكتاب المزعوم . فأنكر القاضي بدر الدين محمد بن ابراهيم بن جماعة[٨٦] في صحة هذا الكتاب ، وصرح بضرورة الاستناد الى شهادة شهود على تنازل السلطان عن الملك اختيارا لا اضطرارا . فاستقدموا القاضي علاء الدين بن الاثير كاتب الرسالة ، فقدم بحراسة اميرين « وهو يرعد شبه القصبة لما فعلا به من النكال والتهديد »[٨٧] . فسأله ابن جماعة اذا ما كان الناصر محمد قد تنازل عن ملكه اختيارا ، فأجابه بالنفي ، فنخسه المماليك بالسيوف سرا حتى تأوه وكاد يغمى عليه ، ومع ذلك فقد اصر على موقفه أمام قاضي القضاة ، وأقر بأن الامير أيدمر الدوادار أخرج اليـــه هذه المسودة وأرغمه على كتابتها بخط يده ، وانه لم يسمع من الناصر لفظا مما ذكر فيها . فدمعت عين القاضي بدر الدين . أما ابن الاثير فقد قام اليه الامراء يشتمونه ويبصقون في وجهه وينخسونه في جنبه حتى

---

(٨٥) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٥٧ ، ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ص ١٥٧ — ١٥٩ ، ١٨٤ ، ١٨٥ — ويذكر العيني ان بيبرس وسلار طلبا الدرج الذي فيه علامة الملك الناصر محمد فكتبا على بعضه : بسم الله الرحمن الرحيم من اخيهم محمد بن قلاوون الذي يعلم به الامراء المقدمون والنواب والاجناد والقضاة والعلماء والعامة واهل السواء أنني قد نزلت عن السلطنة لعجزي عن القيام بمصالحها وشروطها وسلوك واجباتها والمسلمون بلا سلطان لا يكون ، فليختاروا لهم سلطانا ، وانا لهم موافق على ذلك (انظر : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٥٧ « مخطوط ») .

وعن موضوع تنازله انظر : العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ ق ٣ لوحة ٦٧٩ « مخطوط » ابن شاكر التتبي : عيون التواريخ ، ج ١٢ لوحة ٢٥٨ « مخطوط » — ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٤٨ — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ١٧٩ ، ٢٣٣ .

Lane Poole, AHistory of Egypt, P. 305.

(٨٦) هو قاضي القضاة الشافعي بدر الدين محمد بن ابراهيم بن سعد بن جماعة الحموي ولد بحماة سنة ٦٣٩هـ كان اماما عالما مصنفا ، تولى قضاء القدس والخطابة بها ، ثم نقل الى مصر فولي قضاءها في اوائل سنة ٦٩٠هـ . توفي سنة ٧٣٣هـ (انظر : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٢٩٨) .

(٨٧) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ص ١٨٤ . أما أبو المحاسن فيذكر أن الاميرين : عز الدين ايدمر الخطيري ، والحاج آل ملك شهدا امام زين بن مخلوف قاضي القضاة المالكي على كتاب التنازل (انظر : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٢٣٣) .

كاد يلفظ أنفاسه • ومع ذلك فلم يعبأوا بتكذيب ابن الاثير لهم ، بـل عقدوا اجتماعا عاما بدار النيابة ، حضره مـن بينهم المؤرخان بيبرس الدوادار وابن آيبك ، قرروا فيه استنادا الى الكتاب المزور[٨٨] ، ان الناصر تنازل عن الملك ولكن بيبرس الدوادار اعترض مطالبا بضرورة مراجعة الناصر محمد واستعطافه وترضيته ومراسلته الى ان يرضخ لرغبتهم ويستجيب لندائهم[٨٩] • ولكن هـذا الرجاء قوبل بالرفض بحجة ان التردد في مثل هذه الامور من شأنه أن يسبب أضرارا خطيرة في البلاد ويثير الفتن والقلاقل ، ويحرك عوامل الفساد والعصيان • ثم عادوا الاجتماع في اليوم التالي ، وقرروا اختيار الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير سلطانا ، وكان من بين المماليك البرجية وجاركسي الجنس[٩٠] ، ولقب بالملك المظفر • وخطب للجاشنكير في مصر ، وجلس على عرش السلطنة في ٢٣ شوال ٧٠٨هـ (٤ ابريل (نيسان) ١٣٠٩م) وبايعه الامراء والاعيان • ثـم كتب الملك المظفر للناصر محمد تقليدا بالكرك ومنشورا بما عين له من الاقطاعات في منطقة شرقي الاردن[٩١] •

ونخلص من ذلك كله استنادا على ما أورده مؤرخان معاصران لهذه الفترة بان الناصر محمد لم يتنازل عن العرش ، وانه انما استهدف من

---

(٨٨) ابن آيبك : كنز الدرر ج ٩ ص ١٥٧ •

(٨٩) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ لوحة ٤٦٩ «مخطوط» • وانظر : مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٣٧ ، العيني : عقد الجمان ج ٢٢ ، ق ١ لوحـة ٥٣ «مخطوط» •

(٩٠) أبو المحاسن : المنهل الصافي ، ج ١ لوحة ٣٦٩ «مخطوط» •

(٩١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ لوحة ٤٧١ «مخطوط» ــ أبو الفداء : المختصر ج ٤ ص ٥٧ ــ أما النويري فيقول : « كتب له تقليدا بالكرك ومنشورا باقطاع مائة فارس ، ثم أبطل المنشور الاول وكتب منشورا ثانيا بربع المغل ولخاصه ولماية طواشي » (انظر : نهاية الارب ج ٣٠ لوحة ٤٩ «مخطوط») ــ ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٢٢ ــ ابن دقماق : الجوهر الثمين ، لوحة ١٤٥ «مخطوط» المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٤٧ ــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤٠ •

خروجه الى الكرك التي يعرفها كل المعرفة ويثق في اخلاص اهلها له ، التخلص من تحكم الامراء فيه وسيطرتهم عليه • وانه كان يسعى الى اتخاذها مقرا لملكه ، بدليل ان بعض المؤرخين أطلق على الكرك آنذاك دار هجرة ، ونعتوا الناصر محمد بالمهاجر بل اطلقوا على الامراء الذين تسحبوا اليه من مصر بالمهاجرين(٩٢) •

---

(٩٢) ابن أيبك : كنز الدرر ج ٩ ص ١٦٧ ــ ١٦٩ ــ وانظر : بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ لوحة ٤٤٦ «مخطوط» ، العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٣٦ ، ولوحة ١٣٥ ، ١٥٠ «مخطوط» •

(٥)

ثورة الناصر محمد بالكرك وعودته الى السلطنة للمرة الثالثة

أ ـ موقف أمراء المماليك في مصر والشام من حركة الجاشنكير :

لم يكن الناصر محمد يثق في اخلاص المماليك البحرية المرتبين في قلعة الكرك له ، ولذلك حرص على التخلص منهم ، فكان اول ما قام به بعد استقراره بالكرك ان امرهم بمغادرتها مع أهلهم وأولادهم فتفرقوا في البلاد ، فسكن قسم منهم في مؤتة ولم يبق في القلعة سوى مماليك السلطان(٩٣) • ثم تفرغ الناصر بعد ذلك بتدبير الامور فيها والنظر في أحوال سكانها ، واهتم بتطبيق العدالة ونشر مشاعر المحبة في قلوب الجميع ، وصار يحضر الى دار العدل في الكرك(٩٤) ، ويباشر الامور بنفسه ، فأقبل عليه الناس وتعلقوا بمحبته • وفي نفس الوقت كان الناصر يعمل بهدوء وروية لاسترجاع عرشه والقضاء على خصومه •

وكان المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير قد ارسل في مستهل ذي القعدة الى نواب الشام يطلب منهم يمين الولاء والتأييد • ففي دمشق جمع نائبها الامير جمال الدين آقوش الافرم القضاة والامراء والاعيان بالقصر الابلق ، وقرأ عليهم نسخة من الكتاب المزور الذي تنازل فيه الناصر عن الملك ، فأثبته القضاة • لكن القاضي الحنبلي تقي الدين سليمان امتنع عن اثباته بحجة انه ما من احد يقبل ان يترك ملكه اختيارا ولولا انه كان مضطهدا مضغوطا عليه ما تركه ، وكان جزاء هذا القاضي العزل من منصبه(٩٥) • ومع ذلك فقد بايع الامراء في دمشق للجاشنكير

---

(٩٣) النويري : نهاية الارب ٥ ج ٣٠ لوحة ٥٢ «مخطوط» ـ العيني : عقد الجمان ج ٢٢ ق ١ لوحة ٥١ «مخطوط» ، وانظر : المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٤٤ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٧٩ •

(٩٤) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ٤٧ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٥١ «مخطوط» •

(٩٥) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ٤٨ •

وان كان بعضهم أكره على ذلك . وفي حلب استنكر نائبها الامير شمس الدين قراسنقر المنصوري(٩٦) سلطنة ارجاشنكير ، وارسل سرا الى سيف الديـن قبجق(٩٧) نائب حمـاة وسيف الديـن أسندمر كرجي المنصوري(٩٨) نائب طرابلس يطلب منهما الاجتماع به ليقرروا سويا ما يرونه مناسبا . أما أسندمر فقد تظاهر بالمرض ومنع دخول أحد عليه ، ثم سافر ليلا الى حلب ، وأما قبجق فقد ادعى انه خارج للصيد ومضى للاجتماع برفيقيه . والتقى الثلاثة في حلب ، وتعاهدوا عـلى الوقوف معا مع ابن استاذهم وتأييده لاستعادة عرشه ، وأقسموا عـلى ذلك بعد ان كتبوا كتبا يعبروا فيها للناصر محمد وقوفهم الى جانبه ، وانهم لم يحلفوا للمظفر بعد(٩٩) ، وعاد كل الى نيابته دون ان يشعر

---

(٩٦) شمس الدين قراسنقر الجركسي المنصوري ، من مماليك المنصور قلاوون ، ولما تسلطن قلاوون رقاه وأمره ثم ولاه نيابة حلب ، واستمر الى سلطنة الاشرف خليل الذي صرفه عنها . إشترك في مؤامرة قتل الاشرف ، ثم تولى نيابة السلطنة في مصر للسلطان لاجين . في عهد الناصر محمد تولى نيابة الصبيبة ثم حماة ثم نقل الى حلب . ساعد الناصر محمد في سلطنته الثالثة وثورته بالكرك فولاه نيابة السلطنة بمصر ثم نيابة الشام ، ولكن الناصر محمد غضب عليه فهرب الى التتار وبقي هناك الى ان توفي سنة ٧٢٨هـ (أنظر : ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٣ ص ٢٤٦ رقم ٦٢٥ طبعة الهند) .

(٩٧) سيف الدين قبجق المنصوري : اصله من المغل ومن مماليك المنصور قلاوون . قدمه الاشرف خليل وكان يستشيره . تولى نيابة الشام سنة ٦٩٦هـ ولما ساءت العلاقة بينه وبين السلطان لاجين هرب الى التتار سنة ٦٩٨هـ ، وزين لغازان بغزو الشام واشترك معه في واقعة الخزندار ، وكافأه غازان بأن ولاه دمشق . الا ان قبجق اتصل بالناصر محمد فعفا عنه وولاه الشوبك وبعد واقعة شقحب التي أبلى بها بلاء عظيما كافأه الناصر فولاه حماة وباشرها كالملك المستقبل . ساعد الناصر محمد في ثورته بالكرك فولاه الناصر حلب وبقي حتى توفي سنة ٧١٠هـ (ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٣ ص ٢٤١ رقم ٦١٦ طبعة الهند) .

(٩٨) سيف الدين أسندمر كرجي : كان جبارا سفاكا للدماء ، تولى نيابة دمشق سنة ٦٩٦هـ ، ثم ولي نيابة طرابلس سنة ٧٠١هـ . ساعد الناصر محمد في ثورته بالكرك فأكرمه وولاه نيابة حماة ، ثم انتزعها منه وولاها للملك المؤيد اسماعيل ، وولاه بدلا منها نيابة حلب . الا ان الناصر غضب عليه ، فألقى القبض عليه وسجنه ثم قتله في ذي القعدة سنة ٧٢١هـ (أنظر ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ ص ٣٨٧ رقـم الترجمة ٩٨٨ طبعة الهند) .

(٩٩) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٦٤ «مخطوط» – أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٣٨ .

بهم أحد ، تاركين مهمة توصيل الكتب الى للناصر محمد لقراسنقر نائب حلب ، الذي عهد بها الى ولده ناصر الدين محمد .

بادر ناصر الدين بالسير نحو الكرك وقد تزيا بزي النجابة ، واصطحب معه نجابا اخر يدعى (معن) كان خبيرا بالمسالك البرية المؤدية الى الكرك[١٠٠] . وما كاد يصلا اليها حتى أعلنا أنهما قادمان من مصر ، فأذن لهما بالدخول على السلطان ، فلما مثلا بين يديه كشف ناصر الدين لثامه فعرفه السلطان ، وطلب منه ناصر الدين أن يختلي به فأمر السلطان من حوله بالانصراف . وعندئذ افضى اليه ناصر الدين بتفصيل ما جرى بين نواب حماة وحلب وطرابلس ، وأبلغه قرارهم الذي اتخذوه ، ويقضي بالوقوف معه ونصرته . وهنا تظهر لنا كياسة الناصر محمد وحسن تقديره للامور ، فقد تبسم وقال له : اني شاكر صدق عزمهم ولكن القائل يقول :

كن جريا اذا رأيت جبانا وجبانا اذا رأيت جريا
لا تقاتل بواحد أهل بيت فضعيفان يغلبان قويا

ثم قال له : ان البلاد كلها الان مع بيبرس ، ونائب الشام بايعه ، ولن يتأتى لنا الامر «الا بحسن التدبير والمداراة والصبر على الامور»[١٠١] . مكث ناصر الدين محمد يومين في الكرك وفي صبيحة اليوم الثالث ، خلع عليه خلعة واعطاه الف دينار مصرية ، وخلع على معن النجاب مبلغ ألف درهم ، وارسل معه كتبا الى كل من نائب حلب وحماة وطرابلس ، مشيرا فيها أن يتجملوا بالصبر والروية ، فان القضايا المصيرية لا تحل بالعجلة . وطلب منهم ان يحلفوا للمظفر بنية الغصب والقهر ، وأن يكونوا على صلة به ليروا ما يفعلونه مستقبلا[١٠٢] . لم ير النواب الثلاثة بدا من اداء اليمين للمظفر انتظارا لما تستقر عنه الاحداث ، وعندما وصلت

(١٠٠) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٦٤ «مخطوط» .
(١٠١) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٦٦ «مخطوط» .
(١٠٢) أنظر نص الكتاب في : العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٦٦ «مخطوط»
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ص ٢٤٢ .

نسخة اليمين الى المظفر في القاهرة أبدى سعادة وأيقن بتمام الملك له[١٠٣] ، وذلك أن سلطان مصر لا تكتمل له السلطنة الا بعد موافقة نواب الشام جميعا ٠

ولما تم للمظفر بيبرس الجاشنكير تحقيق أمنيته في الملك أخذ يعمل على تجريد الناصر محمد ماديا وعسكريا توطئة للقضاء عليه ، فأرسل يطلب منه أن يرد الاموال الموجودة في الكرك ويرسل المماليك والخيل التي في حوزته ، فكتب اليه الناصر رسالة تأدب له فيها وخاطبه « بالملكي المظفري » ، وارسل اليه مبلغ مائتي ألف درهم وهو المبلغ الذي كان قد قدمه اليه نائب الكرك ، كما خطب له بجامعي مدينة الكرك وقلعتها ، وارسل اليه الجتر[١٠٤] والعصائب وشعار السلطنة ٠ مستهدفا من ذلك كله تهدئة للنفوس وتسكين الاحوال[١٠٥] ، وابعاد الشبهة عن كل تصرف او تحرك يقوم به ، واتبع ذلك ذلك بسياسة التعمية (او ما يسمى بالخداع الاستراتيجي) ، فكان يتظاهر بالخروج للصيد والقنص ٠ وتمكن في السادس من المحرم سنة ٧٠٩هـ من اصطياد اربعين حمارا وحشيا[١٠٦] ، مظهرا بذلك انه لا يحفل بما يدور جوله من امور ومخفيا استعداداته العسكرية والدبلوماسية ٠ وهي سياسة مارسها صلاح الدين مع الصليبيين قبل معركة حطين ، فقد خرج للصيد موهما

---

(١٠٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٢٤٢ ٠

(١٠٤) الجتر : (بجيم مكسورة قد تبدل شيئا معجمه ، وتاء مثناه فوق) ٠ يعبر عنها بالمظلة أو القبة ٠ وهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب ، على أعلاها طائر من الذهب ٠ تحمل على رأس السلطان عند ركوبه ولها مكانة جليلة وحاملها من أكبر الامراء (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ص ٨) ٠

(١٠٥) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٧٣ «مخطوط» ٠ ويقول النويري « وقصد بذلك أن تكون الاحوال ساكنة والامر ماش على سداد وانتقام واتفاق » انظر : نهاية الارب ، ج ٣٠ لوحة ٥٣) ، وانظر ايضا : المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٤٧ ، ٥٣ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٢٤٥ ، والمنهل الصافي ، ج ١ لوحة ٣٦٨ «مخطوط» ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٤٦١ «مخطوط» ٠

(١٠٦) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ص ١٦١ ٠ وانظر : مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ١٣٨ ـ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٤٥ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٩٥ «مخطوط» ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٤٦٥ «مخطوط» ٠

أعداءه بانه غير مكترث بهم او بحربهم ، ولكنه كان في حقيقة الامر يحشد القوات ويستعد للمعركة الفاصلة اما المظفر بيبرس فلم يقتنع بمظاهر البراءة التي ابداها الناصر محمد وكثر توهمه وخوفه منه فأرسل اليه يتهدده ويتوعده ٠ فأهان الناصر رسول الجاشنكير وأمر باخراجه الى الغور ماشيا وأخذ منذ ذلك الحين في التدبير والاستعداد والعمل الجدي(١٠٧) وأخذت الكرك تشهد نشاطا سياسيا واضحا يتمثل في الوفود الرائحة والغادية بين دروب الاردن ومسالكها ٠

ب ـ تأهب الناصر للمواجهة :

وقف أهالي الكرك ومنطقة شرقي الاردن وعربانها(١٠٨) ، وقفة رجل واحد يؤيدون الناصر محمد ويشدون ازره ٠ ولما شعر ان وقت العمل قد حان بدأ بارسال الكتب الى نواب الشام في دمشق وحلب وحماة وطرابلس وصفد يطلب منهم النصرة والتضامن معه ضد المظفر الذي ما فتيء يتهدده ويتوعده وذكر لهم ان المظفر ينوي أن ينفيه الى القسطنطينية كما فعل الاشرف خليل مع أبناء الظاهر بيبرس ٠ وأعلن لهم أنهم اذا لم يردوه عنه فانه سيتوجه الى التتار ويلتحق بهم(١٠٩) وأتبع ذلك بكتب أخرى أرسلها الى بعض أمراء المماليك في مصر ممن يثق فيهم حملها اليهم في السر جماعة من العربان(١١٠) ٠ كما أرسل بعضها

---

(١٠٧) النويري : نهاية الارب ، ج ٣٠ لوحة ٤٩ «مخطوط» ـ ويقول ابو المحاسن : « فعظم ذلك على الناصر وتحرك طالبا لملكه » (أنظر : المنهل الصافي ج ٣ لوحة ٢٤٧ «مخطوط» ، وانظر ايضا : المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٥٦ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ٢ لوحة ٧٣ «مخطوط» ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٤٦١ «مخطوط» ٠

Muir, The Mameluke, PP. 63 - 64.

(١٠٨) ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٥١ ٠

(١٠٩) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٤٨٤ «مخطوط» ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٢٢ ـ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ١٤١ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١٠٩ «مخطوط» ـ ابو المحاسن النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٢٤٥ ٠

Muir, op. cit. P. 63.

(١١٠) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٥٦ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤٥ وانظر : مجهول تاريخ سلاطين المماليك ، ص ١٤٢ ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٤٦٧ «مخطوط» ٠

أيضا مع تاج الدين أوران كان من بين عسكره بالكرك ، قربه الناصر منه لالمامه بالصيد ومعرفته بمظانه(١١١) وأبدى الامراء جميعا تأييدهم له وأبلغوه كتابة أنهم طوع أمره ووفق ارادته وانهم لا يترددون في تلبيته متى طلبهم لنصرته ٠

وكانت الامور قد ساءت كثيرا في الديار المصرية بعد ان تحول المظفر الى وحش كاسر يصيب جمام انتقامه على كل من يشك فيه من الامراء الى حد انه اتهم سلار نائبه وساعده الايمن بمباطنة الناصر محمد وانه يعمل ضده(١١٢) ٠ ولم يستطع الامراء ان يصبروا طويلا على هذا الضيم وخشوا ان هم تحملوا المظفر اكثر من ذلك تعرضوا لجنون تصرفاته فاخذوا يتسحبون الى الكرك للانضمام الى الناصر محمد ونصرته ٠ ففي أوائل شهر جمادى الآخر سنة ٧٠٩هـ لحق المؤرخ النويري بالناصر محمد في الكرك(١١٣) ، وكان من اوائل الامراء الذين خرجوا من مصر ٠ وفي منتصف جمادى الآخرة من هذا العام ، تسلل مائة وستة وثلاثون من المماليك السلطانية بالقلعة والقاهرة ، وخرجوا طلبا واحدا بخيلهم وهجنهم وغلمانهم الى الكرك تاركين بيوتهم وأولادهم ، نذكر من بينهم الاميرين سيف الدين تغيه وعلاء الدين مغلطاي(١١٤) ولما بلغ ذلك المظفر جن جنونه ، فأرسل خلفهم قوة مملوكية من خمسمائة فارس وقيل

---

(١١١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ لوحة ٤٨٤ «مخطوط» ـ ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٤٢٢ العيني : عقد الجمان ج ٢٢ ق ١ لوحة ١٠٩ «مخطوط» ـ ابن اياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٥١ ٠

(١١٢) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٥٦ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٥٨ ٠

Muir, The Mameluke, P. 64.

(١١٣) النويري : نهاية الارب ، ج ٣٠ لوحة ٥٠ «مخطوط» ٠

(١١٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٤٨٠ ، ٤٨١ «مخطوط» ـ النويري : نهاية الارب ج ٣٠ لوحة ٥٠ ، ٥١ «مخطوط» ـ ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ص ١٦٧ ـ ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ج ١٢ لوحة ٢٧٠ «مخطوط» المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٠ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٨٩ «مخطوط» ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٤٦٤ «مخطوط» ٠

خمسة آلاف فارس بقيادة الامير شجاع الدين سمك أخي سلار ٠ ولكنه لم يجرؤ على الاقتراب منهم وظل يطاردهم الى غزة ، الى ان وصلوا الى الكرك ، فعاد ادراجه الى مصر ، وأبلغ المظفر باخفاقه في اللحاق بهم وعندئذ كتب المظفر الى الناصر محمد يتهدده ويقول : « ساعة وقوفك على هذا الكتاب ومن قبل وضعه في يدك أرسل لنا نغيه ومغلطاي ومماليكهما وتبعث المماليك الذي عندك في الكرك ولا تخل منهم عندك سوى خمسين مملوكا ، والباقي أرسلهم ، فاني اشتريت الكل من بيت المال ، وان لم تسيرهم سرت اليك وأخذتك وانفك راغم »(١١٥) ٠

وصل الامراء ومماليكهم الثلاثمائة الى الكرك في اليوم الثاني من رجب ، فرحب بهم الناصر محمد وطيب قلوبهم ، وخلع على الامراء وقرب اكابرهم ، وعلم منهم أن المصريين يدعون له وينتظرون الساعة التي يحددها للانضواء اليه(١١٦) وبهذه القوة اطمأن الناصر محمد لوضعه ، فلم يتردد بعدها في اعلان الثورة بالكرك ضد المظفر بيبرس الجاشنكير واعوانه ، وامر بالدعاء لنفسه على منابر الكرك وأعمالها(١١٧) في يوم الجمعة ٢٤ جمادى الآخرة ٠ ثم كتب الى نواب السلطنة في حلب وحماة وطرابلس يعبر لهم عن رغبته في التحرك لاستعادة ملكه ، ونيته في السير الى دمشق وعدم الانتظار اكثر من ذلك ٠ ثم طلب نجابا يقال له : صخر ، وأمره بمواصلة السير ليل نهار لتسليم الكتب الى أصحابها ٠ فوصل حلب في اليوم الرابع ، واجتمع بقراسنقر ودفع اليه الكتاب ، فلما قرأه

---

(١١٥) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٩٥ «مخطوط» ٠

(١١٦) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٩٨ «مخطوط» ـ وانظر ايضا : أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٥٨ ـ ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ج ١٢ لوحة ٢٧٠ «مخطوط» ـ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ١٣٨ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٢٥٥ ، والمنهل الصافي ، ج ١ لوحة ٣٦٩ «مخطوط» ٠

(١١٧) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٥٨ ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢٥٦ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٩٨ «مخطوط» ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٢٥٥ ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٤٦٤ « مخطوط » ابن أياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٥١ ٠

سير الى كل من قبجق واسندمر يدعوهما للمشاورة ، ويعلمهما بحركة السلطان • فقدما اليه سرا واجتمعا به ، وقرروا ضرورة التحرك السريع والانضمام بقواتهم الى الناصر محمد قبل ان تسبقهم الى الكرك عساكر مصر ، وقوات الافرم من دمشق ويتعذر عليهم عندئذ مساعدة الناصر • واتفقوا فيما بينهم على أن يبادر اسندمر نائب طرابلس بنجدته[١١٨] حسب رغبته • عاد اسندمر الى طرابلس وأشاع انه مريض للغاية ، ومنع الناس من الدخول عليه ، وارسل الى نائب دمشق الافرم يطلب منه طبيبا • ثم سار ليلا ومعه نجاب واحد وثلاثة مماليك باتجاه الكرك عن طريق البرية • فوصل الى الكرك في نفس الوقت الذي وصل فيه البريدي الذي بعثه المظفر للناصر وكأنهما على ميعاد ، فتسلم الناصر الكتاب بينما كان استدمر بجواره وقد تزيا بزي العربان وتلثم ، فقرأ الناصر الكتاب ، ثم ناوله لاسندمر فقرأه وعلى اثر ذلك أمر الناس بالانصراف فلما اختلى باسندمر سأله المشورة فأشار عليه باصطناع الخديعة ، لان المصلحة تقتضي مخادعتهم برقة الكلام ومداراتهم بعض الوقت حتى يتمكن الناصر خلاله من اعداد عدته واستظهار أمره[١١٩] • فاقتنع الناصر برأيه وطلب ان يتولى مهمة الرد عليه ، فكتب اليه كتابا تلطف فيه كثيرا واعلن انه منع الامراء من الدخول للقلعة ، ولامهم على تصرفهم فأسفوا لذلك ، وطلبوا الصفح • ثم طلب لهم الشفاعة والامان مـن السلطان وان يرد اليهم اقطاعاتهم ويشملهم بعطفه ورعايته • واظهر فيه الخضوع للمظفر ، وأنهاه بالعبارة التالية : **والمملوك ينتظر الامـان والجواب**[١٢٠] ، ثم دعا البريدي وانعم عليه بمائة دينار وسلمه الرسالة وفعلت الرسالة في نفس المظفر عند مطالعتها فعل السحر فأذهبت ما بنفسه من شكوك نحو الناصر و « **خف عليه ما كان عنده** »[١٢١] •

---

(١١٨) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١٠٠ « مخطوط » •

(١١٩) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١٠٠ «مخطوط» •

(١٢٠) انظر نص الكتاب في : العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١٠١ «مخطوط» — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ •

(١٢١) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١٠٢ «مخطوط» •

وفي هذه الاثناء كان الامراء الموالين للناصر يستحثونه في الكرك على سرعة التحرك ويدفعونه لامتلاك دمشق ما داموا يعتمدون على نصرة نواب طرابلس وحلب وحماة . ولكن الناصر كان له رأي آخر كان على يقين من أن حركته لن يكتب لها النجاح طالما استمرت نيابة دمشق اكبر نيابات السلطنة بالشام موالية للسلطان وانضواء دمشق لدعوته يعني في حد ذاته انتصارا حاسما في خصومه على القاهرة بحكم ان دمشق تمثل الحاضرة الثانية لدولة المماليك . لذا آثر أن يكسب نائبها الافرم الى صفه ، فعمد الى ثقات احد مماليكه وهو سيف الدين تنكز الخزندار ودفع اليه كتابا الى جمال الدين آقوش الافرم يعظمه ويذكره بأنه اكبر مماليك أبيه ويطلب منه العون ويستحثه على تأييده في استرجاع ملكه ، وجاء في هذا الكتاب ما يلي : « أنت أكبر مماليك أبي فجهز وحلف الامراء الذين عندك ، فأنا قادم اليك حتى تعبر معي الى الديار المصرية ، ويكون على يدك الفتح والنصر »(١٢٢) ثم ندب مملوكه الامير أيتمش ودفع اليه كتابا الى امراء دمشق(١٢٣) ، يدعوهم الى الانضمام اليـــه ومساعدته ، كما أرسل كتابا آخر الى امير العرب حسام الدين مهنا(١٢٤)، والى الامير بكتمر الجوكندار نائب صفد الذي استجاب على الفور ووعد بالمضي الى دمشق والوقوف الى جانب الناصر(١٢٥) . كذلك كتب الى سيف الدين كراي المنصوري بالقدس(١٢٦) . ولما تم للناصر مكاتبة هؤلاء الامراء عقد اجتماعا مع الامير اسندمر وقال له : يا عمي قد عولت على التوجه الى دمشق ، وانه متى برزت من الكرك ، وسمع الامراء والناس

---

(١٢٢) انظر نص الكتاب في الملاحق .

(١٢٣) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ص ١٦٨ ، ١٦٩ ـ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ١٣٨ ـ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٥٧ ، ٦١ ـ ابو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٤٥ ـ ٢٥٩ .

(١٢٤) النويري : نهاية الارب ، ج ٣٠ لوحة ٥٣ «مخطوط» ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٩٨ « مخطوط » ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحـــة ٤٦٤ «مخطوط» .

(١٢٥) المقريزي السلوك ، ج ٢ ص ٦١ ، ٦٢ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٢٥٩ .

(١٢٦) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٢ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٢٦٨ .

جاؤوا الي وانضموا الى صفوف قواتي • فوافقه اسندمر على وجهة نظره ، ولكنه طلب منه التمل بعض الوقت حتى يعود هو الى استدمر ويجتمع بالامراء ويتشاور معهم ، ثم يبلغونه بما يتم الاتفاق عليه • وتم الاتفاق على ذلك ، فتأهب الناصر للرحيل باتجاه دمشق(١٢٧) •

جـ ـ سيطرة الناصر على دمشق :

أصبحت الكرك آنذاك مركزا لنشاط سياسي وعسكري واسع النطاق وتحولت فجأة الى قبلة يتوجه اليها المماليك في مصر والشام ، وبذلك خطفت الاضواء من دمشق والقاهرة أهم مدينتين في دولة المماليك •

رفض الافرم مساعدة الناصر محمد ، وسب الامير تنكز ، ثم طلب ثلاثة أمراء مقدمين من الحلقة واعطاهم مائة وخمسين فارسا ، وامرهم بالسير الى الزرقاء واطلاعه على تحركات الناصر محمد(١٢٨) • أما أمراء دمشق فقد أثرت فيهم دعوة الناصر محمد ورأوا ان ينحازوا الى ابن استاذهم فبدأوا يخرجون من دمشق وينسحبون الى الكرك للانضمام الى الناصر قبل أن يصل هو الى دمشق(١٢٩) وفي نفس الوقت خرج الناصر محمد بن قلاوون بطلبه وقواته من الكرك في رجب ٧٠٩هـ (ديسمبر (كانون اول) ١٣٠٩م) ، باتجاه دمشق • فمر ببركة زيزاء وواصل سيره الى ان حط رحاله في البرج الابيض من اعمال البلقاء(١٣٠) وسمع والي حسبان بحركة الناصر وكان الافرم قد طلب

---

(١٢٧) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١٠٦ «مخطوط» •

(١٢٨) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١١٢ «مخطوط» •

(١٢٩) النويري : نهاية الارب ، ج ٣٠ لوحة ٥٤ «مخطوط» ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١١٢ «مخطوط» ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٢٦٥ ـ وانظر : العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ ق ٣ لوحة ٦٨٠ ، «مخطوط» ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٥١ ـ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٧ •

(١٣٠) البرج الابيض : يقع بين حسبان وعمان • وأرى أن الضاحية المسماة « مرج الحمام » خارج عمان الحالية هي المقصودة وان كلمة مرج تحويف لكلمة برج •

منه ان يترصد حركات الناصر ويبلغها اليه على الفور ، بالاضافـــة الى عيونه الذين كان قد ارسلهم الى الزرقاء • فأرسل والي حسبان بطاقة الى دمشق بواسطة الحمام الزاجل(١٣١) يبلغ فيها الافرم عن خط سير الناصر واقامته في البرج الابيض بالقرب من عمان • فاشتد غضب الافرم وارسل الى الناصر يتهدده ، ولكن الناصر لم يكترث لهـــذا التهديد ، وواصل سيره الى الشمال الى ان نزل بقرية أرحاب(١٣٢) الواقعة في أقصى الحدود الشمالية لمنطقة شرقي الاردن • وهناك قدمت اليه جموع أمراء دمشق المنشقين على الافرم معلنين ولاءهم ، وأبلغوه بخبر التجريدة التي سيرها الافرم الى الزرقاء للكشف عن اخباره ، فخلع عليهم ، ووعدهم بكل خير ، ثم منح كل امير منهم الف دينار ، ولكل مقدم من الحلقة خمسمائة دينار ، ولكل جندي مائة دينار • وسير هلال بن ساعـــد الزبيدي أمير عرب آل زبيد الى البلقاء لمراقبة أعوان الافرم وكشف أخبارهم ، فأبلغه بان بعض هؤلاء ينزل في حسبان ، والبعض الآخر بالقرب من الزرقاء ، وانهم خائفون • عندئذ وجه الناصر محمد الامير نغيه في خمسين فارسا اليهم واوصاه ان يضرب رقابهم اذا امتنعوا عن بذل الطاعة • وفي اللحظة التي فاجأهم فيها نغيه بتطويقهم ، علم أنهم كانوا في طريقهم الى الناصر محمد تعبيرا عن تأييدهم له ، فأمنهم عـــلى أنفسهم ، ثم صحبوه في عودته الى أرحاب وأعلنوا أنهم قرروا الدخول في طاعة الناصر ومبايعته بالسلطنة منذ اليوم الذي خرجوا فيه من دمشق ، وعلى اثر ذلك بايعوه بالسلطنة وقدموا له فروض الطاعـــة والولاء • فقدر لهم الناصر صنيعتهم واكرامهم ، ثم رحل على الفور من أرحاب الى أذرعات ، فقدم اليه أهل حوران جميعا يحتفلون بمقدمه ، وهم يهللون ويكبرون وعلى رؤوسهم المناسف(١٣٣) • وما كادت أنباء

---

(١٣١) العيني عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١١١ «مخطوط» •

(١٣٢) أرحاب : قرية في طرف البرية بين المفرق وأذرعات (العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١١٢ «مخطوط» وهي قرية اردنية لا تزال عامرة للآن •

(١٣٣) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١١٥ «مخطوط» •
المناسف : مفردها منسف ، وهو وعاء كبير من النحاس يوضع فيه الطعام •
والمنسف أكلة شعبية في الاردن تتكون من الارز واللحم المطبوخ باللبن الرائب •
واللحم المطبوخ باللبن يعرف في سوريا ولبنان بالشاكرية •

انضمام أهالي شرقي الاردن وحوران الى الناصر تبلغ مسامع الافرم حتى انزعج لها انزعاجا شديدا ، وأدرك تحرج الموقف أمام تحركات الناصر الى دمشق ، فارسل الى القاهرة يطلع المظفر تـــلى حقيقة الاوضاع ويستحثه على المبادرة بنجدته • وفت ذلك في عضد المظفر ، ولم يكن أمامه سوى اصطناع الخديعة ، فكتب الى الافرم يأمره بالوقوف في حزم في وجه الناصر • في حين كتب الى الناصر بأذرعات يبلغه بانه أمر نائب الشام بان يسلمه البلقاء واقليم حوران كله بالاضافة الى الكرك التي لم تعد تقوم بحاله(١٣٤) ، بمعنى أنه يعرض عـــلى الناصر امارة الكرك الايوبية كلها اقطاعا للناصر محمد على شريطة ان يتخلى عـــن نواياه العدوانية ويعترف له بالسلطة ، وادرك الناصر محمد ان المظفر يخادعه ، فأمر بجمع كافة امراء المماليك ، فاجتمعوا امامه ، فذكر لهم ان المظفر يعرض عليه البلقاء وحوران ، وانه قبل شفاعته في الاميرين نغيه ومغلطاي وبقية الامراء المتسحبين من دمشق اليه ، ثم قال يخاطبهم : « وهو يحتال علي في هذا الوقت حتى افرق الذين حولي ليبلغ مراده مني وهذا ماله اليه سبيل »(١٣٥) • وعلى اثر ذلك أمر قواته بالرحيل من أذرعات ونزل في الخمان(١٣٦) ، وهناك وصله كتاب من الافرم يطلب منه العودة الى الكرك ويعده فيه باصلاح الامر بينه وبين الملك المظفر ، على أن تكون الشام للناصر محمد ومصر للمظفر • وعندما وصله كتاب الافرم ضحك وقال لحاملي الكتاب ساخرا : « ما أقل عقله وعقولكم هذا امر ما بقي فيه اصطبار »(١٣٧) ، ثم امرهما بالعودة الى الافرم وابلاغه ان الناصر محمد يرفض كل هذه العروض ، سواء الصادرة من المظفر او من الافرم ، وانه اي الناصر لن يتخلى عن حقه الشرعي في الظفر بالسلطنة في مصر والشام في آن واحد •

---

(١٣٤) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١١٦ «مخطوط» •

(١٣٥) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١١٧ «مخطوط» •

(١٣٦) الخمان : (بفتح أوله وتشديد ثانيه) ، قرية قريبة من رأس الماء في حوران ، (أنظر : ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ص ٤٦٨ ـ وابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢٥٦) •

(١٣٧) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١١٨ «مخطوط» •

أقام الناصر محمد في الخمان ينتظر قدوم قراسنقر وقبجق وأسندمر لاتفاقهم معه على ان يتم اجتماعهم حول دمشق ٠ وفي أثناء ذلك وصله مملوك قراسنقر يحمل كتابا من حلب ٠ يبلغه فيه بمصرع محمد بن قراسنقر على يد أحد المماليك ويرجو فيه الناصر بسرعة العودة الى الكرك اذ بلغه ان المظفر أرسل قواته لامتلاكها كي يحول بينه وبينها ، وانه ونائبي حماة وطرابلس مشغولون في بعض الامور ووعده في ختام الرسالة بالاتصال به في أقرب فرصة ممكنة(١٣٨) ٠ قضت هذه الاخبار المزعجة على آمال الناصر محمد في استرجاع ملكه ويذكر المؤرخون انه بعد انتهائه من قراءة الكتاب « تغير وانخطف لونه وشرست احداقه وبقي يفرك يديه »(١٣٩) ٠ ولما جن الليل أمر الجميع بهدم الخيام والمضارب والاستعدادات للرحيل الى الكرك ٠ عجب الامراء من تصرف الناصر المفاجيء ، ولما علموا حقيقة الكتاب ، أكدوا له أن الكتاب مزور وانه لا يمكن ان يكون من قراسنقر مطلقا ، فطلب الناصر مملوك قراسنقر وسأله عمن اعطاه الكتاب ٠ فأكد له انه من مولاه يدا بيد ٠ عندئذ كتب الى قراسنقر يقول : « اني تأخرت من بعد ما كنت وصلت لاجل كتابك ، فأريد من الامير ان يجهز لي قصاده الذين أتوا بهذا الخبر من مصر »(١٤٠) ، وكتب مثله الى قبجق واسندمر ، وارسل الكتب مع المملوك بعد أن سير معه « أقطاي » أحد مماليكه ، وارسل معهما نجابا

---

(١٣٨) أما نص الكتاب فهو : « ساعة وقوفك على الكتاب وقبل وضعه من يدك ارجع الى الكرك ، وامشي ليلا ونهارا ، لانه قد جاء لي قصادا واخبروا ان المظفر قد جهز أربعة آلاف فارس مع برغلي ، وسيرهم على تيه بني اسرائيل ، واوصاهم ان يسيروا بالليل ويكمنوا بالنهار ، وامرهم ان يحيلوا بينك وبين الكرك ، فارجع واحفظ القلعة ، فاننا واصلون اليك ٠ لان مملوكك محمد قد مات فانشغلنا في هذا الوقت عن الحركة ، وكذلك قبجق واسندمر عرض لهما ما يشغلهما ، ولا تحسب ان تأخير الافرم بعسكر دمشق انما كان خوفا ، وانما العلم معهم مع المصريين ، وهم يريدون ان يستجروك عن الكرك ليحولوا بينها وبينك » (أنظر : العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١٢٠ «مخطوط» ٠

(١٣٩) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١١٩ «مخطوط» ٠

(١٤٠) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١٢٠ «مخطوط» ٠

ثم انه ترك ثقله في الخمان وتوجه مسرعا الى الكرك عن طريق اذرعات وارحاب ، ولم يمض يومان حتى كان قد أشرف عليها ، فلما لم يجد احدا حولها حمد الله تعالى واطمأن فؤاده ، فدخل قلعتها في الثامن من رجب وهو في أشد حالات الضيق والكآبة ثم طلب الامراء — وكانوا قد انزعجوا من عودته السريعة الى الكرك — فطيب خاطرهم وبينما هم كذلك فاذا بالامير طرنطاي الاشرفي قد وصل الى الكرك قادما من مصر ومعـــه عشرون مملوكا ، فأدخل ساعة وصوله على السلطان ، فسأله عن أحوال مصر فأخبره بان الامور فيها مخبطة مرتبكة ، وان اخبارا وصلت الى القاهرة تؤكد ان الناصر تغلب على دمشق والشام كلها ، وقد حمل ذلك اهل مصر والقاهرة كلها على الدعاء له اي الناصر ، كما ابلغه بان قلوب المصريين جميعها معه . فسأله عن الجيش الذي جرده المظفر بقيادة برغلي ، فقال له : لم يخرج أحد منهم بعد .

اطلع قرا سنقر على رسالة الناصر محمد ، فلما قرأها اتضح لـــه ان الرسالة التي كان قد بعثها الى الناصر بدلت برسالة اخرى عـــلى لسانه . فما زال يستنطق مملوكه حتى أقر له بانه نزل بضيافة أحد مماليك الافرم في دمشق ، فتأكد لدى قراسنقر أن مماليك الافرم سرقوا كتابـــه وهو نائـــم وغيروا صيغته(١٤١) . وكان نص الكتاب الاصلي ما يلي :

« ان كنت في الكرك فانزل ، وان كنت في الطريق فجد في السير الى دمشق ، فهذه خطوط أمراء دمشق وغيرها عندي . وأنا الامير سيف الدين قبجق والامير أسندمر قد تجهزنا وجهزنا العساكر فترد لنا الجواب سريعا(١٤٢) » ، فعمد الافرم الى تغيير النص كما أثبتناه سابقا . وعـلى أثر ذلك بادر قراسنقر بالاتصال بأمراء دمشق الموالين للناصر محمد ، وطلب منهم سرعة الحركة والخروج اليه .

---

(١٤١) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١٢٢ «مخطوط» . أما النويري فيقول : « فلما وصل مملوكه الى دمشق ظفر به الامير جمال الدين الافرم نائب السلطنة بالشام ، فتحيل عليه وترك له ذهبا وأخذ منه الكتب وغيرها » (أنظر : نهاية الارب ، ج ٣٠ ، لوح ٥٣ «مخطوط») .

(١٤٢) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١٢٣ «مخطوط» .

وبينما كانت الامور تتحول في دمشق لصالح الناصر محمد ، كتب الامير قطلوبك المنصوري رسالة الى المظفر يخبره فيها بحركته الى دمشق وانضمام معظم الامراء فيها اليه • فوقعت الرسالة بيد سلار الذي كان قلبه قد تغير تجاه المظفر ، واصبح يسعى الى خلعه ويعمل في الخفاء ضده ، ويعرقل مساعيه في تجريد حملاته الى الشام(١٤٣) • ولم يتردد سلار في أن يأمر قطلوبك بالانضمام الى الناصر محمد ومساعدته في امتلاك الشام • فلما وصلت رسالة سلار لقطلوبك خرج ومعه بعض الامراء المماليك ، وأقاموا في الخمان ، وأرسلوا كتابا مع خمسة من الأمراء الى الكرك ، يطلبون من الناصر سرعة الحركة وانهم بانتظاره(١٤٤) • ولما بلغ الناصر ذلك سعد له كل السعادة ، ولكنه لم يتعجل في السير اليهم انتظارا لرد قراسنقر ، ولم تمض ايام حتى كان قاصد قراسنقر قد وصل الى الكرك وسلم الكتاب اليه ، وجاء في هذا الكتاب تفسير بما حدث من تزوير الافرم لكتاب قراسنقر ، وطلب منه قراسنقر بسرعة السير الى دمشق حتى يلتقي بقواته وقوات حلب عليها(١٤٥) •

أخذ الناصر محمد يتأهب للرحيل الى دمشق،فلما تكاملت استعداداته خرج من الكرك بقواته في أول شعبان سنة ٧٠٩هـ (يناير (كانون ثاني) ١٣١٠م) وترك عليها مملوكه سيف الدين أرغون الدوادار مع بعض المماليك ليقوم على حفظها • وكان قد طلب من رسل قطلوبك أن يوافيه مع الامراء على البرج الابيض في البلقاء وعندما نزل الناصر في هذا الموضع وافاه بالفعل امراء دمشق وعلى رأسهم قطلوبك ورفاقه • فدخلوا الى

---

(١٤٣) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١٢٦ «مخطوط» •

(١٤٤) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١٣٠ «مخطوط» • وانظر ايضا : النويري : نهاية الارب ، ج ٣٠ لوحة ٥٤ «مخطوط» ــ ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ص ١٧١ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٤ ص ٣٦٥ ــ ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٤ ص ٥١ ــ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ١٤٠ ــ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٦ ــ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٢٦٤ ، والمنهل الصافي ، ج ٣ لوحة ٢٤٧ «مخطوط» •

(١٤٥) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١٣١ «مخطوط» •

الدهليز وكان الناصر يجلس « على كرسي من الحديد الصيني[١٤٦] » فأقبل عليهم ورحب بهم وأكرمهم ، فقدم اليه قطلوبك الكتاب الذي تلقاه من قبل سلار ، فقرأه وأبدى اغتباطه بانضمام نائب السلطنة اليه . ثم خلع الناصر محمد على قطلوبك خلعة سنية ، وشد في وسطه منطقة مرصعة بالجوهر بألف دينار ، وخلع على بقية الامراء — ثم جعل مـــن قطلوبك استادارا له ، ومن الامير بهادر حاجبا . وعلى أثر ذلك تابـــع الناصر رحلته الى دمشق وبصحبته سائر الامراء الموالين لـــه وكانوا يرسلون البطائق من أذرعات ومن حسبان الى دمشق يعرفون الافرم بان الحاج بهادر وقطلوبك قد انضما الى الناصر ، وانهم في طريقهم الى دمشق[١٤٧].
فلما وصلت الرسائل الى الافرم سقط في يده ، فقرر الهرب ، فاستدعى الامير علاء الدين بن صبح مقدم الجبلية في السادس عشر من شعبان ، وخرج بحمايته حيث أقام في شقيف ارنون[١٤٨] Toron . فلما سمع بقدومه الشيخ الاسد الميداني ، وكان يقيم في قرية جزين من البقـــاع ويحكم على خمسة آلاف راجل ، استدعى أخاه واولاد عمه وطلب منهم ان يأخذوا معهم بعض الرجال ويمسكوا كل المنافذ المؤدية الى الساحل ويمنعوا الافرم من الهرب اكراما للناصر محمد[١٤٩] .

دخل الناصر محمد دمشق يوم الثلاثاء ١٧ شعبان ٧٠٩هـ (٢٠ يناير (كانون ثاني) ١٣١٠ م) في أبهمة عظيمة ، فزينت البلد لقدومه ، ودعا له المؤذنون في المآذن ، وخرج أهلها لاستقباله ، وصعد معظمهم على أسطح المنازل ليتمكنوا من رؤيته بوضوح حتى بلغ كراء السطح من خمسمائة

---

(١٤٦) العيني : نفس المصدر ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١٣٦ «مخطوط» .

(١٤٧) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١٣٧ «مخطوط» .

(١٤٨) شقيف أرنون : يطلق عليها ايضا «تبنين» وهي قلعة حصينة قرب صور تقع على جبل عال تحيط بها السهول ، وتبعد مسافة يوم الى الشمال من صفد .
(Le Strange, P. 535).

(١٤٩) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١٤٤ «مخطوط» .

درهم الى مائة درهم[١٥٠] وفرشت الارض بشقاق الحرير الملونة ، ونزل بالقصر الابلق • وخرجت المغاني لاستقباله وكان من بينها مغنية تسمى «ضيفة الحموية» كانت تغني والدفوف تقرع حولها قائلة[١٥١] :

ولقـــد نذرت بأن رأيتك سالمـا ونظرت وجهك أن أصـوم شهورا
حذرا عليك من الزمان وغـــدره حتى تعود مؤيـــدا منصـــورا

فأمر الناصر محمد لها بانعام كثيرة • ونثر الامراء الذهب واللؤلؤ عليه وكان موكبا حافلا لم تشهد دمشق مثيلا له من قبل • ثم بدأت تتوافد القوات المؤيدة للناصر واولها قوات صفد بقيادة سيف الدين بكتمر ، ثم قوات حلب بقيادة الامير قراسنقر ، ثم قوات طرابلس بقيادة الامير أسندمر ، وبعدها قواة حماة بقيادة الامير قبجق ، وأخيرا قدم الامير سيف الدين كراي المنصوري من القدس • فتلقاهم السلطان جميعا وخلع عليهم ، وقدموا تقادمهم الى السلطان فقبلها جميعا ، ومن جملتها التقدمة التي أهداها المؤرخ ابن الفداء اليه في ٢٤ شعبان وفي ذلك يقول : « فحصل من مولانا السلطان القبول والصدقة والمواعيد الصادقة بالتصديق علي بحماة على عادة أهلي وأقاربي »[١٥٢] ، ثم أرسل السلطان الناصر أمانا للافرم ، فقدم الى دمشق مطيعا معلنا الولاء ، فأكرمه السلطان وخلع عليه ، وتركه في نيابة دمشق كعادته ، ولم ينس الناصر محمد موقف تقي الدين سليمان قاضي الحنابلة الذي كان الافرم قد عزله لنقضه التوقيع على وثيقة تنازل السلطان محمد عن العرش فأعاده الى منصبه بعد أن أكرمه

---

(١٥٠) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ص ١٧٣ ـ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ص ٢١٤ ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ ق ٣ لوحة ٦٨٠ «مخطوط» المقريزي : السلوك، ج ٢ ص ٦٧ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١٤٥ «مخطوط» ـ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٢٦٥ • وقد شاهد ابن كثير موكب الناصر عند دخوله دمشق فوصفه بقوله : « وكنت فيمن شاهد دخوله يوم الثلاثاء وسط النهار في أبهة عظيمة وبسط له من عند المصلى ، وعليه أبهة الملك ، وبسطت الشقاق الحرير تحت أقدام فرسه ، والناس يدعون له ويضجون ضجيجا عاليا ، وكان يوما مشهودا » (أنظر : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٥١) •

(١٥١) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ص ١٧٤ •

(١٥٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٥٩ •

وخلع عليه(١٥٣) ،وهكذا أصبحت جميع البلاد الشامية موالية للناصر محمد فخطب له يوم الجمعة في سائر الممالك الشامية(١٥٤) ·

د ـ دخول الناصر محمد القاهرة وبداية سلطنته الثالثة :

كان السلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير قد أرسل بعض قواته من مصر لاغلاق الطرق والمسالك المؤدية الى الكرك ، منعا لامراء المماليك الخارجين عليه من الانضمام الى الناصر محمد(١٥٥) ، وعندما بلغته الانباء بحركة الناصر الاولى الى دمشق ، أمر بتجريد أربعة آلاف فارس بقيادة خمسة أمراء من مقدمي الالوف لمحاربة الناصر ، فخرجوا من مصر في التاسع من رجب ٧٠٩ هـ ونزلوا بمسجد التبر خارج القاهرة ، ولكنهم لم يلبثوا ان عادوا الى القاهرة عندما تلقى السلطان المظفر من نائبه بدمشق ما يفيد بأن الناصر محمد قد عاد الى الكرك(١٥٦) ،وعندماوردت الانباء مرة أخرى بحركة الناصر الثانية الى دمشق ، طلب من الخليفة والامراء تجديد العهد له(١٥٧) ، ثم أمر أعداد حملة وجهها الى الشام لمحاربة الناصر محمد(١٥٨) · ولكن معظم من اشترك فيها من الامراء والعسكر أعلنوا العصيان على المظفر وواصلوا سيرهم الى الكرك وانضموا الى معسكر الناصر معلنين ولاءهم له فأسقط في يد المظفر وخارت عزيمته ، وأحس بأنه أصبح وحيدا ، فسلار تمارض في بيته والامراء اكثرهم خرج الى الشام للقاء الناصر ، وأهل القاهرة ومصر لا يريدون سلطانا يتولاهم غير الناصر

---

(١٥٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٥٢ ·

(١٥٤) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ١٧٤ ·

(١٥٥) النويري : نهاية الارب ، ج ٣٠ لوحة ٥١ « مخطوط » ـ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ١٤٢ ـ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٠ ، ٦٣ ـ العيني : عقد الجمان ج ٢٢ ق ١ لوحة ١٤٩ ، ١٥٣ «مخطوط» ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٢٥٥ ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٤٦٩ «مخطوط» ·

(١٥٦) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ لوحة ٤٨٢ «مخطوط» ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٣٠ لوحة ٥١ «مخطوط» ، المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٣ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٢٦٠ ، والمنهل الصافي ، ج ١ لوحة ٣٦٨ «مخطوط» ·

(١٥٧) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ والمنهل الصافي ج ١ لوحة ٣٦٨ «مخطوط» ـ السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١١٢ ·

(١٥٨) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٤ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٦٢ ·

محمد ، فقد أحبوه وتعلقوا به(١٥٩) • وازاء هذه الظروف طلب من الامراء المشورة ، فأشاروا عليه يخلع نفسه والتنازل عن السلطنة فاستجاب لهم وخلع نفسه وأشهد على ذلك • ثم أرسل الى الناصر في دمشق يسأله العفو والامان وأن يهبه حصنا يقيم فيه ، أما الكرك أو حماة أو صهيون •

ومن عجيب الصدف ان يكون اليوم الذي تنازل فيه المظفر عن السلطنة هو تفس اليوم الذي خرج فيه الناصر محمد من دمشق متجها الى الديار المصرية فقد خرج الناصر يوم الثلاثاء ١٦ رمضان ٧٠٩ هـ(١٦٠) ، بجيش الشام بكماله من سائر مدنه وأقاليمه بنوابه وأمرائه(١٦١) ، بعد أن أنفق على اعداده من خزائن الكرك أموالا ضخمة برسم التوجه الى مصر(١٦٢) • وعندما اجتاحت قوات الناصر منطقة شمالي الاردن ما بين اربد والقصير وقبيل وصولها الى العقبة المشرفة على وادي الاردن ، انضمت اليه قوة من المماليك السلطانية كانت قادمة من مصر تستحثه على سرعة السير الى مصر(١٦٣) • ثم تلقى بعد وصوله الى غزة وثيقة تنازل المظفر عن السلطنة مع المؤرخ بيبرس الدوادار(١٦٤) ، وهناك قرر الناصر محمد ان

---

(١٥٩) النويري : نهاية الارب ج ٣٠ لوحة ٥١ «مخطوط» ــ ابن خلدون : العبر ج ٥ ص ٢٢٣ ــ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٤٤ ــ المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٧٠ ، ٧٣ ــ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٧٣ «مخطوط» ــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٢٦٤ •

(١٦٠) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١٦٧ « مخطوط » ــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٣ •

(١٦١) العيني : المصدر السابق ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١٥٥ «مخطوط» •

(١٦٢) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢٥٧ •

(١٦٣) النويري : نهاية الارب ، ج ٣٠ لوحة ٥٥ «مخطوط» •

(١٦٤) النويري : نهاية الارب ، ج ٣٠ لوحة ٥٢ «مخطوط» ــ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٢٣ ــ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ١٤٤ ، ١٤٦ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٧١ ــ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ١٦٦ ، ١٦٧ «مخطوط» ــ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٥ ــ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٤٧١ ، ٤٧٢ «مخطوط» •

يقطع المظفر قلعة صهيون(١٦٥) . ثم تابع السلطان سيره الى مصر ، وكانت العساكر المصرية وكبار امراء المماليك ينضمون اليه فوجا بعد فوج في طريقه الى مصر الى ان دخل قلعة الجبل في مستهل شوال ٧٠٩هـ (٤ مارس (ذار) ١٣١٠م) .

وما أن استقر الناصر محمد في سدة الحكم حتى بدأ أجرأ عملية تطهير في صفوف أمراء المماليك وأضخمها على الاطلاق في تاريخ الدولة المملوكية . فقد ألقى القبض على الأمراء الذين كان يشك في اخلاصهم له بدأ بالمظفر بيبرس الجاشنكير نفسه ، فأمر باعتقاله وهو في طريقه الى صهيون ثم بخنقه . أما سلار فقد طلب من الناصر التوجه الى الشوبك وكانت من جملة اقطاعه ، فأذن له ثم طلبه الى مصر وسجنه ومنع عنه الطعام الى أن مات في سجنـــه جوعا ، فصادر السلطان كل ثروتـــه وأملاكه(١٦٦) أما بقية الامراء الذين كانوا يعارضونه فقد شتت شملهم فهرب بعضهم الى التتار وأقاموا هناك(١٦٧) ، « وتغيرت الدولة وانقلبت

(١٦٥) ابو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٦٠ ــ النويري : نهاية الارب ، ج ٣٠ لوحة ٥٢ «مخطوط» ــ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢٥٧ ــ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٢٤ ــ ابن دقماق : الجوهر الثمين لوحة ١٤٦ «مخطوط» ــ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٥ ، والمنهل الصافي ، ج ١ لوحة ٣٦٩ «مخطوط» .
Lane Poole, AHistory of Egypt, P. 306.

(١٦٦) وجد لدى سلار ثروة هائلة استولى عليها السلطان جميعها . ويذكر النويري السكندري ان من جملة ما وجد لسلار في الشوبك « من الذهب المصري خمسة وتسعين ألف دينار ، وستمائة ألف وتسعين الف درهم ، وخمسمائة سرج مذهب بلؤلؤ ، والف وسبعمائة وثمانون فرس من الخيول العربية ، ومـــن الاكاديش والحجورة السيسيتات الفين وسبعمائة ، ومن البغال المعدة للحمل مائة وعشرون ، ومن الهجن البكيرات سبعمائة هجين ، ومن الجمال المعدة لحمل الاثقال الف ومائتي جمل ، بالاضافة الى ما وجد لنسائه من ذهب وفضة وقماش » (أنظر : الالمام بما جرت به الاحكام المقضية لوحة ١٧٤ ب «مخطوط») . أما ابن دقماق والمقريزي فيتفقان على انه وصل صحبته من الشوبك من الذهب المصري خمسون ألف دينار ومن الدراهم اربعمائة الف وسبعون ألف درهم ، بالاضافة الى ثلاثمائة خلعة ملونة (ابن دقمان : الجوهر الثمين ، لوحة ١٤٧ ــ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٩٨) .

(١٦٧) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ص ٢٢٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٦٣ ، ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٢٥ ، المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ١١٥ ــ أبو المحاسن : المنهل الصافي ، ج ٣ لوحة ٢٤٨ «مخطوط» .

قلبة عظيمة»[١٦٨] • وهكذا تخلص الناصر من هؤلاء الأمراء الذين عانى من تقلبهم عليه ، وتسلطهم على أمور الدولة في مصر والشام • فهدأت الأحوال واطمأنت النفوس ، وعم الرخاء سائر البلاد[١٦٩] • ولهذا السبب كان عهده في السلطنة اطول عهود سلاطين المماليك سواء في عصر دولتهم الاولى او الثانية • فأمسك بيد من حديد على أزمة الامور ، وشهدت مصر والشام في عهده أزهى عهود حضارتنا وتقدمها في شتى أنواع العلوم والفنون والآداب •

(١٦٨) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٥٣ • ونرى ان ما فعله الناصر محمد حين تولى سلطنته الثالثة ، هو ما نطلق عليه الآن بلغة العصر ثورة التصحيح وحول هذا التطهير يقول ابو المحاسن : « كان يأخذ نفسه بالحزم البعيد والاحتياط وأمسك الى أن مات مائة وخمسين أميرا » (انظر : المنهـل الصافي ، ج ٣ لوحـة ٢٤٩ «مخطوط») •

(١٦٩) يقول ابو المحاسن : « وما رأى الناس سعادة ملكه ومسالمة الايام وعدم حركة الاعادي في البر والبحر هذه المدة الطويلة من بعد شقحب الى ان مات (انظر : المنهل الصافي ج ٣ لوحة ٢٥٠ «مخطوط») •

(٦)

مظاهر اهتمام الناصر محمد بمنطقة شرقي الاردن

شمل الناصر محمد بن قلاوون كل بلاد الشام برعايته وعظيم اهتمامه ، فلم ينس لهم وقفتهم بجانبه عندما أعلن ثورته مطالبا باسترداد عرشه ، الا أن منطقة شرقي الاردن حظيت بنصيب الاسد من هذا الاهتمام فأمهرها بمنشآته العديدة وخفف المكوس عن أهلها ، واختصها بزياراته المتكررة . وفيما يلي عرض لأهم هذه المظاهر :

أولا : ما يتعلق بأعمال الانشاء والتعمير :

أ ـ في منطقة الكرك :

تعرضت بلاد الشام لزلزال عنيف وقع في سنة ٧٠٢هـ (١٣٠٢م) عم الساحل كله ، وامتدت آثاره المدمرة الى الكرك والشوبك[(١٧٠)] ، والجزء الشمالي من شرقي الاردن ، فتسبب في تدمير كثير من المنشآت بجميع هذه المناطق . فبادر الناصر محمد باعادة بنيان ما هدمه الزلزال في جميع أنحاء دولته بدأ بالكرك والشوبك والقسم الشمالي من المنطقة .

وفي سنة ٧١١هـ (١٣١١م) استناب الناصر محمد الامير سنجر بن عبد الله الجاولي ليتوجه الى الكرك ، ويتولى بناء عدد من المنشآت من بينها قصر للنيابة ومسجد جامع وحمام وخان أوقفه للسبيل ، ومدرسة لتدريس المذهب الشافعي ، فقام بانشائها جميعا ثم أقام الميدان ووسعه ونظمه ، وقد اختتم هذه الاعمال الانشائية ببيمارستان اعتنى بانشائه وعهد الى نخبة ممتازة من الاطباء بالخدمة فيه[(١٧١)] . فالناصر محمد على

---

(١٧٠) العيني : عقد الجمان ج ٢٣ ق ٢ لوحة ٢٩٧ ، ٢٩٨ «مخطوط» ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٤٣٤ ، ٤٣٥ «مخطوط» .

(١٧١) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ ص ٢٦٧ .

وكان الناصر ينتدب علم الدين سنجر الجاولي في مهمات كثيرة في الشام ، فقد انتدبه للروك الناصري ، وانتدبه سنة ٧١٣هـ لايصال الماء من عين قرب مدينة الخليل الى القدس (أنظر : ابن حبيب : درة الاسلاك ، ج ١ لوحة ٩٨ «مخطوط» .

هذا النحو اول من مدن الكرك ومصرها بمنشآته الدينية والمدنية والمباني ذات المنافع العامة •

ولم ينس الناصر محمد منطقة المساجد في مؤتة فعهد الى سيف الدين بهادر بن عبد الله البدري نائب السلطنة بالكرك ببناء مسجد على ضريح جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، ونستدل على ذلك من نقش نشاهده الآن مثبتا على البوابة الخارجية للبناء الحديث ، يتألف من خمسة سطور نقرأ فيها النص التالي :

« بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هـــذه التربة المباركة العبد الفقير الى رحمة القدير رجاء لرحمة الله ورضوانه مستشفعا عنده بجيرانه بهادر البدري الملكي الناصري نائب السلطنة المعظمـــة بالكرك والشوبك المحروستين وكان الفراغ منه في ثاني ذي الحجة عام سبعة وعشرين وسبعمائة »(١٧٢) •

وفي منطقة وادي موسى • جدد ضريح النبي هارون القائم على قمة جبل هارون في مواجهة اطلال البتراء ، حيث نشاهد لوحة مثبتة فوق الباب الرئيسي للمقام نقش عليها النص التالي :

« بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله محمد رسول الله أمر بانشاء هذا الضريح المبارك وتجديده مولانا السلطان الملك الناصر المجاهـد المرابط المثاغر ناصر الدين قسيم أمير المؤمنين أعز الله أنصاره ، وذلك بمباشرة الامير الكبير سيف الدين الركني (؟) ••••• ثلاثين وسبعمائة »(١٧٣) •

---

(١٧٢) أنظر النص ق :
Brunnow, P rovincia Arabia, vol. 1, P. 14.
Combe, Sauvaget, wite,
Repertoire chronologique d'Epigraphie Arabe, vil. 14, P. 233.
قسم التسجيل بدائرة الآثار العامة ـ عمان ـ الاردن •

(١٧٣) Combe, Sauvaget, wie, op. cit. vol. 15, P. 113.

ب ـ العقبة :

أما في العقبة ، فقد أمر الناصر محمد بن قلاوون بالغاء قلعة العقبة الواقعة في البحر ، وهـي ما عرفت في المصادر اللاتينيـة بقلعة جرى Le Graye وأمر بنقل والي العقبـة وعساكره منهـا الى البرج في الساحل(١٧٤) . وفي سنة ٧٣٢هـ (١٣٣١م) انتدب الناصر محمد الامير أيتمش لتمهيد عقبة أيلة وهي العقبة التي تشرف على المدينة من جهة مصر ، وكانت وعرة المسالك ، فارسل معه مائة رجل من الحجارين فوسعها ، وأزال وعرها ، وقطع ما بها من الصخور التي كانت سببا في ضيق الطريق . ومنذ ذلك الوقت أصبح الصعود اليها سهلا كما أصبح مرور القوافل والحجاج عبرها ميسورا(١٧٥) .

جـ ـ الصلت :

كان سيف الدين بكتر الحسامي (ت ٧٢٩هـ) قد أطلق أوقافا جليلة في مصر والشام(١٧٦) . منذ أن تدرج في مناصب الوزارة فالحجوبيـة بدمشق ، ثم نيابة غزة وأخيرا نيابة صفد ، الى أن عزله الناصر محمد بن قلاوون عن نيابتها في سنة ٧١٨هـ ، فقدم القاهرة وصار من كبار الامراء فيها(١٧٧) ، وفي مصر تولى الوزارة ، وترقى الى رتبة حجوبية الحجاب . ومن جملة أوقافه في الاردن : سوق الخليع وقيسارية التجار في مدينة عجلون(١٧٨) . اما في مدينة الصلت فقد بني فيها المدرسة السيفية(١٧٩) التي نسبت اليه في سنة ٧٢٤هـ (١٣٢٤م) ، لخدمة العلم وابتغاء ثواب الله ، على عادة الامراء والسلاطين المماليك آنذاك .

---

(١٧٤) أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ٨٧ .

(١٧٥) النويري : نهاية الارب ، ج ٣١ لوحة ١٢٨ «مخطوط» ـ المقريزي ، السلوك ج ٢ ص ٣٥٣ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٣ ق ١ لوحة ١٧١ «مخطوط» أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ١٠٤ ـ السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٥ .

(١٧٦) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(١٧٧) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٥٦ ، ٢٧٨ .

(١٧٨) النويري : نهاية الارب ، ج ٣١ لوحة ٩٠ ، ٩١ «مخطوط» .

(١٧٩) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ص ٢٧٥ .

د ـ عجلون :

كانت ولاية عجلون في عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون تابعة لدمشق وكانت مدينة عجلون اذ ذاك مدينة كبيرة زاهرة ، ذات أسواق عامرة وخيرات وافرة وبساتين وفواكه كثيرة · ففي ٢٢ ذو القعدة ٧٢٨هـ (أول أكتوبر (تشرين اول) ١٣٢٨م) تعرضت هذه المدينة لريح عاتية وعاصفة هوجاء ، فتراكمت السحب في السماء ، وتفتحت عيون السماء تصحبها رعود مدوية روعت الناس حتى ظنوا « أنها قد أزفت الآزفة »[١٨٠] · ثم اجتاح المدينة سيل جارف تجمعت مياهه من الامطار الغزيرة التي تساقطت على الجبال المحيطة بالمدينة ففاض الواديان اللذان يشقان المدينة : أحدهما وادي الجود يشقها من الشمال الى الجنوب ، ويلتقي مع وادي جنان (عين جنة) الذي يشق المدينة من جهة الشرق ، ويلتقيان قرب المسجد الجامع في قلب مدينة عجلون · ودمرت السيول المنشآت القائمة على ضفاف الواديين ، ثم التقى الماء فيهما مشكلا سيلا عرما مروعا عرضه بقدر رمية حجر أما ارتفاعه فكان قدر قامتين او اكثر ، اجتاح المدينة ونشر الدمار والخراب في كل مكان · فترك الناس أموالهم وأملاكهم واعتصموا بالجبال فجرف السيل كل ما قابله في طريقه من الدور والقياسر والاسواق ، كما دمر الطواحين والبساتين · وسجل المؤرخون جملة ما هدم على النحو التالي :

١ ـ جانب من حارة المشازقة المجاورة للوادي ·

٢ ـ بعض سوق الآدميين وسوق القطانين ، وسوق الاقباعين ، وسوق الخليع ، وسوق البز العتيق ·

٣ ـ قيسارية التجار التي أنشأها الامير سيف الدين بكتمر · وكذلك القيسارية التي بناهـا الامير تنكز نائب دمشق ووقفهاعـلى

(١٨٠) النويري : نهاية الارب ، ج ٣١ لوحة ٩٠ « مخطوط » ، وانظر : ابن حبيب درة الاسلاك ، ج ٢ لوحة ٢٨ «مخطوط» ·

البيمارستان الذي بناه في مدينة صفد[181] ، فأخذ السيل منها عشرين حانوتا ، اما بقية القيسارية فقد ردمت على ما فيها ، وطمرت السلع بالاخشاب والاحجار والطين ، حتى ان جملة ما سلم من القيسارية لم يتجاوز العشرين في المائة .

٤ ـ وهدم كذلك قسما كبيرا من القيسارية القديمة وسوق الصاغة ، وسوق الفامية الواقع قرب عين عجلون ، كما هدم وقف الجامع ، وسوق السقطيين والحصريين ولم يكتف بذلك بل هدم السوق الذي أنشأه الامير علاء الدين بن معبد ، وسوق اللحامين ، وكذلك حوانيت الخبازين ، وحوانيت الطباخين ، وحوانيت العجز ولم يسلم السوق الذي بناه الامير سيف الدين[182] ، الذي كان بقلعة عجلون . وهدم أيضا الحوانيت الموقوفة من قبل القاضي فخر الدين ناظر الجيوش المصرية على مدرسته بنابلس .

٥ ـ المدرسة اليقينية ، والرواق القبلي لجامع عجلون وبابه الشرقي وطهارته والمربعة ، بسبب تدفق الاخشاب والطين داخل الجامع ، الى أن وصلت الى القناديل المعلقة في وسطه .

٦ ـ جانب من الحمام الصالحي ، وقسم من الحمام السلطاني ، والمصبغة والدباغة ، وحوانيت الفرايين والعلافين ، وحوانيت الدق .

٧ ـ دار الطعم (الوكالة) ، هذا وقد ردمت العين بالاحجار والاخشاب والصخور حتى خاف أهل عجلون أن تغور المياه فيها . وشمل الخراب أيضا جانبا من مسلخ المعز والضأن .

وهكذا تسببت السيول في هدم كل هذه المباني المتنوعة بما كانت تشمل عليه من الامتعة والبضائع،عدا ما اتخذه من غلال ومواشي وبساتين

---

(١٨١) عن بناء هذا البيمارستان أنظر :
ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ١٨٧ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ١٥٨ .

(١٨٢) ذكر ابو المحاسن أن الامير سيف الدين منكبرس الذي توفي سنة ٧١٨هـ كان نائبا في عجلون . وهو من قدامى المماليك المنصورية (أنظر : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٢٤٣) .

وطواحين وقناطر خارج المدينة(١٨٣) ، مما ترتب عليـــه خسارة كبيرة للمدينة وسكانها . وقد استمرت السيول تأتي على عمران المدينة مـــن الصباح حتى العصر ، ثم أخذت المياه تنحسر تدريجيا حتى توقف السيل . ولحسن حظ الاهالي ان السيول دهمت المدينة أثناء النهار ولهذا اتخذ الناس حذرهم ، وهربوا من طريقه . ولو انه وقع ليلا لكانت الخسائر أضعاف ذلك سواء في الاموال او الارواح ، فلم يغرق من عجلون سوى سبعة أشخاص ، أما المواشي فأهلك عشرة أبقار فقط(١٨٤) .

ولما وصلت أنباء هذا السيل وما تسببه من دمار وخراب الى سيف الدين تنكز بن عبد الله (ت ٧٤١هـ) نائب دمشق أسرع بندب من يقوم بترميم ما تهدم من مدينة عجلون والوقوف الى جانب سكانها في محنتهم هذه . فأعيد بناء الاسواق والقياسر والطواحين والحمامات ، أما الجامع فقد أعيد بناء الرواق القبلي والطهارة ونظف من المياه والطين والاخشاب التي تراكمت بداخله . أما بابه فقد أعيد بناؤه ولم يتم ذلك الا في سنة ٧٣٢هـ أي بعد وقوعه بسنتين تقريبا ، ونستدل على ذلك من لوحة كانت مثبتة في أعلى الباب الرئيسي للجامع الذي تهدم حديثا بسبب التنظيمات الجديدة للمدينة ، لذا نقلت الحجارة التي تحمل هذا النقش واعيد بناؤها في ساحـــة المسجد دونما ترتيب عـــلى يمين الداخل الى الجامع(١٨٥) . ولم يكتف نائب دمشق بذلك ، بل قام ببناء جامع آخر في مدينة عجلون(١٨٦) ، بالاضافة الى أملاكه ومنشآته بعجلون التي أوقفها جميعا على أعمال البر والخير(١٨٧) .

---

(١٨٣) النويري : نهاية الارب ج ٣١ لوحة ٩٠ ، ٩١ «مخطوط» ـ وانظر ايضا : ابن حبيب : درة الاسلاك ، ج ٢ لوحة ٢٨ «مخطوط» ـ العيني : عقد الجمان ج ٢٤ ق ١ لوحة ١٣ «مخطوط» ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٥٤٧ «مخطوط» .

(١٨٤) انظر نص وصف هذا السيل في الملاحق ، اما عن الاسواق والقياسر في عجلون فانظر شرحا عنها في الفصل التاسع (موضوع التجارة الداخلية) .

(١٨٥) انظر نص هذا النقش في الفصل الثاني عشر عند التحدث عن جامع عجلون .

(١٨٦) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ١٨٧ .

(١٨٧) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ١٥٨ .

هـ ـ الأغـوار :

عرف الامير سيف الدين تنكز نائب دمشق بكثرة انشاءاته في بلاد الشام . حتى قيل : أنه عمرها ومهد نواحيها(١٨٨) . كما وحظيت منطقة الأغوار بعنايته باعتبارها المعبر الوحيد الذي يربط دمشق بالقاهرة ، هذا بالاضافة الى أنها تضم قبور بعض الصحابة رضي الله عنهم ومنها ضريح أبي عبيدة بن الجراح الموجود في قرية عمتا من غور الاردن ، فجعل لخادم هـذا الضريح راتبا شهريا ، وبقي هـذا الراتب جاريا منذ عهده(١٨٩) وبنى أيضا في الغور طاحونا قدرت قيمته بثلاثين ألف درهم(١٩٠) .

ثانيا : مظاهر اهتمامه بالمنطقة :

ويتمثل ذلك في الامور التالية :

١ ـ حرصه على تطبيق العدالة وازالة المكوس :

لم ينس الناصر محمد بن قلاوون الوقفة الشجاعة التي وقفها أهالي حوران وعجلون معه في الفترة العصبية التي مرت به أثناء تقدمه من الكرك الى دمشق للاستيلاء عليها . فزعيم عرب آل زبيد سكان تلك المناطق كان في صفوف قواته ، وأهالي حوران استقبلوه بالمناسف حملوها على رؤوسهم وقدموها له ولقواته . ولذلك لم يتردد عند اعتلائه عرش السلطنة في اعفائهم من المكوس التي كان يتحصل عليها منهم . الا أن الامير قراسنقر نائب الشام ظلم أهالي حوران بسبب كثرة الجبايات منها وفساد أعوانه . فثارت القبيلة بين القيسية واليمانية وسبب خسائر كثيرة للطرفين(١٩١). ولما وصلت أنباؤها الى الناصر محمد في القاهرة كتب الى نائب دمشق في سنة ٧١٠هـ (١٣١٠م) كتابا يلومه فيه على ظلمه

---

(١٨٨) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ١٥٣ ، وانظر حصرا لما خلفه من الاملاك في بلاد الشام ومصر في النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ١٥٤ ـ ١٥٨ .

(١٨٩) العمري : مسالك الابصار ، ج ١ ص ٣١٧ .

(١٩٠) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ١٥٨ .

(١٩١) ابن أيبك : كنز الدرر ، ج ٩ ص ٢٠٦ ـ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ص ٢١٥ .

وجوره وكثرة جباياته ، وشكوى الناس منه ، ويأمره بالقضاء على الفتنة والقبض على المتسببين فيها . كما يطالبه بكف يد أعوانه عن الجباية في حوران التي كان الناصر نفسه قد أصدر مرسوما بمسامحة أهلها من الجبايات المفروضة عليهم(١٩٢) ، وأخيرا أمره بعزل أعوانه الذين ولاهم أكثر أعمال دمشق وأحضرهم معه من حلب – ووصفهم (بشياطين حلب) . كما طالبه بعزل مماليكه الذين ولاهم وظائف دمشق وبلادها وأعمالها وان يكون التعيين في هذه الوظائف باشراف شاد دواوين دمشق الذي ولاه السلطان بنفسه للقيام بهذه المهمة . كذلك أمره أن يولي بدلا من أعوانه الحلبيين ومماليكه أشخاصا يختارهم من أعيان الحلقة ومشايخها ممن عرفوا بالنزاهة والاستقامة كي يوصلوا حقوق الاجناد اليهم ، ويرحموا الفلاحين وسكان تلك البلاد . وهدده بالحضور بنفسه لاصلاح الامور اذا هو خالف ما امره به(١٩٣) .

وفي سنة ٧١٦هـ (١٣١٦م) عمد الناصر محمد مرة أخرى الى أبطال كل المكوس في البلاد القبلية(١٩٤) – حوران وعجلون والبلقاء – وأمر أيضا سنة ٧٢٤هـ (١٣٢٤م) بابطال المكوس ببلاد الشام كلها ، من ذلك مكوس الغلة . وكانت العادة ان يؤخذ عن كل غرارة ثلاثة دراهم ونصف وكان مجموع ما يتحصل منها سنويا ، ألف ألف ومائتي ألف درهم او يزيد(١٩٥) . ووصف بعض المؤرخين مجموع ما سامحهم به بانه « جملة تخرج عن الاحصاء »(١٩٦) .

---

(١٩٢) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ١ لوحة ٢١٥ «مخطوط» .

(١٩٣) انظر نص الكتاب المرسل من الناصر محمد الى نائب دمشق قراسنقر بخصوص أهالي حوران في الملاحق .

(١٩٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٧٥ .

(١٩٥) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٣ ق ٣ لوحة ٤٤٢ «مخطوط» – ابن طولون : اعلام الورى بمن ولى نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ، ص ٣١ – وانظر : ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٥٣٢ «مخطوط» .

(١٩٦) ابو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٩٥ – وانظر ايضا : النويري ، نهاية الارب ج ٣١ لوحة ١٩ «مخطوط» – الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ص ٢٣٢ .

٢ ـ زياراته للمنطقة :

أ ـ الكرك :

في سنة ٧١٢هـ (١٣١٢م) توجـــه السلطان لحرب التتار(١٩٧) وفي الطريق وردته الانباء برحيل التتار وعودتهم الى بلادهم فسر لذلك وأمر بتفريق العساكر في عسقلان وبلاد الشام وتوجه الى دمشق فأقام بهــا أياما ، ثم غادرها منجها الى الحجاز لاداء فريضة الحج فمر بالكرك أولا ودخلها في ١٨ ذو القعدة حيث رتب من هناك أموره للحج واصطحب معه أربعين أميرا(١٩٨) ، سار بهم جميعا الى الديار المقدسة وعند عودته من الحج نزل بالكرك من جديد فاستقبله أهلها استقبالا حافلا بالزينات في كل مكان وخرج الجميع لاستقباله هاتفـــين مرحبين · ورمي أمامـــه بالمجانيق(١٩٩) التي أمر بصنعها في دمشق خصيصا لقلعة الكرك · وقدموا اليه التقادم ، فخلع على نائبها سيف الدين بيبغا الاشرفي كما خلع على والي قلعتها · أقام الناصر محمد في الكرك أياما بقصد الراحة ثم تابع رحلته بعد ذلك الى دمشق فهرع الناس لاستقباله واعتلوا أسطح المنازل للنظر الى موكبه السلطاني حتى أن بيتا أجر من الصباح الى الظهر بمبلغ ستمائة درهم(٢٠٠) · وشاهده المؤرخ ابن كثير يوم دخوله « وعلى شفته ورقة قد ألصقها عليها »(٢٠١) · مكث السلطان في دمشق خمسة عشر يوما ثم غادرها الى عاصمة ملكه فدخل قلعة الجبل في ١٢ صفر ٧١٣هـ ·

---

(١٩٧) ابو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٧٣ ـ النويري : نهاية الارب ، ج ٣١ لوحة ٧٨ «مخطوط» ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٦٧ ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٢٦ ـ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ١١٩ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ٢ لوحة ٤٣٤ «مخطوط» ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٣٥ والمنهل الصافي ج ٣ لوحة ٢٤٨ «مخطوط» ·

(١٩٨) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ١١٩ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٢ ق ٢ ، لوحة ٤٣٥ «مخطوط» ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٣٥ ·

(١٩٩) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٣ ق ١ لوحة ٢ «مخطوط» ـ ابن بهادر : فتوح النصر · لوحة ٤٩١ «مخطوط» والظاهر ان عادة الرمي بالمدافع أمام الزائر في الوقت الحاضر مأخوذة من هذه العادة لاستقبال الزوار الكبار في العصور الوسطى ·

(٢٠٠) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ١٢٣ ·

(٢٠١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٦٩ ·

وفي سنة ٧١٩هـ (١٣١٩م) خرج السلطان محمد الناصر لأداء فريضة الحج من القاهرة ، الا انه لم يتوقف هذه المرة بالكرك واكتفى بارسال خزانة ماله اليها • وبعد أن أدى الحج أقام في العقبة ثلاثة أيام الى أن وافته خزانته من الكرك(٢٠٢) ، ثم رحل بعد ذلك الى الديار المصرية •

ب ـ حسبان :

لم ينس الناصر محمد بن قلاوون منطقة البلقاء التي أيده أهلها أيام محنته ووقفوا الى جانبه ، فآثر أن يتوجه اليها بنفسه تعبيرا عن اعزازه الخالص لأهلها ، ففي جمادى الاولى سنة ٧١٧هـ (يوليو (تموز) ١٣١٧م) ، خرج السلطان من الديار المصرية وبصحبته خمسون أميرا مستهدفا زيارة مدينة حسبان بالبلقاء • فوصل اليها في ١٦ جمادى الاولى وأقام ينظر في أحوالها وأحوال سكانها وعربانها ، فأسبغ على الجميع عطاياه وشملهم بعطفه وفي أثناء اقامته بحسبان ورد عليه الامير تنكز بن عبد الله نائب السلطنة بدمشق ومعه جماعة من امراء الشام يحملون اليه التقادم ، فخلع عليهم وأكرمهم • ولما علم المؤرخ أبو الفداء الذي كان الناصر قد ولاه نيابة حماة سنة ٧١٠هـ(٢٠٣) بقدوم السلطان الى حسبان أرسل تقدمته اليه مع مملوكه طيدمر الدوادار فقبلها السلطان منه ، وأرسل اليه تشريفا كاملا وخلعة ومبلغ ثلاثين ألف درهم وخمسين قطعة قماش • ثم قفل الناصر محمد عائدا الى الديار المصرية بعد أن انتهى من تفقد احوال منطقة البلقاء ورتب أمور مدنها وقراها وعربانها واطمأن الى أحوالهم • وفي طريقه الى مصر مر ببيت المقدس ثم بالكرك حيث أمر بالافراج عن بعض الامراء المسجونين في قلعتها ومنهم : المؤرخ بيبرس الدوادار الذي خلع عليه واعاده الى أمرته(٢٠٤) •

---

(٢٠٢) أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ٨٩ •

(٢٠٣) السبكي : طبقات الشافعية ، ج ٦ ص ٨٤ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٣ •

(٢٠٤) النويري : نهاية الارب ، ج ٣١ لوحة ١٠٣ «مخطوط» ـ المقريزي : السلوك ج ٢ ص ١٧٢ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٣ ق ١ لوحة ١٠٩ ، ١١٠ «مخطوط» أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٥٦ ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٥٠٥ «مخطوط» •

٣ ـ ارسال أولاده للاقامة في الكرك :

أصبح للكرك شأن كبير في عهد الناصر محمد بن قلاوون ، فبالاضافة الى أنه اتخذ قلعتها مستودعا أمينا لأمواله وسلاحه ، فقد خصها بعنايته ووقع عليها اختياره دون غيرها من مدن الشام ومصر لتكون مقاما لأبنائه وميدانا لتدريبهم على الفروسية وأعمال الحرب والصيد • وعهد الى نائب السلطنة فيها بتربيتهم وتأديبهم(٢٠٥) • ففي سنة ٧٢٦هـ (١٣٢٦م) أرسل اليها الامير احمد أكبر أولاده وكان لا يتجاوز من العمر ثمان سنوات في سبعين مملوكا ليكونوا في خدمته(٢٠٦) ، وأرسل معهم خزانة مال لتودع في قلعتها • ولم تمض خمس سنوات حتى أرسل ابنه الامير ابراهيم ليقيم عند أخيه في مدينة الكرك(٢٠٧) ولم يلبث بعد ذلـــك أن أردفهما بولديه أبي بكر ورمضان اللذين أقاما فيها فترة استدعاهم بعدها الى القاهرة حيث أمرهم ، واحتفل لهذه المناسبة احتفالا مهيبا(٢٠٨) • والظاهر أنه أعادهما بعد ذلك الى الكرك بدليل أنه استدعى ابنه أبا بكر من الكرك في سنة ٧٤٠هـ (١٣٣٩م) ، فامتثل أبو بكر وهو يحمل اليه هدية نفيسة قيمتها مائة ألف درهم وقيل مائتين(٢٠٩) ، فولاه الناصر ولاية العهد في ذي الحجة من هذا العام ، وحلف له الامراء والخاصكية والأعيان(٢١٠) • أما الامير أحمد أكبر أبنائه فقد أبقاه بالكرك وقلده امارتها ، وفي أثناء

---

(٢٠٥) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٢٧٢ ، ٣٣٥ •

(٢٠٦) النويري : نهاية الارب ، ج ٣١ لوحة ٦٢ «مخطوط» ـ ابن بهادر : فتوح النصر لوحة ٥٣٥ «مخطوط» • وانظر ايضا : الجزري : تاريخ الجزري ، ج ١ لوحة ٦ «مخطوط» •

(٢٠٧) ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٢٩٦ ـ مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٨٣ ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ، ج ١ لوحة ٣٤ «مخطوط» المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٣٣٣ •

(٢٠٨) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٦ ص ١٣٨ ـ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٣٣٤ ٥٢٣ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ١٦٤ والمنهل الصافي ج ١ ص ١٤١ طبعة دار الكتب ١٩٥٦م •

(٢٠٩) ذكر المقريزي : انه جمع ثمن هذه الهدية من الناس على سبيل القرض ، وانه لم يكن يتردد عن قتل كل من امتنع عن اقراضه ، فمات بسبب ذلك عدد من الناس (أنظر : السلوك ، ج ٢ ص ٤٩٢) • "

(٢١٠) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٤٩٩ •

مقامه هناك ارسل تقليدا بنيابتها الى الامير سيف الدين ملكتمر السرجواني الذي جعله في خدمة ولده احمد ، وأمره أن يتصرف في الامور بين يديه وبعد أخذ مشورته(٢١١) • وقد وصف الناصر الكرك في هذا التقليد بأنهـــا المدينة التي لم يخلق مثلها في البلاد ، كما وصف أرضها بقوله : « أرض تمت بأنها لنا سكن ، وتمت مناقبها في قلوبنا من حب الوطن ، واستقرت للمقامات العالية أولادنا »(٢١٢) • ثم انه أوصاه في هذا التقليد بجيشها وأهلها خيرا ، وأن يسوسهم بالعدل والاحسان ، غير أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون لم يلبث أن أسند نيابة السلطنة فيها الى ولده أحمد مستقبلا ، بينما أبقى الامير ملكتمر السرجواني قائما بين يديه في الخدمة وارسل الى ابنه تقليدا بذلك ، ذكر فيه ان منطقة الكرك تمتاز باختصاصها بالحرمين الشريفين(٢١٣) ، وأوصاه فيه خيرا بأمرائها وأجنادها وسكانها الذين اعتبرهم شيعته ، وفي ذلك يقول : « وهؤلاء هم شيعتنا قبلك ، ورعيتنا الذين هم لنا ولك ، فرفرف عليهـــم بجناحك ، وخذهـــم بسماحك »(٢١٤) •

٤ ـ مواقفه الودية من أهالي المنطقة :

نستدل من العبارة السابقة مدى المكانة التي كان يشغلها سكان المنطقة في نفس الناصر محمد بن قلاوون ، فقد حباهم بحبه وعطفه ، وخصهم بعنايته ، وكفل لهم العدالة والانصاف • ومع ذلك فلم يكـــن يتسامح على الاطلاق مع مثيري الفتن والقلاقل ، أو يهادن الخارجين عـــلى سلطانه في هذه المنطقة ، فيبادر على الفور الى قمعها • ففي سنة ٧١٧هـ (١٣١٧م) شق نفر من أعراب منطقة الكرك من بني نمير وبني ربيعة عصا

---

(٢١١) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٢ ص ٢٢٤ •

(٢١٢) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٢ ص ٢٢٤ •

(٢١٣) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ١٢ ص ٢٢٨ •

(٢١٤) القلقشندي : المصدر السابق ، ج ١٢ ص ٢٢٥ ـ وانظر نص هذا التقليد في المصدر نفسه من صفحة ٢٢٦ ـ ٢٣٢ •

الطاعة على السلطة وجعلوا من قلعة سلع Sala (الحبيس)[٢١٥] الواقعة في وادي موسى عند المدخل الغربي المؤدي لمدينة البتراء مركزا لحركتهم بالاضافة الى المناطق الجبلية المجاورة التي تحصنوا فيها . فأمر السلطان الامير سنجر الجاولي نائب غزة باخماد حركتهم ، كما كتب الى كل من نائب الكرك ونائب دمشق يأمرهم بالمشاركة في سحقهم[٢١٦] . أسرع الجاولي بقوة من عشرة آلاف فارس وحاصرهم مدة عشرين يوما ، ثم اقتحمها بعد ان قتل من المتمردين عشرين شخصا ، ولم يكتف بذلك بل لاحقهم في مناطقهم الجبلية وشعابهم ، فغنم جنده غنائم كثيرة ، وشتت شملهم . ثم رتب الجاولي فيها عددا من الرجال وقفل عائدا الى غزة[٢١٧]. فأمن سكان المنطقة على أرواحهم وممتلكاتهم .

وهكذا كفل الناصر الامن والسلام لسكان المنطقة التي أحبها كثيرا . وكان يقدر علماءها تقديرا خاصا ، فكان يدنيهم اليه ويقربهم منه ويحسن وفادتهم ومن بين الشخصيات الهامة التي شملها بعطفه ، شخصية أبي العباس أحمد بن موسى الزرعي الحنبلي أحد الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر في مدينة حبراص الواقعة في القسم الشمالي من المنطقة بالقرب من مدينة اربد ، وكان قد قدم الى الناصر محمد بالقاهرة ، واجتمع به فأحسن وفادته ، وطلب الحبراص منه ابطال عدة مكوس

---

(٢١٥) سلع : السلوع شقوق في الجبال وأحدهما سلع . واصل الكلمة عبري يعني (الصخر) والبتراء Petrae لفظ يوناني يعني (الصخر) . وسلع قلعة حصينة بوادي موسى عم ، وقد نعتها النويري بقلعة (الاصوات) عندما زارها الظاهر بيبرس سنة ٦٧٤هـ ، وتطلق عليها المراجع الحديثة بالحبيس . وكلمة (الحبيس) تعني طريقا ضيقا في سفح جبل ، وكان استعمال هذا اللفظ شائعا في المنطقة في هذه الفترة ، ففي وادي الكرك وجدت « عقبة الحبيس وهي درب سالك الى أن ينتهي الى الكوم المعروف بأولاد اسحق » . (أنظر : ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ص ١١٧ ، وثيقة السلطان ألاشرف شعبان رقم ٤٩ بدار الوثائق القومية بالقاهرة .
Le Strange, P. 528.
Roberts, The Holy Land, vol. 3. P. 2.

(٢١٦) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٧٩٩ .

(٢١٧) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ١٧٦ .

ومظالم كثيرة ، فأجابه السلطان الى طلبـــه ورده مكرما معززا(٢١٨) .
ومنها أيضا شخصية يوسف الكيماوي الكركي ، وكان يشتغل بصناعة الكيمياء ، وذاعت شهرته في بلاد الشام في هذا المجال فاستدعاه السلطان والظاهر أنه زعم أمام السلطان بقدرته على تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب ، فوفر له السلطان كل عون وبذل له المال اللازم لاجراء تجاربه العلمية ، فلما لم يستطع أن يحقق ما ادعاه ، غضب عليه السلطان واعتقله ثم قتله(٢١٩) .

كذلك أسبغ السلطان على القبائل العربية التي كانت تنزل في شرقي الاردن وهم : بنو عقبة وبنو مهدي وبنو زهير ، فيضا من حمايته ورعايته ، وخصهم بانعامات واقطاعات كثيرة زائدة عن الحد(٢٢٠) .

---

(٢١٨) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ١٢ .
الشيخ الصالح احمد بن موسى الزرعي : توفي بمدينة حبراص في خامس ذي الحجة سنة ٧٦١هـ ، ودفن فيها . كان أحد الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، والقائمين في صالح الناس عند السلطان والدولة ، وله وجاهة عند الخاص والعام (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢٧٤) .

(٢١٩) النويري : نهاية الارب ، ج ٣١ لوحة ١٠٥ ، ١٠٦ ــ العيني : عقد الجمان ج ٢٤ ق ١ لوحة ١٧ ، ١٨ «مخطوط» ــ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٥٥١ ، ٥٥٢ «مخطوط» .

(٢٢٠) العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٨٠ ، الصفدي : الوافي بالوفيات ج ٤ ص ٣٧١ ــ القلقشندي : نهاية الارب في معرفة أنساب العرب ، ص ٨٩ ابو المحاسن. المنهل الصافي ، ج ٣ لوحة ٢٥٠ «مخطوط» ــ الخالدي : المقصد الرفيع المنشأ الهادي الى صناعة الانشا ، لوحة ١٥٧ «مخطوط» .

الفصل الخامس

أحداث المنطقة في عهد الناصر احمد بن قلاوون

١ ـ ثورة الناصر احمد بالكرك :

أ ـ تطور الاحداث في الكرك بعد وفاة الناصر محمد •

ب ـ ثورة الامير احمد بالكرك •

جـ ـ تنصيب الناصر احمد سلطانا في مصر •

٢ ـ الكرك حاضرة الناصر احمد :

أ ـ اتخاذ الكرك لاول مرة حاضرة لدولة المماليك •

ب ـ معارضة أمراء المماليك في مصر في بقاء السلطان بالكرك وقيامهم بعزله •

جـ ـ التجاريد المرسلة لحصار الناصر احمد بالكرك :

التجريدة الاولى

التجريدة الثانية

التجريدة الثالثة

التجريدة الرابعة

التجريدة الخامسة

التجريدة السادسة

التجريدة السابعة

التجريدة الثامنة

د ـ سقوط الكرك ومقتل الناصر احمد

٣ ـ أسباب عزل الناصر احمد وقتله :

١ ـ اتهامه بسوء خلقه وعبثه ٠

٢ ـ تمسكه بالكرك مقرا لحكمه ٠

٣ ـ العامل الشخصي ٠

(١)

ثورة الناصر احمد بالكرك

أ ـ تطور الاحداث في الكرك بعد وفاة الناصر محمد :

ارتقى الملك المنصور أبو بكر بن الناصر محمد بن قلاوون على دست السلطنة غداة وفاة أبيه في ٢١ من ذي الحجة سنة ٧٤١ هـ (٨ يونيه (حزيران) ١٣٤٠م) فبايعه الامراء ، واتفقوا على أن يتولى الامير قوصون تدبير الدولة ورئاسة المشورة على أن يشاركه الامير بشتاك في الرأي[١] ٠

ومنذ بداية توليه السلطنة نشب النزاع بين قوصون وبشتاك أكبر أميرين يسيطران على أزمة الحكم في مصر والشام فقد كان الامير سيف الدين بشتاك لا يميل الى سلطنة أبي بكر وعارض في منصبه منذ اللحظة الاولى ، الا ان الامراء أقنعوه بقبول رغبة جمهور الامراء ولكنه كان يؤثر عليه الامير احمد صاحب الكرك أكبر أبناء الناصر محمد[٢] ، بسبب صلة القربى الوشيجة التي يرتبطان بها بحكم زواجه من أخت الامير أحمد لامه[٣] ٠ اضطر الامير بشتاك الى الاذعان لرغبة معظم أمراء المماليك في اختيار الامير أبي بكر سلطانا على أمل أن يفوز هو بنيابة دمشق التي كان يحلم بالوصول اليها ، ولما أصر على مطلبه تنكر له سيف الدين قوصون ، وأمر بالقبض عليه واعتقاله في الاسكندرية حيث قتل[٤] ، وبذلك تسنم دست السلطنة ، ولم يكن ذلك بالامر السهل ، ذلك أن السلطان المنصور كان بالاضافة الى ما يتسم به من الكفاية وحسن التدبير كان يقرب اليه بعض الامراء ، فرأى قوصون أن يتحرك بسرعة فيضرب ضربته ويحقق

---

(١) المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٥٥١ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٣ ٠

(٢) الصفدي الوافي بالوفيات ـ ج ٨ ص ٨٦ ـ ابن خلدون : العبر ـ ج ٥ ص ٤٤٣
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ـ ج ١٠ ص ١٩ ، ٢٠ والمنهل الصافي ، ج ١٠ لوحة ١٣٩ «مخطوط» ٠

(٣) مجهول : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ٢١٨ ٠

(٤) ابن خلدون : العبر ـ ج ٥ ص ٤٤٣ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٢٠ ٠

رغبته فاتفق وأعوانه من الامراء على اتهام المنصور بسوء السيرة وفساد الاخلاق تمهيدا لعزلـــه(٥) ٠ ففي ١٩ صفر سنة ٧٤٢هـ (٨ أغسطس (آب) ١٣٤١م) أجمع الامراء بزعامة قوصون على خلعه ونفيه هو وسبع من اخوته الى قوص بصعيد مصر ، فأرسلوهم جميعا صحبة الامير بهادر بن جركتمر ، فكانت مدة سلطنته تسعة وخمسين يوما ونصب الامراء مكانه في السلطنة أخاه الاصغر الامير كجك ولقبوه بالاشرف يوم الاثنين ٢١ صفر من السنة ولما يتجاوز من العمر خمس سنوات وقيل سبع سنوات على أن يتولى الامير قوصون نيابة السلطنة ، فاستغل قوصون حداثـــة السلطان وراح يتصرف في أمور الدولة كما شاء(٦) ٠

كان لعزل السلطان المنصور أبي بكر ونفيه هو وبعض أخوته أعظم الاثر في اثارة نفوس الامراء الموالين للناصر محمد بن قلاوون كما حز كثيرا في نفس الامير احمد بن الناصر ، ومن المعروف ان الامير احمد بن محمد بن قلاوون كان مقيما في الكرك منذ سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) ٠ أرسله أبوه اليها وهو طفل صغيرفترعرع هناك ، وأحبها وأحب أهلها ، فصارت له موطنا وسكنا وتعلق به أهلها وأحبوه حتى أصبح واحدا منهم يتخلق باخلاقهم ويتزيا بزيهم ويأخذ بعاداتهم ، ولم يكن يشعر قط انه غريب عنهم ٠ فلما قدم اليه الامير بيغرا في المحرم لاخذ البيعة لاخيه المنصور أبي بكر لم يبد اعتراضا على مشيئة ابيه فأقسم أمام بيغرا بالطاعة والولاء(٧) ٠ فلما بلغه توثب قوصون على العرش واقدامه على خلع أخيه ونفيه هو ومعظم أخوته الى صعيد مصر وما تبع ذلك من استبداده بشؤون الدولة ثارت ثائرته وعزم على الانتقام من قوصون ، ومن الجدير بالذكر أن تصرف

---

(٥) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١٧ ، ١٨ ٠ ويقول ابو الفداء : « احتج عليه قوصون الناصري ولي نعمة ابيه بحجج ونسب اليه أموراواخرجه الى قوص (أنظر : المختصر ، ج ٤ ص ١٣٩ وانظر ايضا : الذهبي : دول الاسلام ج ٢ ص ٢٤٨) ٠

(٦) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٥٩٣ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٤٩ ، وعن عملية استبدال السلاطين يقول ابن كثير : « وخلعه الامراء الكبـار وغيرهــم واستبدلوا مكانه أخاه هذا المذكور » (أنظر : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ١٩٢) ٠

(٧) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٥٥٩ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٥ ٠

قوصون سببت تصدعا خطيرا في صفوف المماليك وعاد الامراء الى صراعهم التقليدي بالتآمر والدس بغية مساندة فريق على فريق ٠

بينما آثر بعضهم كتمان ما بأنفسهم انتظارا لما تتكشف عنه الاحداث أقدم البعض الاخر على اعلان معارضته وكان في مقدمة هؤلاء الامير سيف الدين طشتمر حمص أخضر نائب حلب الذي صرح بمخالفته ، ولم يبايع للاشرف كجك ٠ وأبرزهم الامير أحمد بن الناصر محمد الذي تحرك بالكرك مطالبا بحقه في السلطنة(٨) ٠ورفض مبايعة أخيه كجك رادا بذلك الامير اسندمر العمري الذي كان قد قدم اليه لاخذ بيعته الى القاهرة ٠ فلما بلغ الامراء ذلك اتفقوا فيما بينهم على ملاينته ثم ابعاده عن الكرك عن طريق استدراجه الى مصر بهدف منعه من اتخاذ الكرك نقطة انطلاق لحركة واسعة النطاق ترمي لاسترجاع ملكه على النحو الذي فعله والده الناصر محمد وأجمع رأيهم على أن « يحتالوا عليه ويأخذوه من الكرك ويرسلوه الى قوص الى عند اخوته(٩) ٠

وكان من الطبيعي أن يتصدى قوصون لحركة الامير أحمد ويعمل بكافة السبل على احباطها متبعا في ذلك هو وأعوانه أسلوب التشهير بالامير أحمد ، ونشر الاهانات عن فساد أخلاقـه وسوء سلوكـه اختلقها الامراء المماليك تبريرا للمطالبة بابعاده من قائمة المرشحين للسلطنة(١٠) ٠ كما فعلوا من قبل مع أخيه المنصور أبي بكر سيما وانه أكبر أخوته وأعظمهم قوة وأشدهم بأسا ٠ كذلك لجأ قوصون الى اسلوب التهديد والوعيد فأرسل الامير طرغاي الجاشنكير في خمسمائة فارس الى الكرك لاستحضار الامير أحمد سواء رضي ذلك أم كره(١١) ٠ وعلم الامير أحمد مقدما بحركة طرغاي

(٨) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ١ لوحة ١٦ (مخطوط» ٠

(٩) ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ج ١ لوحة ١٦ «مخطوط» ٠

(١٠) ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ج ١ لوحة ١٧ «مخطوط» ٠

(١١) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٤ ق ١ لوحة ٥٤ «مخطوط» ، ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٥٩٨ «مخطوط» ٠ أما المقريزي وابو المحاسن فذكرا ان قوصون أرسل الامير طوغان لاحضار الشهابي احمد لنفيه الى اسوان (أنظر : المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٧٥٣ ـ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٢٣) ٠

عن طريق عيونه الذين بثهم في مصر فاحتاط لنفسه فلما قدم طرغاي الى الكرك ، عسكرت قواته خارج المدينة ، وكتب الى الامير أحمد يطلب منه أن يحضر معه الى مصر ليتولى السلطنة(١٢) ، فعمد الامير أحمد الى المداورة ، وأرسل الى طرغاي يطلب منه القدوم اليه وحده وحده للتفاهم معه عما يجب أن يفعله فلما دخل عليه سأله عن مقصده • ولما رفض الافصاح وضعه في كفة المنجنيق(١٣) وهدده بقذفه فاضطر الى الاعتراف له عن خطة قوصون وأعوانه من الامراء ، فخلع عليه وأعاده الى مصر وتحدث عما فعله به الامير أحمد •

وايقن الامير أحمد في أعقاب ذلك أن قوصون وأعوانه يقفون لـــه بالمرصاد ولما لم تكن لديه القوة الكافية التي يستطيع بها أن يصمد أمام محاولاتهم آثر اصطناع المراوغة • فأرسل الامير ملكتمر السرجواني نائبه بالكرك يحمل كتابا الى امراء مصر يخاطبهم فيه بقوله : « ان قلعة الكرك وراثة لنا من أبي وجدي وأنا ما أنا منازعكم في أمر ولا أطلب ملك ، وقد انقطعت في هذا المكان وأنتم لكم نواب كثيرة في الاقاليم وأنا أكون من بعض نوابكم »(١٤) ، وطلب منهم أن يردوا اليه السرجواني ويرسلوا معه اخوته المنفيين الى قوص وينفردوا هم بالملك • وعندما وصل هذا الكتاب الى القاهرة عقد قوصون مجلسا من الامراء بدار النيابة وعرض عليهم كتاب الامير أحمد واستشارهم في الامر فأشار بعضهم بأن يدعه في مكانه ويرسل اليه هدية ويستأمنه ويتقرب اليه » ولكن هذا الرأي لم يلق قبولا حسنا من قوصون وانفض الاجتماع دون اتخاذ أي قرار(١٥) • ثم عقد قوصون اجتماعا آخر على نطاق قصره على خواصه وأعوانه وطلب رأيهم ، فأشاروا عليه بأن الامير أحمد ان أقام بالكرك فسد الحال وطلبوا منه ضرورة الاسراع في اخراجه منها وعلى هذا الاساس قرر قرصون أن يستخدم القوة في اخراجه من الكرك •

---

(١٢) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ١ لوحة ١٦ «مخطوط» •

(١٣) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٤ ق ١ لوحة ٥٤ «مخطوط» — ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٥٩٨ «مخطوط» •

(١٤) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ١ لوحة ١٧ «مخطوط» •

(١٥) ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ج ١ لوحة ١٧ «مخطوط» •

ب ـ ثورة الامير أحمد بالكرك :

كان الامير طشتمر نائب حلب أول من اعترض من نواب الشام على خطوة قوصون وأقدم على رد التشريف المرسل اليه ، وجاهر بالمعارضة بعد أن سعى قوصون الى عزل السلطان أبي بكر ونفيه هو واخوته الى قوص ونصب الطفل كجك ، على دست السلطنة واستبد هو بالأمور[١٦] ، فأرسل طشتمر يستميل بعض الامراء والنواب بالشام ، فوافقه كل من الامير طقزدمر نائب حماة والامير بهاء الدين أصلم نائب صفد كما أرسل كتبا لأمراء دمشق صحبة الامير تمر الموساوي ويطلب منهم المؤازرة والعون ويدعوهم الى العمل يدا واحدة لتأييد الامير احمد صاحب الكرك[١٧] • كذلك لم يتردد في مكاتبة بعض امراء المماليك بالديار المصرية لاستمالتهم الى جانب الامير أحمد[١٨] •

وفي هذه الاثناء نشطت حركة الامير أحمد بن الناصر محمد في كل من الجبهتين الشامية والمصرية وكان على يقين تام بأن تأييد نواب الشام له أمر حيوي لقضيته ، فبدون هذا التأييد لا يتأتى له تحقيق امله في الظفر بالسلطنة • ولهذا بدأ يكاتبهم ويستنصر بهم متبعا في ذلك نفس السياسة التي انتهجها الناصر محمد من قبل ، والفارق الوحيد بينهما يقتصر في أن والده الناصر محمد كان يحظى بمحبة كبار أمراء المماليك والقادة في مصر وكانت له صلاته الوثيقة بهم في حين كان أحمد يفتقد عصبة تؤيده وتسانده وتتنصر له بسبب بعده عن مقر الحكم بالقاهرة واقامته منذ طفولته في الكرك • ولهذا انحصر مؤيدوه في أهل اقليم الكرك الذين ساعدوه ووقفوا الى جانبه في أحلك الظروف •

أرسل الامير أحمد الى نواب الشام والى أمراء المماليك بدمشق والقاهرة يشكو اليهم ما يعانيه من سوء معاملة قوصون له ، ومن اقدامه على نفي اخوته الى قوص ويطلب منهم في النهاية أن يمدوا له يد العون في هذه

---

(١٦) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٨ ص ٨٦ •

(١٧) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٥٨٠ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ٣٣ •

(١٨) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ٣١ •

المحنة ، وكان الامير طشتمر الساقي نائب حلب أول من أيده من نواب الشام وأرسل اليه بذلك[١٩] ، والظاهر أن الطنبغا الصالحي نائب الشام تنبه الى قيام اتصالات مريبة بين الكرك وحلب ، خاصة وأنه كان يعلم عن طريق مكاتبات الامير احمد له بتأييد طشتمر للامير أحمد ، وتمكن بفضل عيونه وأعوانه من القبض على رسول طشتمر يحمل كتابا الى الامير أحمد وبعض أمراء دمشق • فتحوط عليها وارسلها الى قوصون في القاهرة[٢٠] ، مع بعض الكتب التي كان قد بعثها الامير أحمد الى أمراء دمشق[٢١] ، وعلى أثر ذلك قرر قوصون أن يرسل حملة الى الكرك للقبض على الناصر أحمد وكف يده قبل أن يستفحل أمره بالشام فيصعب عندئذ القضاء عليه • وعلى الرغم من اعتراض الامراء على هذه الحملة[٢٢] ، فانه أنفذ الامير قطلوبغا الفخري على رأس الفي فارس وقيل ثمانمائة فارس الى الكرك • وفي الوقت الذي خرج فيه قوصون لتوديع قطلوبغا الفخري في ٢٥ ربيع الاخر سنة ٧٤٥ هـ (٨ أكتوبر (تشرين أول) ١٣٤١ م.) ، أرسل قوصون الى عبد المؤمن والى قوص يأمره بقتل الملك المنصور أبي بكر • وغضب أهل مصر لاغتيال الملك المنصور وتغير « خاطر الامراء والمماليك الناصرية قاطبة[٢٣] وكان لمصرع المنصور على هذا النحو آثاره العميقة في اثارة الفتنة التي انتهت باقصاء قوصون عن سدة الحكم ، كما كانت سببا في تآلف القلوب تأييدا للامير احمد • أما في الشام كذلك هز نبأ اغتيال المنصور جميع الامراء والمماليك فأرسل طشتمر الى قوصون يعنفه على جريمته الشنعاء ، وأرسل الى الامراء بمصر يدعوهم للعمل معا ضـــد

---

(١٩) ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٤٤ — المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٥٧٩ — ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ١ لوحة ١٨ «مخطوط» أبو المحاسن• النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٣١ ، والمنهل الصافي ، ج ١ لوحة ١٣٩ «مخطوط» •

(٢٠) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٥٨١ — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٣٤ •

(٢١) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٨ ص ٨٧ — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٣٠ •

(٢٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٣٠ •

(٢٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٣٢ •

قوصون[٢٤] . وكانت قوات قطلوبغا الفخري قد شرعت حصارها الكرك منذ العشر الاخير من جمادى الاولى ، وفي أثناء ذلك تمكنت قواته من أسر سبعة من الجبلية سكان جبال مؤاب والشراه . كانوا في صفوف قوات الامير أحمد فوسطهم[٢٥] وعلى الرغم من احكام الحصار فقد عانى جيش الفخري كثيرا من تسلط اهالي الكرك وما حولها عليهم واقدامهم على مهاجمة معسكراتهم ليلا وتمزيق قربهم وراياتهم . يضاف الى ذلك عامل آخر أسهم في مضايقة عسكر قطلوبغا هو قسوة الطبيعة . فقد كان الوقت شتاء ، واتفق أن اشتدت البرودة في هذه الاونة أكثر من معدلها المألوف ، وهطلت الامطار بغزارة وتساقطت الثلوج فماتت دوابهم وعانوا بسبب ذلك كثيرا[٢٦] . وكان طبيعيا أن يتحرك الامير أحمد سريعا أمام هذا الحصار المحكم فبادر بمكاتبة الامير طشتمر نائب حلب يعلمه عن الحصار ،ويطلب منه المبادرة بنجدته فجمع طشتمر أمراء حلب ، وعرض عليهم الامر ، فوافقوه على كل ما يراه مناسبا فكتب على الفور كتابا الى الفخري يعاتبه فيه على اطاعته لقوصون ضد أولاد أستاذه ، وقال له يخاطبه : « كيف رضيت لنفسك أن تكون تحت يد قوصون وبالامس كان صغيرا في خدمتنا واليوم يتملك رقابنا ويقتل أولاد أستاذنا »[٢٧] فلما اطلع الفخري على كتاب طشتمر تأثر لما ورد فيه واستجاب لطلب طشتمر لما كان بينهما من الاخوة والصحبة القديمة . واتفق مع من كان معه من أمراء المماليك على نصرة الامير أحمد ، فكاتبوه بذلك فأدخلهم القلعة بين مظاهر التأييد له بعد حصار دام عشرين يوما ، ثم انهم بايعوه بالسلطنة ولقبوه بالملك الناصر

---

(٢٤) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٥٧٩ — ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ١ لوحة ١٨ «مخطوط» .

(٢٥) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢٠ «مخطوط» .

(٢٦) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٥٨٠ — ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ٣٣ .

(٢٧) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ١ لوحة ١٨ ، ٦٧ «مخطوط» وانظر ايضا : المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٥٨١ — ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٣٣ .

أحمد(٢٨) ، تيمنا باسم والده ، ودقت البشائر في الكرك ، ورفعت الزينات في كل مكان ، فخلع عليهم وأمرهم بالتوجه الى دمشق والاتصال بطشتمر والعمل معا يدا واحدة وقال لهم : واذا اجتمع رأي سائر الامراء الشامية علي نزلت اليكم »(٢٩) .

ولما بلغت الانباء دمشق باتفاق الفخري وطشتمر ، أرسل الامير الطنبغا الصالحي نائبها كتابا الى قوصون يخبره بتفاصيل الاحداث وأن طشتمر خرج عن الطاعة وبايع الناصر أحمد بالكرك ، وانه حلف أمراء حلب وحشد جمعا كبيرا من التركمان لقصد دمشق والقاهرة ، وأن الفخري خامر معه والكتب بينهما متصلة وانهم جميعا في طاعة الناصر أحمد بالكرك(٣٠) . وعندما تلقى قوصون هذه الانباء كتب الى الطنبغا يأمره بالمبادرة بمحاربة طشتمر ، وطلب منه اما أن يمسكه او يطرده من الشام(٣١) ، فأعد الطنبغا حملة قوامها عشرة آلاف فارس خرجت من دمشق بقيادته من جمادى الاخرة بعد أن انضم اليه الامير أرقطاي نائب طرابلس ، أما طقزدمر نائب حماة فقد اعتذر بضعفه ومرضه ، فقبل الطنبغا عذره وأمره بالبقاء في حماة حتى عودته ، وكان نائب حماة في حقيقة الامر قد وافق طشتمر سرا(٣٢) . وبدلا من أن يتوجه الطنبغا مباشرة الى الكرك رأى أن يعرج الى حلب لاسقاط طشتمر أعظم مؤيد للامير أحمد . وبفضل أمواله التي بثها سرا الى أمراء

---

(٢٨) ابو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ١٣٩ ، الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ص ٢٤٨ — ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ١٩٤ ، العيني : عقد الجمان ، ج ٢٤ ق ١ لوحة ٥٤ «مخطوط» ، ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢٠ «مخطوط» ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٣٣ ، ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٥٩٩ «مخطوط» .

(٢٩) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢٠ «مخطوط» .

(٣٠) ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ج ١ لوحة ١٨ «مخطوط» .

(٣١) ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ج ١ لوحة ١٨ «مخطوط» .

(٣٢) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٥٨١ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ٣٣ ، ٣٤ .

حلب والتركمان ، نجح في افسادهم عن طشتمر واضطر الى الفرار الى ارتنا[٣٣] حاكم الروم الذي أحسن استقباله لما بينهما من المودة والخدمـات المتبادلة[٣٤] • في حين تمكنت قوات الطنبغا من الاستيلاء على حلب •

في نفس الوقت استغل الامير قطلوبغا الفخري فرصة وجود الطنبغا الصالحي في حلب ، فأسرع بقواته من الكرك الى دمشق لامتلاكها ، ونزل بقواته ظاهر دمشق في ليلة ١٤ جمادى الاخرة ، وكاتب الامراء بمبايعة الناصر أحمد ، فخرج اليه أكابر دمشق وقضاتها وفي الصباح خرج أهالي دمشق عن بكرة أبيهم كما توافد القضاة والاعيان وغيرهم عليه[٣٥] • فركب الامير سيف الدين قطلوبغا الفخري ودخل دمشق في « دست نيابته التي فوضها اليه الملك الناصر الجديد »[٣٦] • وقاضي الشافعية عن يمينه ، والحنفي عن شماله ، والجيش محدق به بأسلحته • والسناجق السلطانية تخفق وكان يوما مشهودا ، وضج الناس بالدعاء للملك الناصر أحمد ولنائبه الفخري • ثم تقدم الامراء الذين تخلفوا بدمشق وبايعوا السلطان الجديد فضربت البشائر بالقلعة ونودي في مدينة دمشق أن سلطانكم الملك الناصر أحمد ونائبكم الامير سيف الدين قطلوبغا الفخري[٣٧] ، وخطب للسلطان الجديد على منابر دمشق في ٢٠ جمادى الاخرة ٧٤٢ هـ (أول ديسمبر

---

(٣٣) أرتنا : هو الحاكم ببلاد الروم من قبل الملك بوسعيد ، فلما مات بوسعيد ، كاتب أرتنا السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وطلب منه ان يكون نائبه ، فأجابه الملك الناصر الى سؤاله وبعث اليه بالخلع السنية وكتب الى نائب السلطنة بالبلاد الرومية بذلك • كان حسن الاسلام مات في سنة ٧٥٣هـ (أنظر : ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ ص ٣٤٨ ، طبعة الهند ، أبو المحاسن : المنهل الصافي ، ج ١ لوحة ١٢٢ «مخطوط» مكتبة عارف حكمت) •

(٣٤) كان طشتمر قد أسر ولده ولكنه اكرمه ورده الى والده ، بالاضافة الى أنه أكرم زوجته وهي في طريقها الى الحج (أنظر : ابن قاضي شهبة ، الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ١ لوحة ١٩ «مخطوط») •

(٣٥) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ١٩٥ •

(٣٦) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ١ لوحة ١٩ «مخطوط» ويقول الصفدي ، ارسل الناصر احمد للامراء بدمشق يقول « ان الفخري ها نائبي وهو يولي من يريد في النيابات الكبار بالشام » (أنظر : الوافي بالوفيات ، ج ٨ ص ٨٧) وانظر ايضا : ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ١٩٥ ، أبو المحاسن ، المنهل الصافي ، ج ١ لوحة ١٤٠ «مخطوط» •

(٣٧) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢٠ «مخطوط» •

(كانون الاول) ١٣٤١ م) . كما خطب على منابر غزة والقدس والكرك ، وضربت السكة باسمه ، وشرع الفخري في جمع الاموال واعداد القوات للوقوف في وجه الطنبغا وقوات قوصون ، فاستولى على القصير المعيني « الشونة الشمالية » بالغور وكانت تابعة لقوصون واحتوى على ما فيها من القند والعسكر وصادر غلاله وباعه للنفقة في العسكر(٣٨) . ثم قدمت اليه قوات صفد برئاسة الامير بهاء الدين أصلم ، وكان قد أعلن تأييده للناصر أحمد ، ثم وصلت قوات حماة بقيادة نائبها الامير طقزدمر ، بحمل عظيم وخزائن كثيرة وثقل هائل »(٣٩) . أما الأمير آقسنقر نائب غزة فكان من أوائل المؤيدين للامير أحمد ولذلك عهد اليه هذا الامير بعد أن بويع بالسلطنة بترصد طريق الاتصال بين الشام ومصر ويمنع كل قادم فعمد هذا الى الاستيلاء على خيل البريد من أحد عشر مركزا ، منقاقون الى الزعقة(٤٠) ، وأمكنه أن يقبض على نحو الثلاثمائة منها أرسلها جميعا الى السلطان الناصر أحمد بالكرك . كما منع من يتوجه الى الديار المصرية ، فانقطعت الاخبار عن قوصون(٤١) ، ثم جمع جمعا كثيرا من عسكر غزة والتركمان والعشير يصل عددهم الى ما يقرب من الفي فارس وتوجه بهم الى دمشق وانضم الى الفخري ، فبلغت قوات الفخري أكثر من خمسة آلاف مقاتل « وانضم اليه أيضا الامير سليم بن فضل أمير عرب آل فضل ، كما استخدم حشودا أخرى كثيرة وفدت عليه من البقاع وجبال كسروان يقرب

---

(٣٨) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٥٨٤ .

(٣٩) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢٠ «مخطوط» وانظر أيضا : ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ١٩٥ — المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٥٨٤ — ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٣٥ .

(٤٠) قاقون : أحد مراكز البريد في فلسطين ، تقع بين العوجاء وجنين ، بنى فيها الامير سنجر الجاولي خانا للسبيل (أنظر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١١٠ ، والقلقشندي : صبح الاعشى ، ج ١٤ ص ٣٧٩) . وهي الان احدى القرى الفلسطينية الى الشمال الغربي من طولكرم .

الزعقة : تقع على حدود مصر جهة الشام ، وهي احدى مراكز البريد بين العريش ورفح (القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ١٤ ص ٣٧٨) .

(٤١) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢٠ «مخطوط» وانظر المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٥٨٣ — ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٣٥ .

عددها من ألف رام ، وطلب منهم حفظ الطرق والمداخل المؤدية الى دمشق »(٤٢) ٠

علم الطنبغا الصالحي وهو بحلب بأنباء دمشق ، كما وردت اليه كتب وجهها اليه قوصون عن طريق البريد يحثه فيها على قتال الفخري(٤٣) ٠ فبادر بالزحف نحو دمشق ومعه عسكر دمشق وحلب وطرابلس وقوامها نحو الخمسة عشر ألفا وقيل سبعة عشر ألفا ٠ وفي الحادي عشر من رجب وصل الى ظاهر دمشق ، وكان الفخري قد خرج بقواته لمواجهته ، ولما اقترب منه جيش الطنبغا بحيث لم يعد يفصل بينهما سوى ميلين أو ثلاثة دعاه الفخري الى حقن الدماء ومبايعة السلطان أحمد ، ولكن الطنبغا رفض النداء في الوقت الذي قبله أجناده وقواده ، ولم يلبث هؤلاء أن انضموا الى قوات الفخري بحيث لم يبق معه سوى حاشيته والامير أرقطاي نائب طرابلس(٤٤) فاضطر الى الفرار ومعه نائب طرابلس وثلاثة من الامراء باتجاه الديار المصرية ، ولما حاول بعض الامراء اللحاق بهم منعهم الفخري قائلا : « دعوهم يروحوا الى مصر ليخبروا قوصون ويعاينهم جيش مصر فما الخبـــر كالعيان(٤٥) ٠ وصلت البشائر الى دمشق بهزيمة الطنبغا ففرح الناس فرحا عظيما ، وضربت البشائر بالقلعة ٠ أما الفخري فبعد أن حلف الامراء الذين انضموا اليه للسلطان الناصر أحمد ، دخل دمشق في أبهة عظيمة ،

---

(٤٢) ابن كثير : البداية والنهاية : ج ١٤ ص ١٩٥ ــ ابن قاضي شهبة ، الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢٠ « مخطوط » ، وانظر : الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ص ٢٤٩ ــ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ ق ٣ لوحة ٧٠٨ «مخطوط» ٠

(٤٣) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٥٨٥ ــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٣٦ ٠

(٤٤) ابو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ١٤٠ ــ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ ق ٣ لوحة ٧٠٨ «مخطوط» ــ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٣٣٢ ــ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ١٩٧ ، ابن حبيب : درة الاسلاك ، ، ج ٢ لوحة ٦٣ «مخطوط» ــ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٥٨٥ ــ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٤ ق ١ لوحة ٥٥ «مخطوط» ــ ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢١ «مخطوط» ــ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٣٧ ــ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٦٠٠ «مخطوط» ٠

(٤٥) ابن قاضي شبهة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢١ «مخطوط» ٠

ونزل بالقصر الابلق ، وأظهر كياسة وحكمة في معاملة الناس · وتم الامر للسلطان الملك الناصر أحمد ، وأصبحت بلاد الشام جميعها صفا واحدا معه عندئذ أرسل الفخري الامير سيف الدين قماري الى الكرك ليبشر السلطان ويبلغه بانتظام جيش الشام على طاعته ، ويسأله بالنزول من الكرك الى دمشق ليتوجهوا جميعا الى الديار المصرية ، ففرح السلطان بذلك وأنعم عليه بألف دينار ووعد أولاده بطبلخانتين(٤٦) ، ثم انه أمره بالعودة الى دمشق ليبلغ الفخري بأنه قادم اليها في وقت قريب ، وأخذ الناس وأصحاب المصالح يتوافدون على الكرك ، فأصبح السلطان الناصر أحمد يباشر أمور السلطنة من الكرك ، فولى علاء الدين بن تقي الدين الحنفي نظر البيمارستان النوري بدمشق ومشيخة الربوة ، وولى القاضي شهاب الدين البارزي قضاء حمص(٤٧) ، وصارت الكتب السلطانية تخرج من الكرك وعليها توقيع « الملكي الناصري »(٤٨) ·

ج ـ تنصيب الناصر أحمد سلطانا في مصر :

كان لنجاح ثورة الناصر أحمد في الكرك واجماع نواب الشام والامراء على مبايعته بالسلطنة نتائج خطيرة : فقوصون أخذ يحتاط لنفسه ، وكثر استبداده بأمور البلاد وبطشه بكل من يرتاب في اخلاصه له من أمراء المماليك خاصة وأن عددا كبيرا منهم كان يؤيد الناصر احمد بالكرك وسبق أن أعلنوا رفضهم ارسال العساكر لحربه · ازاء ذلك عمد قوصون الى مراقبة الطرق المؤدية الى غزة والكرك ليمنع المماليك من التسحب الى الناصر أحمد(٤٩) · وحدث ان اشيع عنه أنه يسعى الى السلطنة لنفسه

---

(٤٦) ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ج ١ لوحة ٢١ «مخطوط» ·
امرة طبلخاناة : من وظائف اربات السيوف ، وتعني ان يكون بخدمة الامير اربعون مملوكا ، وتدق بابه ثلاثة أحمال طبلخاناة (ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٣) ·
(٤٧) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ١٩٩ ·
(٤٨) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٣٤ ·
(٤٩) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٤ ق ١ لوحة ٥٦ «مخطوط» ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٦٠٠ «مخطوط» ·

فأثار ذلك ثائرة الامراء(٥٠) ، وعقدوا مجلسا فيما بينهم بزعامة الامير أيدغمش،واتفقوا على قتل قوصون قبل وصول الطنبغا من الشام،وحددوا يوم الاثنين ٢٨ رجب موعدا لتنفيذ خطتهم ، ولكن تفاصيل الخطة وصلت الى قوصون فأخذ حذره وجمع مماليكه حوله ، وهكذا أخفق الامراء في تنفيذ مخططهم بقتله في ذلك اليوم • فقرر أيدغمش أن يحاصره في القلعة في الليلة التالية ، وحالوا بينه وبين اصطبله وأيد الاهالي في مصر والقاهرة هذه الخطوة وباركوها واندفعوا يؤيدون أيدغمش في حماس شديد معلنين بيعتهم للناصر أحمد لتعلقهم بآل قلاوون وبغضهم الشديد لقوصون وأتباعه • فأشار عليهم أيدغمش بنهب اصطبله وأملاكه فنهبوا من اصطبله أموالا لا تحصى من ذلك : ستمائة الف دينار وسبعمائة الف درهم ، بالاضافة الى المصاغ والحلي والجواهر والقماش والبسط والخيام ولما جردوا اصطبله وقصره من محتوياتها هدموا القصر وانتزعوا رخامه(٥١) • ثم وقع قوصون اخيرا في قبضة أيدغمش ، فقيده واعتقله في أحد أبراج القلعة ثم أرسله الى الاسكندرية حيث قتل فيما بعد ، ومعه الطنبغا الصالحي وارقطاي نائب طرابلس•أعلن أيدغمش مبايعته للناصر أحمد بالديار المصرية في التاسع والعشرين من رجب بعد نجاحه في اعتقال قوصون وخطب لــــه على منابر مصر والقاهرة في الثاني من شعبان • أما الخليفة أبو العباس أحمد بن المستكفي فقام بخلع السلطان الاشرف كجك ، وأرسل كتابا الى الكرك يستدعي فيه الناصر أحمد ليتقلد السلطنة في مصر والشام ، ويبلغه بانه حلف الامراء له : واقيمت له السكة والخطبة ، فرفع على المنابر اسمه ، وتهلل به وجه النفود واختتم كتابه قائلا : « وقد كتبناها ويدنا ممدودة لمبايعته وقلوب الخلق كلها ممتدة لمبايعته ، وكرسي الملك قد أزلف له

---

(٥٠) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢١ «مخطوط» وانظر ايضا : ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٣٨ ، أما العيني فيقول : « ثم تأكدت العداوة بين قوصون وبين أيدغمش » (أنظر : عقد الجمان ، ج ٢٤ ق ١ لوحة ٥٧ « مخطوط » •

(٥١) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٥٩٠ ، ٥٩١ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٤ ق ١ لوحة ٥٩ «مخطوط» ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢٢ «مخطوط» ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٤٣ ، ٤٤ • «مخطوط» •

مقعده(٥٢) » ، أما العامة فقد طالبوا بالسماح لهم بالسفر الى الكرك لحمل السلطان على القدوم معهم الى القاهرة ، فكتب لهم أيدغمش مرسوما بالاقامة والرواتب في كل منزلة بدأوا رحلتهم اليها في اليوم التالي(٥٣) ، أما أيدغمش فقد كتب الى الكرك يبشر الناصر أحمد باعتقال قوصون وبأنه أخذ له البيعة في مصر بالسلطنة ، كما كاتب الفخري في دمشق ، واتفقت الكلمة في مصر والشام على الناصر أحمد(٥٤) .

وهكذا تمكن الناصر أحمد بمساعدة أعوانه من بسط سلطانه على مصر والشام ، فكان أيدغمش في مصر يدير أمور الدولة ويحفظ النظام فيها ويركب في المواكب الرسمية ، ويحضر الامراء لخدمته في الاصطبل ، ويولي الولايات ويعطي الاقطاعات(٥٥) ، فهدأت الاحوال واستتب الامن والنظام في الديار المصرية وكلل أيدغمش ذلك بالافراج عن أبناء الناصر محمد بن قلاوون . أما في دمشق فكان الفخري في حركة دائبة يجمع الاموال ويجهز السناجق والعصائب والكوسات(٥٦) ، لتكون في خدمة الناصر أحمد عند حركته الى مصر وأرسلت دمشق الى السلطان ستة من أمراء المماليك من بينهم طقزدمر نائب حماة وآقبغا عبد الواحد الساقي يدعونه لتسلم السلطنة بدمشق ، في حين أرسلت القاهرة عددا من الامراء منهم : بدر الدين جنكلي بن البابا وبيبرس الاحمدي وبلكتمر السرجواني لدعوته لتسلم زمام السلطة في القاهرة ، واجتمع رسل دمشق والقاهرة معا في الكرك(٥٧) وطلب كل فريق من السلطان أن ينزل اليهم فأبى وتوهم من كثرة ما عاناه

---

(٥٢) انظر نص الكتاب في : القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٦ ص ٤٢٦ - ٤٣٠ ومآثر الانافة ، ج ٣ ص ٢٦٥ - ٢٧٣ .

(٥٣) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٥٢ .

(٥٤) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢٢ «مخطوط» .

(٥٥) ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ج ١ لوحة ٢٣ «مخطوط» .

(٥٦) الكوسات : هي صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير ، يدق بأحدها على الآخر بايقاع مخصوص بمشاركة الطبول والشبابة . (القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٤ ص ٩) .

(٥٧) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ١٩٨ - ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢٣ «مخطوط» .

من تقلب الامراء ومؤآمراتهم ودسائسهم أن تكون في الدعوتين مكيدة للقبض عليه واسلامه الى قوصون(٥٨) ليقتله كما قتل أخاه المنصور من قبل ، وزيادة في الحيطة أرسل رسولا من الكرك ليتأكد شخصيا من خبر اعتقال قوصون واتباعه(٥٩) ، كما طلب من أمراء دمشق الرجوع والانتظار حتى يحضر الامير طشتمر حمص أخضر من بلاد الروم ، ثم طلب من الاميرين منكلي والاحمدي التوجه الى غزة وانتظاره هناك ، ومن قماري والسرجواني بانتظاره في موضع حدده لهما ليتوجه صحبتهم الى القاهرة(٦٠) .

عاد أمراء الشام الى دمشق ، وخرج الفخري للقائهم ، فدخلوها في ٢٤ شعبان « خمدة لعدم قدوم السلطان»(٦١) ، وبعد يومين من قدومهم وصل البريد من الكرك يطلب الامير قماري وبعض الامراء ، فاجتمع بهم واستفسر عن بعض الامور . ولما تأكد بأن الجميع في طاعته وان قوصون معتقل قرر الخروج الى مصر لاعتلاء دست السلطنة ، وطلب أن تتحرك القوات بعد وصول طشتمر الى غزة لتكون في انتظاره ، فلما وصلت الانباء بذلك الى دمشق سر الجميع وتأهبوا للرحيل . وفي الثالث عشر من رمضان دخل الامير طشتمر الملقب بالحمص أخضر دمشق فتلقاه الامراء وكان الفخري قد أبلغه تفاصيل ما جرى من أحداث وطلب منه الحضور حسب رغبة الناصر أحمد وأن لا مسير لمصر بدونه(٦٢) . عندئذ أخذ الجميع يستعدون للتوجه الى غزة ــ وفي العاشر من رمضان خرج الفخري وطشتمر من دمشق ومعهم القضاة الاربعة وسائر الامراء ببلاد الشام باتجاه الديار المصرية ، أما

(٥٨) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢٣ «مخطوط» . وانظر ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ١٩٨ ــ ويقول الصفدي : ان الناصر احمد لم يوافق على النزول معهم وترك الناس من الشاميين والمصريين في حيرة بعدما حلف المسلمون جميعهم له » (أنظر : الوافي بالوفيات ، ج ٨ ص ٨٨) وانظر ايضا ابو المحاسن : المنهل الصافي ، ج ١ لوحة ١٤٠ «مخطوط» .

(٥٩) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٥٩٧ .

(٦٠) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢٣ «مخطوط» وانظر ايضا : المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٥٩٦ ــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٦١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ١٩٨ ــ ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢٣ «مخطوط» .

(٦٢) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢٣ «مخطوط» وانظر ايضا المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٥٨٥ ، ٥٩٧ ــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص٣٧ .

السلطان الناصر أحمد فقد خرج من الكرك في ٢١ رمضان متجها الى مصر بعدد قليل من اتباعه الكركيين ، فوصلها في ٢٨ رمضان ، فطلع الى القلعة ليلا ولم يجتمع بغالب الامراء ، ولم يتكلم في شيء من الامور حتى وصل الشاميون(٦٣) .

أما الفخري وطشتمر وبقية الامراء فوردت اليهم مراسيم السلطان قبل وصولهم الى غزة بيومين يحثهم فيها على السير الى مصر ويخبرهم مقصده في التوجه اليها ، ويعتذر عن سرعة سفره ، ويدعوهم الى لقائه هناك فعز عليهم ذلك وساءهم أن يخذلهم بعد أن بذلوا من أجله الكثير من التضحيات وأخذوا يفكرون في التفرق عنه(٦٤) ، وفي غزة تلقاهم آقسنقر وقد جمع لهم الاقامات(٦٥) من بلاد الشوبك وغيرها ، حتى بلغ ما جمعه ثلاثة آلاف غرارة شعير ، وأربعة آلاف رأس غنم وغير ذلك من المهمات(٦٦) ، فاتهموه بانه هو الذي زين للسلطان بالسفر وحيدا الى مصر وأرادوا قتله وهموا بتنصيب سلطان آخر من أبناء الناصر محمد ولكنهم قرروا ارجاء ذلك لحين عبورهم الديارا المصرية(٦٧) . وفي ٨ شوال ٧٤٢ هـ ، وصلت العساكر الشاميـة والامـراء والاعيان الى الريدانيـة(٦٨) خارج

---

(٦٣) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢٤ «مخطوط» . وانظر ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ١٩٩ .
Muir, The Mameluka, P. 89.

(٦٤) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢٤ «مخطوط» وانظر أيضا : المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٠٠ — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٥٧ ويقول ابن بهادر : « فاضمروا الخلف عليه وهـم في الطريق » (أنظر : فتوح النصر ، لوحة ٦٠٤ «مخطوط») .

(٦٥) الاقامات : تعني ما يقدم للسلطان او الامير وغيره في الطريق من مأكل ومشرب ومواد غذائية يحتاج اليه في سفره هو ومماليكه وخيولهم (أنظر : ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٥٧) .

(٦٦) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٠٠ .

(٦٧) ابن قاضي شهبة ، الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢٤ «مخطوط» .

(٦٨) الريدانية : اسم يطلق على بستان كبير أنشأه ريدان الصقلبي أحد خدام العزيز بالله الفاطمي ، ويقع في حدود الصحراء الواقعة شمالي القاهرة وكان موضعا ينتهي اليه العمران واطلق اسم الريدانية على البستان والاراضي المجاورة له . كان يجتمع به المحل عند توجهه للحجاز ، وكثيرا ما كان السلطان يخرج في موكب من الامراء اليه لاستقبال او وداع القوات المتوجهة او القادمة من الشام (أنظر : القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٤ ص ٥٨) .

القاهرة ، فأمر الناصر أحمد بارسال الاقامات لهم ، وخرج الامراء لاستقبالهم ، ولكن عسكر الشام اجتمعوا مع الامير أيدغمش وعرضوا عليه فكرة عزل السلطان أحمد وتنصيب واحد من اخوته(٦٩) ، ولكن أيدغمش رفض ذلك الرأي وحذرهم من تجدد الفتنة خاصة « وأن أهل مصـــر يحبونه(٧٠) • ثم تبين لهم أن تصرف السلطان لا يستوجب كل هـــذا الغضب ، ومال طشتمر الى رأي أيدغمش ، فاضطر الفخري الى الموافقة والقبول بعد أن قرروا فيما بينهم « على أن يملكوه ويحجروا عليه حتي يأمنوا غائلته(٧١) •

وفي يوم الاثنين ١٠ ايلول ٧٤٢ هـ (١٩ مارس (آذار) ١٣٤٢ م) بويع الناصر أحمد بالسلطنة ، وحضر النواب والقضاة وأمراء مصر والشام معا(٧٢) ورفعت الزينات في مصر والقاهرة ، فكان يوما مشهودا ، واستمرت الزينات عشرين يوما • ولما تم له ذلك أصدر أوامره بتسيير عبد المؤمن بن عبد الوهاب والي قوص وشنقه انتقاما لقتله أخيه المنصور • أما كبار أمراء المماليك فقد طبقوا اتفاق الريدانية ، فأصبح المتحدث في أمور الدولة وترتيبها في هذا الوقت أربع : طشتمر والفخري وطقزدمر وأيدغمش(٧٣) وهكذا نرى أن عصبة الاربعة استبدت بالامور دون السلطان ، فكانوا يدخلون عليه معا ، ويتفقون على ما يودون عمله ، ورأى السلطان أن قوله لا يسمع وما رسم به لا يمتثل • ففوض الامور الى هؤلاء الاربعة وأن يدبروا

---

(٦٩) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢٤ «مخطوط» ويقول الغيني : « فاجمعوا على أنهم يطلبون رمضان بن السلطان الملك الناصر ويسلطنوه » (أنظر : عقد الجمان ، ج ٢٤ ق ١ لوحة ٦٢ «مخطوط» •

(٧٠) العيني : عقد الجمان ، ج ٢٤ ق ١ لوحة ٦٢ «مخطوط» •

(٧١) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢٤ ، «مخطوط» •

(٧٢) ويقول الصفدي « وحلف المصريون والشاميون وكان يوما عظيما ولم يتفق مثل هذه البيعة لاحد من ملوك الاتراك بالشام ومصر لاجتماع أهل الاقليمين في يوم واحد بحضور الخليفة ، والحكام (انظر : الوافي بالوفيات ، ج ٨ ص ٨٨) وانظر أيضا : ابو المحاسن : المنهل الصافي ، ج ١ لوحة ١٤٠ «مخطوط» •

(٧٣) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢٤ «مخطوط» •

الامور بمعرفتهم « واحتجب عن سائر الناس »[٧٤] • فقد تبين له أن هؤلاء الامراء لم يتصروه حبا في شخصه وانما انتقاما من زميلهم قوصون وطمعا في التوصل الى الملك ، ولهذا آثر الاعتكاف في قصره واعمال الفكر لاحباط مساعيهم ، ببث الفرقة في صفوفهم ، فبدأ يجاريهم ويوافقهم ويفوض اليهم كل مقاليد الامور ، ثم أفضى اليهم برغبته في توزيع النيابات ، ولكنهم لم يكونوا أقل دهء منه ، فاتفقوا فيما بينهم على اقتسام البلاد المصرية والشامية • فطالبه الفخري بنيابة دمشق ، وأيدغمش بنيابة حلب ، وطشتمر بنيابه السلطنة بمصر ، ظنا منهم أنهم بذلك التوزيع يضمنون السيطرة على البلاد جميعا ، وعلى الاخص الفخري وطشتمر اللذين « اقتسما المملكة فأخذ طشتمر نيابة مصر وقطلوبغا نيابة الشام »[٧٥] ، ومع ذلك فقد كان الناصر أحمد على الضد من ذلك ، ان ابعادهم عن القاهرة يفيده أكثر مما يضره ، فهو بذلك قد تخلص منهم على الاقل •

أراد الناصر أحمد أن يتمثل بوالده محمد بن قلاوون عند قيامه بأكبر عملية تطهير بين صفوف الامراء بعد سلطنته الثالثة ، وأن يحذو حذوه ويترسم خطاه • ولهذا شرع في اعداد العدة معتمدا في ذلك على أعوانه وأخلص المخلصين له ، وكان طشتمر قد تمادى في سلوكه وتصرفه مع السلطان ، فحجر عليه ولم يدعه يتصرف في شيء من أمور الدولة • كما منع الامراء من الدخول عليه والاجتماع به ، فكان يعترض على كل قراز يصدر عن السلطان من ذلك ما كتبه السلطان وهو بالكرك لاعوانه وانصاره بالاخباز والامريات والرواتب والانعام[٧٦] وما الى ذلك • فلما أحضرت

---

(٧٤) ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ج ١ لوحة ٢٤ «مخطوط» •

(٧٥) ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ج ١ لوحة ٢٥ «مخطوط» •

(٧٦) الاخباز وتعني الاقطاعات ، والاقطاعات تجري على الامراء والجند وعامة اقطاعاتهم بلاد واراضي يستغلها مقطعها ويتصرف فيها كيف شاء ، وربما كان فيها نقد يتناول من جهات وهو القليل • وتختلف الاخباز أو الاقطاعات باختلاف حال اربابها (انظر : النويري : نهاية الارب ، ج ٨ ص ٢٠٩ ، القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ص ٥٠ ج ١٣ ص ١٥٣) •

←

لطشتمر ليوقع عليها قطعها جميعا وجهر في معارضته للسلطان فيما يطلبه ويأمر به ، أدرك الناصر أحمد أن طشتمر تمادى في تجاوز سلطاته فطغى وبغى ، واستبد بامور السلطنة وأنه ينتهج نهج قوصون فخشي أن يصيبه ما أصاب أخاه أبا بكر(٧٧) ، ولذلك أسرع بتنفيذ عملية التطهير بدءا بطشتمر ، ففي ٢٠ من ذي القعدة أصدر أمره باعتقاله واعتقال ولديه ومصادرة جميع أملاكه(٧٨) • وجهز في الحال بعض أمراء المماليك يتقدمهم الطنبغا المارداني في ألفي فارس ، وسيرهم على الفور وراء الفخري للقبض عليه وهو في طريقه الى دمشق ، ولكن الفخري وقد بلغه ذلك أسرع بالفرار فلحقه المارداني في الزعقة ، ولكنه ركب الهجن وترك حريمه وانطلق في البرية طالبا الكرك • وكان آقسنقر الناصري نائب غزة قد اعترض الطريق بقواته ليمنعه من الهرب ، ولكن الفخري تمكن من الافلات منهم وبدلا من أن يتوجه الى الكرك ، فضل أن يلجأ الى الامير أيدغمش ، لعله يجد له مخرجا فلحقه في جينين وقيل في بيسان بغور الاردن ، فاكرمه وطيب خاطره ، ثم أمر رجاله بالقبض عليه وكتبوا الى السلطان يبلغونه ذلك فأمرهم بحبسه

= الامريات : بمعنى ان يعطى المرء رتبة أمير ـ والامراء اربع طبقات ، الاولى امراء المئين مقدموا الالوف وهي أعلى مراتب الامراء ، والثانية طبقة امراء الطبلخاناة ، والثالثة امراء العشرات ، أما الرابعة فهي امراء الخمسات •

ولهؤلاء الامراء امتيازات خاصة في الدولة (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ص ١٤ ـ ١٥ ، ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٣ ـ ١١٥) •

الرواتب : وتعني الجوامك ايضا • والجامكية الاجر ، ومن يعمل بالجامكية كمن يعمل بالاجر اليومي ، والجوامك الشهرية تشمل العليق والحبوب والطعام ، وفي بعض الاحيان يعطون اقطاعات بدل الرواتب • (القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٤١) •

الانعام : وهو ما ينعم به السلطان او الامير على أتباعه وخواصه في المناسبات المختلفة • وهي انواع منها : الخلع والتشاريف ، والخيول ، والكسوة ، او الانعام بالاوقاف كالعقار والابنية الضخمة او الكساوي من القماش المتنوع (القلقشندي صبح الاعشى ، ج ٤ ص ٥٢ ـ ٥٥) •

(٧٧) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٣٦ «مخطوط» •

(٧٨) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢٥ «مخطوط» وانظر ايضا : المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٠٦ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٤ ق ١ لوحة ٦٣ «مخطوط» ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٦٣ ـ ٦٤ •

في الكرك[٧٩] ، وشجع هذا النجاح الذي حققه الناصر أحمد بالنسبة للاميرين الكبيرين ، فأمر باخراج الامير ركن الدين بيبرس الاحمدي الى نيابة صفد والامير سيف الدين الحاج آل ملت الى نيابة حماة « فلما فعل ذلك بالاكابر خافه الناس وأعظموه وهابوه وجعلوا أيديهم على رؤوسهم منه[٨٠] ، واتبع ذلك بالقاء القبض على واحد وعشرين أسيرا سجنهم في الاسكندرية[٨١] .

---

(٧٩) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٠٨ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٤ ق ١ لوحة ٦٤ «مخطوط» ـ ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ج ١ لوحة ٢٥ «مخطوط» ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٦٥ ، ٦٦ ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٦٠٥ «مخطوط» .

(٨٠) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٨ ص ٨٨ ، أبو المحاسن : المنهل الصافي ، ج ١ لوحة ١٤٠ «مخطوط» .

(٨١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٦٢ .

(٢)

الكرك حاضرة الناصر احمد

أ ـ اتخاذ الكرك لاول مرة حاضرة لدولة المماليك :

أخذت مشاعر الشك تستولي بالتدريج على نفس الناصر أحمد فيمن حوله من أمراء المماليك ، فلم يعد يثق في ولائهم نحوه بعد ما لمسه من مؤامراتهم الدنيئة وما حاكه أقرب الاقربين اليه من دسائس . واقتصر ثقته في خاصته من الكركيين بحيث ألزمهم بحراسته والذود عنه الى حد أنه كان يرفض ما يقدم اليه من طعام ما لم يتذوقه يوسف بن النصال وأبو بكر البازدار الكركيان[٨٢] ، خوفا من أن يدس الامراء الموتورون السم له . وانتابته الهواجس والوساوس مما قد ينتظره من مؤامرات ودسائس وعلى الرغم من أنه تخلص بالفعل من كبار الامراء وفي مقدمتهم الفخري وطشتمر ، الا أنه لم يستشعر الراحة والاطمئنان في مثل هذا الجو المشحون بالبغضاء والكراهية والمخاوف . وتذكر أيامه السعيدة التي قضاها مطمئنا في الكرك ، واختمرت في ذهنه فكرة الانتقال اليها[٨٣] ، فعمل على تنفيذها وبدأ يتأهب لذلك ، فرسم أن يحمل من مصر الى الكرك خمسة عشر ألف اردب من القمح ، ومائة اردب من الارز ، ومائتي رأس بقر والف رأس من الغنم ، وعرض الخيول والهجن وأخذ منها ما أختاره ثم فتح الخزائن والذخائر وأخذ كل ما فيها من : ذهب وفضة وفصوص وجواهر فبلغ ذلك الف الف دينار والفي الف درهم ، وسبع صناديق فصوص ومجوهرات وحلي ، وامتدت يده الى كل التحف والالات والعدد حتى

---

(٨٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٥٩ .
البازدار : وهو الذي يحمل الطيور والجوارح المعدة للصيد على يده . وصارت من وظائف ارباب السيوف في دولة المماليك (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٥ ص ٤٦٩) .

(٨٣) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢٦ «مخطوط» ويقول ابن خلدون « ولما استوحش الامراء من السلطان وارتاب بهم ارتحل الى الكرك » (أنظر : العبر ، ج ٥ ص ٤٤٥) .

البسط والنحاس والكنابيش(٨٤) اخذها ، بالاضافة الى الامتعة والقماش والزركش ، فبلغ عدة ذلك مائة وثمانين صندوقا خلعا وقماشا ، وأمر بحمل كل هذه الذخائر والتحف الى الكرك صحبة الامير طيبغا المحمدي ، فتم ذلك ليلة السابع والعشرين من ذي القعدة ٧٤٢ هـ • كذلك أمر ببيع الغنم والجاموس الخاص به في بلاد الصعيد فبلغ ذلك ، الفي الف وستمائة الف درهم ، وأمر بحملها ليأخذها صحبته ولكنه رحل قبل أن يتسلمهـــا فتركها(٨٥) ، وكان قد دعا كبار أمراء المماليك في ليلة الرابع والعشرين من ذي القعدة للاجتماع بهم وفي هذه الجلسة أفصح لهم عن رغبته في الرحيل الى الكرك لقضاء بعض الوقت وعهد الى آقسنقر السلاري بنيابة الغيبة وتدبير الامور الى حين عودته(٨٦) • وفي اليوم الثاني من شهر ذي الحجة ركب السلطان الناصر أحمد من قلعة الجبل بالقاهرة متوجها الى الكرك ، وبرفقته الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد وجمال الكفاة ناظر الجيش والخاص ، والقاضي علاء الدين بن فضل الله كاتب السر ، وخرج الامراء والعساكر لوداعه • وبعد أن قطع مسافة من الطريق ، نزل عن فرسه ، وخلع ثيابه ، ولبس ثياب أهل الكرك وهي كاملية مفرجة وعمامـــة بلثامين(٨٧) ، ثم صحب أتباعه الكركيين وركبوا الهجن ، ورحلوا بمفردهم

(٨٤) الكنابيش • مفردها كنبوش ، وهو ما يستر به مؤخر الفرس وكفله ، ويصنع اما من الذهب الزركشي أو من الفضة الملبسة بالذهب ، واحيانا يصنع من الصوف المرقوم (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٢ ص ١٣٥) •

(٨٥) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢٦ «مخطوط» ويقول ابو المحاسن : « جمع الاغنام التي كانت لابيه واغنام قوصون وعدتها اربعة آلاف رأس واربعمائة رأس من البقر » (أنظر : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٧٠) وانظر أيضا : المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦١٨ ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٦٠٥ «مخطوط» •

(٨٦) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٨ ص ٨٩ ـ ابن دقماق : الجوهر الثمين ، لوحة ١٥٨ «مخطوط» ـ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٠٩ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٤ ق ١ لوحة ٦٤ «مخطوط» ـ ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ آهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢٦ «مخطوط» ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٦٦ ، والمنهل الصافي ، ج ١ لوحة ١٤٠ «مخطوط» •

(٨٧) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦١٠ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٦٧ •

الكاملية : رداء ضيقة عند الكم مفرجة الذيل من خلف ، تبدأ من الحافة السفلى مرتفعة الى أعلى (أنظر : ماير الملابس المملوكية ص ٢٥) •

الى الكرك بعد أن طلب من الخليفة والامراء أن يسيروا مع المماليك السلطانية وبقية الطلب للحاق به في الكرك • ولكنه ما كاد يصل الى بلدة العين البيضاء بالقرب من الكرك حتى عادت الوساوس تنتابه من جديد وتجددت الشكوك فيمن صحبه من المماليك وخاف أن هو أخذهم معه الى الكرك انقلبوا عليه وقتلوه ، ولذلك فكر في تشتيتهم ، فأقام ينتظر ورودهم عليه ، فلما قدموا رسم أن يسير الامير المقدم عنبر السحرتي بالمماليك السلطانية الى بلدة الخليل ويقيموا هناك • أما الامراء : قماري أمير شكار(٨٨) وعمر بن أرغون ، وملكتمر الحجازي ، والخليفة ، فطلب منهم السير الى القدس الشريف والاقامة فيه(٨٩) ثم توجه الى الكرك فدخلها في اليوم التاسع من شهر ذي الحجة ٧٤٢هـ (١٧ مايو (أيار) ١٣٤١ وبصحبته خواصه الكركيون وكاتب السر وناظر الجيش ومملوكين ، والاميران طشتمر والفخري مقيدين • وعندما اشتكى عنبر السحرتي مقدم المماليك من غلاء الاسعار بالخليل ، أمره بالتوجه بمن معه الى غزة والاقامة فيها(٩٠) •

والظاهر أن الناصر أحمد عندما فكر في القدوم الى الكرك كان ينوي اتخاذها مقرا له وحاضرة لدولته ، بدليل أنه نقل اليها كل الخزائن السلطانية ، واستصحب معه شعائر السلطنة والخليفة وناظر الجيش وكاتب السر ، وأصبحت مراسيمه تخرج من الكرك نافذة لجميع أنحاء دولته في مصر والشام ، ثم انه طلب من دمشق عددا من الصناع والحدادين وعددا من الالات والاخشاب لاصلاح بعض المهمات بالكرك(٩١) ، ولم يكتف

(٨٨) امير شكار : ويسمى « أمير الصيد » ، وهو لقب يطلق على الامير الذي يتحدث على الجوارح من الطيور وغيرها وسائر امور الصيد • ثم تطورت في عهد المماليك الى احدى وظائف ارباب السيوف ويتولاها امير كبير (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٥ ص ٤٦١) •

(٨٩) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٦٧ — وانظر ايضا : المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٠٩ — ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ج ١ لوحة ٢٦ «مخطوط» •

(٩٠) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦١٠ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٦٨ •

(٩١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢٠١ ، ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢٧ «مخطوط» •

بذلك ، بل طلب أيضا أشياء كثيرة من جملتها الف جمل محملة مكسرات جوز ولوز وفستق وغير ذلك فحملت اليه(٩٢) ، ثم شرع في تحصين قلعة الكرك ومدينتها وأشحنها بالغلال والاقوات والاسلحة(٩٣) ، ونستدل من كل ذلك على أنه ينوي الاستقرار بالكرك بصفة نهائية ويتخذها دار سلطنته • صحيح أن كتب التاريخ لم تشر الى ذلك ولكننا نرجح وقوعه لان جميع الادلة السابقة تشير الى ذلك ، ونعتقد أنه قد فكر في الاستقرار بالكرك لعوامل اربعة :

الاول : ثقته الخالصة في أهلها في وقت انعدمت ثقته في أمراء المماليك ومن كان يحيط به من رجال القصر في مصر •

الثاني : حصانة المدينة والقلعة وقدرتها على تحمل أي حصار مهما طال •

الثالث : توسط الكرك بين مصر والشام بحيث يمكنه من هناك الاشراف الكامل على ما يجري في كل من القطرين •

الرابع : عامل نفسي يرجع الى نشأته الاولى في الكرك ومرباه بين أهلها •

ب ـ معارضة امراء المماليك في مصر في بقاء السلطان بالكرك وقيامهم بعزله :

ولكن هذا التصرف من السلطان لم يعجب الامراء في القاهرة وبالاخص أصحاب المصالح والمتطلعين للسلطة ، فكثر الكلام وتشوشت الخواطر ، وعلم الامراء أن السلطان قد قرر البقاء في الكرك(٩٤) ولن يفكر في العودة الى القاهرة مقر دولة سلاطين المماليك ، فأخذوا يعملوان على استعادة

---

(٩٢) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢٧ «مخطوط» •

(٩٣) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦١٠ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٦٩ ، ويقول ابن الوردي : « وحصن الناصر الكرك واتخذها مقاما له » (أنظر : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٣٣٥) •

(٩٤) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٢٧ «مخطوط» •

سلطانهم ومصالحهم ، وأخذ كل يحترز على نفسه ، ثم أجمعوا على قتل الامير آقسنقر السلاري نائب الغيبة ، والامير الطنبغا المارداني ، ومن يلوذ بهما من مؤيدي الناصر أحمد « وكان مقصودهم قتل هؤلاء ويقيمون سلطانا »(٩٥) علم النائب بالمؤامـرة فاصطنع الحذر واحترز لنفسه ، وطلب الامـراء الكبار ،فاجتمعوا وتحدثوا في الامر ، فقال بعضهم : « اما أن يحضر السلطان من الكرك والا فليتنحى عن الملك ، ايش يعمل والاديار بمصر ما تبقى بلا سلطان»(٩٦) ولما رأى أن الاكثرية تؤيد هذا الرأي هابهم وخاف أن هو خالفهم يثبون عليه فأبدى موافقته على رأيهم مظهرا أنه واحد منهم وانه يؤيد أي قرار يتخذونه عندئذ اتفق رأيهم على أن يكتبوا للناصر أحمد بالكرك كتابا يسألونه فيه الحضور الى القاهرة ثم وقعوه من جميع الامراء صدالكبار والصغار ، وأرسلوه الى الكرك في الخامس من المحرم ٧٤٣هـ صحبة الامير طقتمر الصلاحي • ولما تسلم الناصر الكتاب رد عليهم جوابه مع الرسول الذي عاد الى القاهرةفي ١٥ محرم فاجتمع الامراء ، وقرىء الكتاب عليهم ، فاذا فيه : « ان الشام ملكي ، وديار مصر ملكي ، والكرك ملكي ، وان أي مكان خطر لي أقمت فيه ، وأنتم ما أنتم مكلفون الى حضوري ولا أنا تحت حجركم ، ومتى خطر لي جيت ، وقد اقمت نايبا وحاجبا ووزيرا يقضوا أشغال الناس ، وما ثم حالة يتوقف على حضوري ، وقد بقي لي قليل وأتوجه اليكم ، ومن تكلم فيما لا يعنيه قتلته ، وترسلوا تعرفونني من هو الذي تحدث في هذا الامر »(٩٧) • عندما قرأ الامراء هذا الكتاب بصياغته العنيفة وما يتضمنه من معاني التهديد ، أيقنوا أن السلطان قرر البقاء في الكرك ، ولما كان ذلك القرار لا يتفق مع أهوائهم ، فقد أجمعوا على

---

(٩٥) ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ج ١ لوحة ٣٧ «مخطوط» ، وانظر ايضا : المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦١٧ ــ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٤ ق ١ لوحة ٦٨ «مخطوط» ــ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٦٩ ، والمنهل الصافي ، ج ١ لوحة ١٤١ «مخطوط» ــ ابن بهادر : فتوح النصر لوحة ٦٠٦ «مخطوط» •

(٩٦) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٣٧ «مخطوط» •

(٩٧) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٣٨ «مخطوط» وانظر ايضا : ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٤٥ ــ ابن دقماق : الجوهر الثمين : لوحة ١٥٨ «مخطوط» ــ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦١٧ ، ٦١٨ ــ أبو المحاسن ــ النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٦٩ ــ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٦٠٦ «مخطوط» •

مناوءته واحباط رغبته ، والعمل جديا على ابعاده ، وارسلوا الى امراء الشام يستشيرونهم في الامر ، وبعثوا طيه كتاب السلطان الوارد اليهم مـــن الكرك(٩٨) .

وفي هذه الاثناء اشتدت مخاوف السلطان من أمراء المماليك في الكرك وعاودته مشاعر التشكك في اخلاصهم له فقرر استكمال عملية التطهير التي بدأها في القاهرة ، وبدأ بالتخلص من الاميرين طشتمر والفخري المعتقلين في الكرك فقتلهما(٩٩) ، ثم راح يقتنص الامراء واحدا بعد الاخر ، ولما اراد التخلص من لامير بيبرس الاحمدي نائب صفد ، كلف نائب غزة بهذه المهمة ، فلما شعر الاحمدي بالخطر هرب بمماليكه الى دمشق فدخلها في السادس من المحرم وما أن علم السلطان بذلك حتى أرسل الى أمراء دمشق يأمرهم في حزم بالقبض عليه وارساله الى الكرك(١٠٠) ، ولكنهم عندما حاولوا اعتقاله ، امتنع الاحمدي وركب برجاله وقال لهم : علينا أن نكون يدا واحدة ، انظروا ماذا فعل بالفخري وطشتمر ، ان الدائرة ستدور على الجميع ، فعلينا بالاتحاد للوقوف في وجهه . ولما كانت مصالحهم مشتركة فقد وافقوه وخالفوا السلطان في القبض عليه ، ثم انهم عقدوا اجتماعا وتشاوروا في الامر ، فاتفق رأيهم على خلعه ومكاتبة المصريين والنواب في ذلك (١٠١) . وهكذا اتخذ الامراء في مصر والشام من مصرع الفخري وطشتمر

---

(٩٨) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٣٨ «مخطوط» .

(٩٩) الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ص ٢٥٠ ـ ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٣٣٥ ـ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٨ ص ٨٩ ـ ابن خلدون ، العبر : ج ٥ ص ٤٤٥ ـ ابن دقماق : الجوهر الثمين ، لوحة ١٥٨ «مخطوط» ـ المقريزي السلوك ، ج ٢ ص ٦١٧ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٤ ق ١ لوحة ٦٤ «مخطوط» ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٧٠ والمنهل الصافي ، ج ١ لوحة ١٤٠ «مخطوط» .

(١٠٠) ابن كثير : البداية والنهاية : ج ١٤ ص ٢٠١ ـ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٤٥ ـ ابن دقمان : الجوهر الثمين ، ج ١ لوحة ٣٧١ «مخطوط» ـ المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٦١٣ ، ٦٢٥ ـ ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٣٨ «مخطوط» ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٦٠٦ «مخطوط» .

(١٠١) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٣٨ «مخطوط» ويقول العمري ، فانقلب عسكر الشام عليه وكاتبوا الى مصر ، فخلعوه » (أنظر : مسالك الابصار ، ج ١٦ ق ٣ لوحة ٧٠٩ «مخطوط») وانظر ايضا : الذهبي : دول الاسلام، ج ٢ ص ٢٥٠ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢٠٢ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٢٦ .

ذريعة للاطاحة بالناصر أحمد ، وان كانت حركتهم كانت في الواقع بسبب اصراره على الاقامة في الكرك واتخاذها حاضرة له وما تبع ذلك من كف أيديهم عن التدخل في شئون الدولة اعتمادا على أهالي الكرك ۰

ما كاد كتاب أمراء دمشق يصل الى القاهرة حتى تلقفه الامراء في لهفة اذ كانوا يخشون من مخالفة الشاميين(١٠٢) ، فلما ورد كتابهم ، عقدوا اجتماعا فيما بينهم وصمموا على خلع السلطان الملك الناصر أحمد ما دام أمراء دمشق يؤيدونهم في هذه الخطوة واختاروا أخاه اسماعيل ، وبايعوه بالسلطنة في ٢١ المحرم ٧٤٣هـ (٢٧ يونيو (حزيران) ١٣٤٢م) ، وحلفوا له ولقبوه بالملك الصالح عماد الدين اسماعيل ، فكانت مدة ولاية الناصر أحمد ثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوما ، منها واحد وخمسون يوما مدة اقامته بالكرك ومراسيمه نافذة بمصر(١٠٣) ، ثم ابلغوا أمراء الشام بمضمون قرارهم ، فوصل الخبر اليهم في ٢٦ من المحرم ، فبايعوا للملك الصالح اسماعيل ، وبذلك اتفقت الكلمة بدمشق والقاهرة على خلعه كما اتفقتا من قبل على مبايعته ۰

الا أن الملك الناصر أحمد لم يقبل قرارهم بتنحيته وأبى أن يحلف لاخيه الصالح اسماعيل ، وأخذ يستعد للمواجهة مستندا فقط على اخلاص أهالي منطقة شرقي الاردن بما في ذلك الكرك واعمالها ، ومنطقة الشراة ومؤاب ، هذا الى انضواء القبائل العربية الى جانبه ، فأخذ يوزع فيهم الاموال ، ويجند الجنود ويحشد الرجال ، وقد صمم على الصمود حتى النهاية ثم وردت الاخبار الى مصر ، بأن الملك الناصر أحمد قد عزم مع بعض الكركيين على دخول مصر وقتل السلطان الجديد ، فارتبك الامراء لذلك(١٠٤) ، واتفقوا على الكتابة اليه ليروا حقيقة ما يضمره فأرسل اليه

---

(١٠٢) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٣٩ «مخطوط» ۰

(١٠٣) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦١٨ ــ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٧٠ ــ ابن الصيرفي : نزهة النفوس والابدان ، ج ١ ص ٤٢ ــ « تولي الناصر احمد السلطنة في ١٠ شوال ٧٤٢هـ وعزل في ٢١ محرم ٧٤٣هـ ۰

(١٠٤) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٢٤ ــ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٨١ ۰

السلطان الجديد كتابا يطلب فيه من الناصر احمد اعادة الخزائن السلطانية التي كان قد حملها من مصر ، وسأله أن يرسل شعار السلطنة وهي ، القبة والطير والغاشية والنمجاة(١٠٥) ، وقال له في جملة ما قاله : « بما أنك تحب بلاد الكرك والشوبك فانها لك تحت حكمك وملكك » ، الا أن الناصر لم يسمح للرسل بالطلوع الى الكرك ، وفي الاجتماع بهم ٠ ولهذا فقد رأى أمراء المماليك في مصر أن يلجئوا الى استعمال القوة لارغامه على تسليم ما لديه من الخزائن والاموال فأخذوا يجهزون العساكر لانفاذها الى الكرك ، وقبل أن يقدموا على ذلك عمدوا الى ابعاد الامراء الموالين له في مصر وعلى رأسهم الامير الطنبغا المارداني(١٠٦) الذي كان يعارض خلعه من السلطنة ، فرسم السلطان الصالح اسماعيل بابعاده وقلده نيابة حماة وأمره بالخروج اليها على البريد ، ولما تم ابعاده لم يتجرأ البقية الباقية من الموالين للناصر أحمد على اظهار المعارضة ٠

جـ ـ التجاريد المرسلة لحصار الناصر أحمد بالكرك :

التجريدة الاولى :

تأهب الملك الصالح اسماعيل وكبار أمراء المماليك لمحاضرة الناصر أحمد بالكرك « ولما كانوا يدركون مقدار حصانة قلعتها ومناعتها وصعوبة اقتحامها ، قرروا اتباع سياسة النفس الطويل » واتفقوا على أن يرسلوا عسكرا يحصروه في القلعة فاذا ملوا أرسلوا غيرهم وهكذا طائفة بعـــد طائفة(١٠٧) الى أن يأذن الله بفتحها وفي أوائل صفر ٧٤٣هـ (يونيو

---

(١٠٥) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٢٠ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٧٩ ، الطائر : هو الطائر الذهب الذي يوضع عليه القبة (أنظر : ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٧١) ٠ أما القبة فقد سبق شرحها راجع «الجتر» الغاشية : هي غاشية سرج من أديم مخزوزة بالذهب ، يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب ، تحمل بين يدي السلطان في المواكب والاعياد ، يرفعها حاملها بين يديه ويحركها يمينا وشمالا (أنظر : القلقشندي : صبح الاعشى ج ٤ ص ٧) ٠ النمجاة : او النمجة خنجر مقوس شبه السيف يطلق عليه أيضا « دشن » او «سيخ» او «سكين» (أنظر : ماير الملابس المملوكية ، ص ٦٧) ٠

(١٠٦) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ ص ٤٠ «مخطوط» ٠

(١٠٧) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٤ «مخطوط» ٠

(حزيران) ١٣٤٢ م) خرجت أول تجريدة من مصر موجهة الى الكرك عدتها ألف فارس يقودهم الامير بيغرا أمير جاندار(١٠٨) ، وستة من الامراء الكبار ٠ وكان الصالح اسماعيل قد أرسل لنائبي صفد وغزة ودمشق يأمرهم بارسال التجاريد لمساعدة العساكر المصرية فأذعنوا لامره(١٠٩) ، ففي صفر ورد المرسوم من مصر الى دمشق بضرورة اخراج تجريدة برئاسة الامير حسام الدين السمقدار الحاجب لحصار الكرك ، فاستعد النائب لذلك وأخرج المنجنيق من القلعة ، ثم أرسل الى بيروت والبقاع وجبل كسروان وصيداء لجمع القوا والرجالة فجهز الامير ناصر الدين الحسين أمير البحتريين في بيروت(١١٠) ، اخاه عز الدين الحسن بن خضر وصحبته بعض المقاتلين منهم سعد الدين سعيد بن ناصر الدين أبو الفتح(١١١) ، وتوجهوا الى الكرك للانضمام للقوات المحاصرة ، وفي ١٤ صفر خرجت التجريدة من دمشق بقيادة الامير حسام الدين في ألف فارس(١١٢) ، وتحرج بذلك موقف السلطان ولكن أهالي الكرك عقدوا العزم على الدفاع عن سلطانهم فعندما أقبلت قوات دمشق والقاهرة لمحاصرة الكرك خرج جيش الناصر أحمد لقتالهم فقتل العديد من هذه القوات ٠ ثم أمر الناصر أحمد بنصب المجانيق فنصبت وقذف عسكره القوات المحاصرة ، وتمكنوا

---

(١٠٨) ابن دقماق : الجوهر الثمين لوحة ١٥٩ «مخطوط» ٠ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٢٤ ــ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٨١ ــ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٦٠٨ «مخطوط» ٠

(١٠٩) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٤١«مخطوط» ٠

(١١٠) البحتريون امراء الغرب : هم احدى عشائر التنوخيين الذين أقاموا بجهات مختلفة من لبنان واعتنقوا الدرزية وكانوا بحكم موقعهم يشرفون على الساحل اللبناني من ناحية الاقليم الداخلي من ناحية اخرى ٠ وقد تشبثوا باماراتهم في فترة الصراع الصليبي الاسلامي ، والمملوكي المغولي ٠ تشدد معهم المماليك في بادىء الامر وصادروا اقطاعاتهم ، ثم أعادوها اليهم بعد ان أدخلوهم في سلك الاقطاع المملوكي العسكري ، وعهدوا الى البحتريين مقابل ذلك بحراسة بيروت ، فاخلصوا النية وساعدوا المماليك في حروبهم (أنظر : احمد عزت عبد الكريم : التقسيم الاداري لسورية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مايو ١٩٥١م ، ص ١٣٥ ، ١٣٦) ٠

(١١١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ١٠٣ ــ عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة صيداء ص ٦١ ٠١

(١١٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢٠٤ ٠

من اصابة منجنيقهم فكسروا أسهمه ، وعجزوا عن نقله ، فأمر مقدم الجيش بيغرا بحرقه(١١٣) • وفي ٢٩ جمادى الاخرة وصلت قوات أمراء الغرب البحتريين من بيروت ، وحطوا حول الكرك ، فبادر الامير حسام الدين السمقدار مقدم قوات الشام بالهجوم على مدينة الكرك وقلعتها ، الا أن قوات الناصر أحمد خرجت ورمتهم بالنشاب ، واشتبك الطرفان في معركة ضارية واشتدت الخسائر في الجانبين ، فسقط عدد كبير من أهالي الكرك نصارى ومسلمين(١١٤) ، كما قتل عدد هائل من قوات المماليك المحاصرة منهم عز الدين الحسن بن خضر(١١٥) ، قائد قوات بيروت ، وأسر آخرون منهم الامير سيف الدين أبو بكر ابن بهادر ، وسعد الدين سعيد بن ناصر الدين من بيروت فاعتقلوا بقلعة الكرك(١١٦) ، وهكذا صمدت قوات الكرك وقاتلت ببسالة وضايقت قوات الشام ومصر مضايقة شديدة ، وتضافرت الطبيعة القاسية ببردها القارس وأرضها الوعرة في المقاومة الصلبة التي أبداها الكركيون وأرغمت قوات الشام ومصر على رفع الحصار والعودة من حيث أتت متذرعة بأن الكرك حصينة تحتاج الى مطاولة(١١٧) وان من الصعوبة بمكان أن يقيم الجيش في هذا الشتاء البارد ، بالاضافة الى أن المنجنيق الذي حملوه معهم كسر وأحرق •

وكان من أثر اخفاق المهاجمين في اقتحام الكرك أن ارتفعت الروح القتالية لدى أهل الكرك كما ارتفعت روح الناصر احمد المعنوية ، فأخذ

---

(١١٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢٠٥ •

(١١٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢٠٥ — ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٤٠ «مخطوط» ويقول الذهبي : « قتل من الكرك قريب الخمسمائة ومن الغرباء قريب المائتين » (أنظر : دول الاسلام ج ٢ ص ٢٥٠) • وانظر أيضا : العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ ق ١ لوحة ٧١٠ ، وابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٦٠٨ «مخطوط» •

(١١٥) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ١٠٤ ، ١٣٩ •

(١١٦) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢٠٥ — صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ١٠٤ •

(١١٧) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٤١ «مخطوط» وانظر ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢٥٠ — المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٣٢ •

يعمل على حشد الاعوان من أمراء المماليك في دمشق والقاهرة ، وأخذت رسله تخرج من الكرك سرا تعدهم وتدعوهم الى نصرته ونجح في ذلك الى حد كبير ، ففي دمشق اتفق بعض الامراء على تأييده ومعاضدته ، وكاتبوه ولكن أمرهم انكشف ، فبادر نائب دمشق الى اعتقالهم في الثالث من رمضان فقيدوا وحملوا الى قلعة دمشق حيث سجنوا[١١٨] ، وفي أواخر رمضان القي القبض أيضا على جماعة أخرى من أمراء دمشق اتهموا بممالأة الناصر أحمد بالكرك ومكاتبته فاعتقلوا بقلعة دمشق[١١٩] ، وفي مصر رفع رمضان بن الناصر محمد لواء المعارضة ضد السلطان الصالح اسماعيل ، فاتفق سرا مع بعض المماليك السلطانية على عزل أخيه الصالح اسماعيل واعتلاء دست السلطنة ، غير أن خطتهم لم تلبث أن اكتشفت واضطر الامير رمضان الى أن يلوذ بأخيه الناصر في الكرك[١٢٠] ، ولكن السلطات المملوكية تمكنت من اعتقاله هو وأعوانه وكان آخر العهد به ٠

التجريدة الثانية :

لم يكن الاخفاق الذي انتهى اليه الامير بيغرا في التجريدة الاولى يمنع الصالح اسماعيل من معاودة الكرك ، ففي العاشر من شوال ٧٤٣ هـ خرجت التجريدة الثانية من مصر في الفي فارس يقودهم الامير ركن الدين بيبرس الاحمدي والامير كوكاي[١٢١] ، وفي نفس الوقت تقرر خروج تجريدة أخرى من دمشق لاحكام الحصار حول الكرك ، وتولى نائب دمشق مهمة

---

(١١٨) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢٠٧ ٠

(١١٩) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢٠٧ ــ ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٤٢ «مخطوط» ٠

(١٢٠) ابن حبيب : درة الاسلاك ، ج ٢ لوحة ٦٧ « مخطوط » ــ ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج١ لوحة ٤١ ــ وعن حركة الامير رمضان انظر : الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٨ ص ٩٠ ــ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٤٥ ــ ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ ص ٢٠٣ ــ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٤ ق ١ لوحة ٦٩ «مخطوط» ٠

(١٢١) الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ص ٢٥١ ، ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٣٣٥ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ ق ٣ لوحة ٧١٠ «مخطوط» ــ المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٦٣٤ ــ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٨٥ ــ ابن بهادر: فتوح النصر ، لوحة ٦٠٨ «مخطوط» ٠

ارسال المنجنيق الكبير الذي يرمي حجرا زنته ستين رطلا ، والذي ذكر أنه ليس في حصون الاسلام مثله(١٢٢) ، فأرسل تجاه الكرك محمولا على الجمال والعجل في مستهل ذي القعدة بصحبة الامير صارم الدين ابراهيم السبقي ، أما جيش دمشق فخرج باتجاه الكرك في ٢ ذو القعدة يتقدمه الامير بدر الدين بن الخطير ، ومعه الامير علاء الدين بن قراسنقر(١٢٣) • وكانت المراسيم قد خرجت الى جميع ولايات الشام بتجريد العشران وغيرهم لقتال الناصر احمد بالكرك ، وعين على كل ولاية عدد من الرجالة ، فكان على معاملتي صيداء وبيروت خمسمائة راجل مناصفة • وفي الخامس من ذي القعدة توجه الامير ناصر الدين الحسين على رأس قواته من بيروت الى البقاع حيث تجمعت حشوده مع قوات البقاع ، ومن هناك اتجهوا نحو الكرك ، فوصلوا اليها في مستهل ذي الحجة(١٢٤) وهناك التقت القوات المصرية والشامية وأحدقت بالكرك وشددت الحصار عليها ، وكان الناصر احمد قد أعد قواته فكانوا « خلقا كثيرا وقد نصبوا على القلعة في اعلاها خمسة مجانيق ومدافع كثيرة »(١٢٥) • ونستدل من العبارة المذكورة ان الناصر أحمد استخدم المدافع في القتال ، وهو سلاح جديد ساعده على الصمود في وجه المهاجرين ، وهذه أول اشارة الى استعمال هذا النوع من السلاح في عصر دولة المماليك الاولى • وحاولت

---

(١٢٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢٠٧ •

(١٢٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢٠٨ •

(١٢٤) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ١٠٥ •

(١٢٥) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ص ١٠٥ ، ويقول الذهبي « وأقاموا على الحصار العظيم بالمجانيق والنفط وغير ذلك » (أنظر : دول الاسلام ، ج ٢ ص ٢٥١) وانظر ايضا : العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ ق ٣ لوحة ٧١٠ «مخطوط» — ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٦٠٨ «مخطوط» •

المدافع : وتسمى مكاحل البارود ، وهي المدافع التي يرمي عنها بالنفط وأنواعها مختلفة ، فبعضها يرمي عنه بأسهم عظام تكاد تحرق الحجر ، وبعضها يرمي عنه ببندق من حديد من زنة عشرة ارطال بالمصري الى ما يزيد على مائة رطل ، وهي تصنع من نحاس ورصاص يرمي به ببندقية محماة تنطلق لمسافات بعيدة (أنظر : القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٢ ص ١٤٤ ، ١٤٥) •

قوارير النفط : وهي قدور من نحاس ونحوها يجعل فيها النفط ويرمي بها على الحصون والقلاع للاحراق (القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٢ ص ١٤٥) •

قوات بيروت والبقاع وصيداء الزحف بقيادة ناصر الدين الحسين ، ولكنها لم تتمكن من بلوغ هدفها ، بل على الضد من ذلك تمكن الكركيون في احدى الغارات من التغلب عليهم وجرح جماعة منهم • وعلى الرغم من استخدام الشاميين للمنجنيق الكبير المشهور ببعد مدى مرماه وثقل حجارته استخداما متواصلا الا أنه لم يكن له أي فعالية ، والظاهر أن مدافع القلعة كانت تصلي رماته وابلا من النيران كلما أدنوه من المواقع ولعلهم أبعدوه عن مرمى قذائف المدافع حتى لا يتعرض للتلف ، وهذا فيما أعتقد هو السبب في قصر مدى رمايته بحيث لم تكن قذائفه تصل الى أسوار القلعة • وكان الناصر أحمد يحارب في صفوف قواته وقد تزيا بزي الكركيين الواسع الكم « وكان يظهر لهم أنه لبس هذا الزي محبة فيهم »(١٢٦) • وفي كل يوم كان يجلس في شراريف القلعة ويرمي بقوسه سبع فردات نصولها فضة مكفوتة بالذهب • وقد تمكن رجالة بيروت من التقاط أحد هذه الأسهم ، فأحضروه لأميرهم ناصر الدين الحسين ، فاذا نصله فضة مكفت بالذهب ، وهو نصل ثقيل عريض يدل على قوة قوسه ، وقد نقش عليه هذان البيتان :

ومن جودنا نرمي العداة بأسهم
من الذهب الابريز صيغت نصولها
يداوي بها المجروح منها جراحه
ويشري بها الأكفان منها قتيلها(١٢٧)

وهكذا فشلت التجريدة الثانية في النيل من الناصر أحمد واستنزاله أمام عنف المقاومة وصلابة الصمود ، وأرغم عسكر الشام ومصر الى رفع الحصار عن الكرك في أوائل صفر سنة ٧٤٤هـ •

التجريدة الثالثة :

وتبع ذلك مرحلة لم تهدأ خلالها اتصالات الناصر أحمد بالأمراء ، ففي المحرم ٧٤٤هـ أمر السلطان الصالح اسماعيل بتقييد أربعة أمراء في

---

(١٢٦) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ١٠٦ •

(١٢٧) صالح بن يحيى : المصدر السابق ، ص ١٠٦ •

مصر وسجنهم بالاسكندرية لاتهامهم بمباطنة الناصر أحمد ومكاتبته في الكرك(١٢٨) منهم الامير آقسنقر السلاري نائب السلطنة بالديار المصرية ، وصهره الامير بيغرا أمير جاندار ٠ وفي دمشق ألقي القبض على الامير آقبغا عبد الواحد وعدد من الأمراء سجنوا لاتهامهم بتأييد الناصر أحمد(١٢٩) ٠ ولم تقتصر مكاتبات الناصر أحمد على الأمراء وحدهم وانما تجاوزت ذلك الى نائبي دمشق وحلب ، فقد كتب اليهما يطلب تأييدهما له والوقوف الى جانبه(١٣٠) ٠ أما عرب منطقة شرقي الاردن فكان منهم من يؤيد السلطان ومنهم من يؤيد الناصر أحمد ، فاذا كان الامير شطي زعيم بني عقبة عرب الكرك قد انحاز صراحة الى صفوف جيش السلطان اسماعيل في احدى المعارك(١٣١) ، تنفيذا لرغبة السلطان في منع كل من يصل الى الكرك أو ينزل منها حتى يضعف أمرهم وتقل أقواتهم(١٣٢) فان بقية القبائل العربية في تلك البلاد أمثال : بنو ربيعة ، وبنو نمير(١٣٣) ، وقفوا بقوة وحزم الى جانب الناصر أحمد بحيث أفسدوا حصار شطي وجماعته ٠ ولا شك أن بيبرس الأحمدي قد فطن الى الدور الذي لعبه عرب الكرك بدليل أنه بعد أن عاد الى القاهرة أخبر السلطان ، أن العرب الذين حول الكرك يجلبون اليها الزاد والغتم(١٣٤) ، وأن لاقبل للمهاجرين من منع الجلابة لاتساع البرية ، وما من سبيل لأخذ الكرك

---

(١٢٨) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٣٩ — ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٦ ، ٨ ، ٨٧ — وانظر ايضا : الصفدي : الوافي بالوافيات ، ج ٨ ص ٩٠ — ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٤٥ ٠

(١٢٩) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٩١ ٠

(١٣٠) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٥٣ ٠

(١٣١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢٠٥ — المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٢٨ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٨٢ ٠

(١٣٢) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٤٢ «مخطوط» ٠ كان بنو عقبة يعارضون الناصر احمد ، فزعيمهم بما يتمتع به من امتيازات واقطاعات لم يكن يجرؤ على مخالفة السلطان في القاهرة ، وعليه ان يقدم المعونة حسب نظام المماليك الاقطاعي العسكري ٠

(١٣٣) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٧٩٩ ٠

(١٣٤) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٥١ «مخطوط» ٠

الا بجيش كثيف قوي « لأن الذين في الكرك جمع كثير من العرب والجبلية ينزلون ويقاتلون قتالا عظيما »[١٣٥] .

ونستدل من ذلك على أن حصار القوات الشامية والمصرية لم يكن له التأثير المطلوب لعاملين ، الاول : صلابة الدفاع ، والثاني : اتساع نطاق المنطقة التي يحاصرونها بحيث وجدت جيوب كان عرب تلك البلاد والجبلية أي سكان مؤاب والشراة[١٣٦] ، يتسللون منها لمضايقة قوات مصر والشام بالاضافة الى أهالي الكرك والشوبك أنفسهم . ولم يحاول المسؤولون في دولة المماليك معالجة المشكلة في التجريدة الثالثة ولذلك قدر لها الفشل أيضا .

ففي العشر الاول من محرم ٧٤٤هـ (يونيو (حزيران) ١٣٤٣م) ، خرجت التجريدة الثالثة من مصر بقيادة الامير بهادر أصلم ، ومعه الامير بيبغا في ألفي فارس . ورسم السلطان أيضا بخروج تجريدة من دمشق بألفي فارس[١٣٧] وحدث أثناء قيام هؤلاء العسكر بحصار الكرك ، أن أهالي الكرك كانوا ينزلون ليلا الى جنود أصلم يشترون منهم ما يحتاجون اليه من الدقيق والشعير والمهمات الأخرى فلما بلغ ذلك السلطان بالقاهرة غضب « وأنكر على أصلم واتهمه بمباطنة أحمد ورسم أن يجرد الى الكرك »[١٣٨] .

---

(١٣٥) ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ج ١ لوحة ٥١ «مخطوط» .

(١٣٦) يقول ابن حقول : « الجبال والشراة فناحيتان متميزتان ، اما الشراة فمدينتها أذرح ، والجبال مدينتها رواث ، وهما بلدان في غاية الخصب والسعة وعامة سكانها العرب متغلبون عليها (أنظر : صورة الارض ، ص ١٦٠) . ويقول ابن شداد ، ان كورة الجبال مدينتها غرندل وفيها معان ومؤتة ، وما هو مستحدث في هذه الكورة هو الكرك والشوبك (أنظر : الاعلاق الخطيرة ، ج ٣ ص ٤١) .

(١٣٧) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢٠٩ — المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٣٨ — ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٨٧ — ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٥١ «مخطوط» .

(١٣٨) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٥١ «مخطوط» .

التجريدة الرابعة :

أمر السلطان الصالح اسماعيل باعداد تجريدة رابعة كثيفة العدد الى الكرك ، عين لها جماعة من أعيان الامراء الكبار منهم : بدر الدين جنكلي بن البابا ، وآقسنقر الناصري ، وسيف الدين ابو بكر بن آرغون ، وعلاء الدين طيبغا المحمدي ، وملكتمر السرجواني • وخرجت هـذه التجريدة من مصر في رابع ربيع الآخر ٧٤٤هـ في أربعة آلاف فارس ومعهم الحجارين والنجارين والنقابين والنفطية(١٣٩) • وفي نفس الوقت أمر السلطان بخروج تجريدة أخرى من دمشق في ألفي فارس ، فخرجت الى الكرك في ثاني جمادى الاولى بقيادة الامير شهاب الدين بن صبح ، والامير سيف الدين قلاوون(١٤٠) ، واستقدموا المنجنيق من صفد • وشرعت هذه القوات جميعا في احكام الحصار حولها فحاصروها « أشد الحصار ولم يقدروا عليها »(١٤١) • ثم أقبل فصل الشتاء فرجع أصلم ومن معه الى القاهرة في أواخر جمادى الاولى ، أما جنكلي ومن معه من التجريدة الرابعة فعادوا في أواخر جمادى الآخرة •

التجريدة الخامسة :

كان الامير جنكلي مقدم العساكر المصرية أثناء حصاره للكرك قـد كتب الى السلطان يعرفه ، بأن هذه القلعة لا تؤخذ بالحصار وانمـا بالمطاولة(١٤٢) كما أخبره بان العساكر الشامية والمصرية تعرضت لخسائر ضخمة في الارواح بسبب كثرة هجمات جيش الناصر عليهم • ثم استشاره في العمل بعد أن أقبل الشتاء ببرده القارس ، فأرسل اليه يأمره بالعودة • وفي جمادى الآخرة ٧٤٤هـ جرد السلطان تجريدة خامسة يرأسها تمر الموساوي ، وطقتمر الصلاحي في ألفي فارس(١٤٣) • وأمرهم بالنزول

---

(١٣٩) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٤٥ ، ٦٤٦ ــ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٨٨ ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٥١ «مخطوط» •

(١٤٠) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢١١ ــ ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٥٢ «مخطوط» •

(١٤١) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٥١ «مخطوط» •

(١٤٢) ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ج ١ لوحة ٥٢ «مخطوط» •

(١٤٣) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٥٠ ــ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٨٩ ــ ابن قاضي شهبة ، المصدر السابق ، ج ١ لوحة ٥٢ «مخطوط» •

حول الكرك وحفظ الطرقات ومنع من يصل اليها بالزاد والذخائر وعدة القتال(١٤٤) • فظفروا بقطعان كثيرة من أغنام أهل الكرك ، ورعوا زروعهم وقطعوا أشجارهم واستمروا في حصار الكرك حتى انقضى فصل الشتاء ووصلت اليهم التجريدة التالية •

التجريدة السادسة :

وفي الخامس عشر من شوال ٧٤٤هـ خرجت التجريدة السادسة من مصر متوجهة الى الكرك يتقدمها الامير علم الدين سنجر الجاولي في ألفي فارس وبصحبته عدد كبير من الامراء منهم : الامير أرقطاي ، والامير قماري الاستادار(١٤٥) وأشركوا معهم في هـذه التجريدة عددا مـن الحجارين والنقابين والنفطية وغيرهم من المتخصصين في الحصار • كذلـك أمر السلطان بخروج تجريدة أخرى من دمشق ، خرجت في أواخر شوال وعلى رأسها الامير علاء الدين قراسنقر والامير الحاج بيدمر(١٤٦) • ثـم شدد المحاصرون على الناصر أحمد وقواته فضعف أمره وضاقت بهـم السبل لانقطاع الارزاق عنهم وفي هذه المرة خانه نفر من فرسانه وأمراء الجيش في الكرك ، يقول ابن كثير : « ونزل منها جماعات من رؤسائها وخاصكية الامير أحمد بن الناصر مخامرين عليه »(١٤٧) • فأرسلوا الى مصر حيث أكرمهم السلطان وأخبروه أن حواصل الكرك قد قلت وأن أمره في ضعف •

تبين للصالح اسماعيل أن استنزال الكرك لن يتم الا بعد المطاولة في الحصار التي يترتب عليها نفاذ القوات والمؤن ، وعندئذ قرر أن يفرض عليها حصارا متواصلا ، ويبذل قصارى جهده في قطع كل الامدادات عنها ، ولهذا فقد أمر قواته في هذه التجريدة السابقة بالتشدد في الحصار •

---

(١٤٤) ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ج ١ لوحة ٥٢ «مخطوط» •

(١٤٥) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٥٢ – ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ٨٩ •

(١٤٦) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢١٢ •

(١٤٧) ابن كثير : المصدر السابق ، ج ١٤ ص ٢١٢ •

فغلت الاسعار فيها وندرت الاقوات وفي نفس الوقت عمد السلطان الى رعي زروعهم وقطع أشجارهم ، وأحضر التركمان لهذه الغاية(١٤٨) ٠ وكان الامير بيبرس الاحمدي قد « قطع أشجارا عظيمة وأثرابا واسعة »(١٤٩) ازاء هذا الحصار الاقتصادي المحكم اضطر الناصر أحمد الى سك الدنانير في الكرك على حساب ذخائره وتحفه التي يختزنها في القلعة ، فضرب الذهب وخلط فيه الفضة والنحاس حتى أصبح الدينار يساوي خمسة دراهم(١٥٠) ٠

التجريدة السابعة :

ولما وصلت الانباء الى الصالح اسماعيل بقرب نفاذ ذخائر الناصر أحمد أمر بزيادة التضييق والحصار ، وفي نفس الوقت سير التجريدة السابعة في ذي القعدة ٧٤٤هـ بقيادة الامير بيبرس الاحمدي والامير كوكاي(١٥١) ، وعينت لهم الاقامات — وخرج معهم ستة آلاف رأس من البقر ومائتي رأس جاموس ، وبعث معهم نحو ألفي راجل ، وبالاضافة الى ذلك ، سعى الصالح اسماعيل الى اغراء قوات الناصر أحمد بالمال والاقطاعات والمناصب حتى يخذلوه وينضموا الى قواته فزود الاحمدي بالمال اللازم من أجل هذه الغاية(١٥٢) ٠ كذلك أرسل الى دمشق يأمر نائبها بتسيير

---

(١٤٨) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ١٠٧ ٠

(١٤٩) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٥١ «مخطوط» ٠

(١٥٠) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٧١ والمنهل الصافي ، ج ١ لوحة ١٤١ «مخطوط» ، ويقول الصفدي : « وضرب الذهب وخلط فيه الفضة والنحاس ونفق ذلك في الناس فكان الدينار يساوي خمسة دراهم » (أنظر : الوافي بالوفيات ، ج ٨ ص ٩٠) ٠ أما ابن اياس فيقول : « فضرب ما بقي عنده من السروج الذهب والكنابيش ، وخلط من الذهب والنحاس فكان الدينار الذي ضربه يساوي خمسة دراهم فضة وانفق ذلك على العسكر الذين هم بقلعة الكرك » (أنظر : بدائع الزهور ، ج ١ ص ١٨١) ٠

(١٥١) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٥٤ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٩ ٠

(١٥٢) المقريزي : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦٥٤ ، ٦٥٥ ـ ابو المحاسن : المصدر السابق ج ١٠ ص ٩١ ٠

تجريدة أخرى على أن يصطحبوا معهم المجانيق وآلات الحصار ، « وأقاموا على الحصار العظيم بالمجانيق والنفط وغير ذلك[١٥٣] • ومع كل ذلك فقد تصدى الناصر أحمد لهذه الحشود الضخمة من عسكر مصر والشام ، ورد هجماتهم في عنف وقوة وشراسة •

التجريدة الثامنة :

قاست الكرك كثيرا من هول هذا الحصار ، وطول أمده ومع ذلك فان السلطان الصالح اسماعيل لم يدع أهل الكرك يلتقطون أنفاسهم ، فأمر بخروج تجريدة أخرى من مصر ، مع الابقاء على قوات التجريدة السابقة من مصر والشام في مراكزها حرصا على مواصلة الحصار وتضييق الخناق على المحصورين • فخرجت التجريدة الثامنة في أوائل محرم ٧٤٥هـ (مايو (أيار) ١٣٤٤م) باتجاه الكرك يقودها الامير منكلي بغا الفخري ومعه الاميران : المقر السيفي قماري وطشتمر طللية في ستة آلاف فارس[١٥٤] • وكانت الاموال قد نضبت من بيت المال بسبب حرب الكرك « فأخذ مالا من تجار الغنم ومن بيت الامير بكتمر الساقي على سبيل القرض وأنفق فيهم »[١٥٥] • ثم كتب الى نائب صفد بالانضمام الى القوات الشامية المحاصرة للكرك ، فاشترك نائب صفد بقواته •

د ـ سقوط الكرك ومقتل الناصر أحمد :

ضاق أهل الكرك ذرعا بما آلت اليه حالهم لطول أمد الحصار وكثرة ما أصابهم من قتل وتخريب ، فبدأ حماسهم للناصر أحمد يفتر وهمتهم في تأييده تتراخى وبدأوا يميلون الى انهاء الحصار بأي سبيل ، وأدرك قادة الجيوش المصرية والشامية هذه الحقيقة فعمدوا الى استغلالها وتمكن

---

(١٥٣) العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ ق ٣ لوحة ٧١٠ ـ ابن بهادر : فتوح النصر لوحة ٦٠٨ «مخطوط» •

(١٥٤) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٦٣ «مخطوط» • وانظر ايضا : : المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ص ٦٦٠ ـ العيني : عقد الجمان ، ج ٢٤ ق ١ لوحة ٧١ «مخطوط» ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٩١ •

(١٥٥) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٦٠ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٩١ •

نفر منهم من الاتصال بزعماء الكرك ووعدوهم بتأمين أرواحهم ، ومنوهم بالأموال الطائلة اذا هم خامروا على الناصر أحمد وخذلوه ، وبالفعل حملوا اليهم الخلع وثمانين ألف درهم • وكان يتزعم مدينة الكرك آنذاك الشيخ بالغ، وكان من أجل ثقات الناصر أحمد • والظاهر أن وعود المماليك أثرت في اخلاصه للناصر أحمد فتبادل مع المحاصرين المكاتبات ، بذلوا له فيها الوعود والمال ، فوعد بتسليم مدينة الكرك ان أمن السلطان الصالح اسماعيل أهالي الكرك ومقاتليها • فكتب الامراء للسلطان بذلك فوافق وبعث اليهم مرسوما يتضمن الامان المطلوب • وعلى هذا الأساس شخص الشيخ بالغ ومعه كل من مسعود وابن أبي الليث من أعيان مشايخ الكرك الى القاهرة سرا في شهر ذي القعدة سنة ٧٤٤هـ ، فأكرم السلطان وفادتهم وأنعم عليهم ، وكتب اليهم مناشير بكل ما طلبوه من الاقطاعات والاراضي حتى أن جملة ما طلبه بالغ بلغ نحو أربعمائة وخمسين ألف درهم في السنة ولأصحابه وبقية مشايخ الكرك ما يقرب من ذلك(١٥٦) • ثم عادوا الى الكرك بعد أن أقسموا على العمل ضد الناصر أحمد ، ومناصرة قوات السلطان الصالح اسماعيل • ولما وصلت الأنباء الى الناصر أحمد تحصن مع أتباعه في قلعة الكرك وأمر برفع الجسر • أما بالغ فقد أقام في المدينة مع أعوانه واستمرت المكاتبات قائمة بينه وبين العساكر المصرية والشامية •

نظمت القوات المهاجمة صفوفها واندفعت في هجمة قوية نحو الكرك ، فخرج أهل المدينة لقتالهم ، ولكن معظمهم كان مواليا للشيخ بالغ ، فتظاهروا بالهزيمة أمامهم وتركوا أبواب المدينة مشرعة ، فدخلتها قوات الصالح اسماعيل وأمنوا الناس وعينوا فيها الامير سيف الدين قبلاي نائبا(١٥٧) • ولم يفت ذلك في عضد الناصر أحمد فركز دفاعه عن القلعة،

(١٥٦) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٥٤ ، ٦٦١ ــ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٩٢ •

(١٥٧) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢١٢ ــ ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٦٣ «مخطوط» ــ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٦١١ «مخطوط» •

ثم تقدمت القوات المصرية والشامية والصفدية لحصار القلعة وخصصوا ثلاثة مجانيق لضربها من المدينة ليل نهار دون أن يؤثر ذلك في بنيان سورها(١٥٨) • وكان الامير سنجر الجاولي يعرف القلعة حق المعرفة ، فبالغ أشد المبالغة في الحصار ، وبذل أموالا كثيرة لأضعاف نفوس أتباع الناصر أحمد(١٥٩) فبدأوا يتسحبون من حول الناصر أحمد واحدا واحدا بعد الآخر بعد أن فعلت فيهم الأموال والوعود فعلها ، ولم يبق مع الناصر أحمد الا نفر قليل من أخلص خلصائه(١٦٠) • وأخيرا استطاع الجاولي نقب ثغرة في أسوار القلعة ، ونقب قبلاي ثغرة أخرى ، وتمكنوا من تعليق البرج الكبير المحاذي للباب ، بالاضافة الى بدنتين مجاورتين ، وأضرموا في الجميع النار ، فوقع البرج(١٦١) في ٢٣ صفر ٧٤٥هـ (٦ يوليو (تموز) ١٣٤٤م) ، واندفعت القوات داخل القلعة • استبسل الناصر أحمد في القتال ولكنه لم يلبث أن وقع في قبضتهم بعد أن جرح في ثلاثة مواضع من جسده فسجنوه في احدى قاعات القلعة تحت حراسة أميرين من المماليك • واحتاطوا على الحواصل والذخائر والخزائن ، فلم يجدوا من الذهب والفضة والغلة الا القليل اذ كان الناصر أحمد استنفذها في مراحل القتال •

وما أن سقطت القلعة حتى خرج ابن الامير بيبغا الشمسي من الكرك يحمل البشارة وكتب الامراء الى السلطان الصالح اسماعيل ، فوصل الى القاهرة في ٢٨ صفر ودوى سقوط الكرك والقلعة ووقوع الناصر أحمد في الاسر في مصر دويا هائلا ، ودقت البشائر بمصر والقاهرة سبعة أيام • ثم قدم من الكرك الامير أرلان ومعه النمجاة شعار السلطنة وسلمها

---

(١٥٨) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢١٣ •

(١٥٩) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٦١ والخطط ، ج ٤ ص ٢٤٧ ــ ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج٢ ص ٢٦٧ ــ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٩٢ •

(١٦٠) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٦١ ــ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٩٢ ــ ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٦٤ «مخطوط» •

(١٦١) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٦٤ «مخطوط» ــ وانظر أيضا : ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢١٣ ، المقريزي : السلوك ج ٢ ص ٦٦١ ــ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٩٢ •

للسلطان الصالح اسماعيل ، وكان الناصر احمد قد رفض تسليمها اليه(١٦٢) • ثم عهد السلطان الى الامير منجك اليوسفي الناصري بالخروج الى الكرك في مهمة خاصة ، فدخل الى الناصر أحمد وخنقه في ليلة ٤ ربيع أول ٧٤٥هـ (١٧ يوليو (تموز) ١٣٤٤م) ، وقطع رأسه(١٦٣) ، وحمله معه في علبة وسار به من ليلته الى القاهرة ، وقدم الرأس بين يدي السلطان ، وكان ضخما مهولا له شعر طويل ، فاقشعر السلطان من منظره وأصابه الصرع وبقي كذلك لحين وفاته • وهكذا أسدل الستار على أخطر ثورة ، وأطول حصار ، وأشرس قتال في تاريخ دولة المماليك الاولى دام مدة سنتين وشهر تقريبا(١٦٤) •

---

(١٦٢) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٦٢ •

(١٦٣) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٨ ص ٩٠ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢١٣ ـ ابن دقماق : الجوهر الثمين ، لوحة ١٥٩ «مخطوط» ـ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٦٢ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٧١ ، ٩٣ ، والمنهل الصافي ، ج ١ لوحة ١٤١ «مخطوط» ـ ابن بهادر : فتوح النصر ، لوحة ٦٦١ «مخطوط» •

(١٦٤) المقريزي : السلوك ، ص ٦٦٢ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٩٣ •

(٣)

أسباب عزل الناصر احمد وقتله

١ ـ اتهامه بسوء خلقه وعبثه :

يمر المؤرخون المحدثون على ثورة الناصر أحمد مرورا عابرا ، ويعتبرونها حدثا عاديا شأنها في ذلك شأن الكثير من الاحداث التي وقعت في عصر دولة المماليك الاولى • أما المصادر العربية فتتحامل كثيرا على شخصية الناصر أحمد وسلوكه ، وان كنا لا نميل الى الأخذ بآرائهم في ذلك لا سيما اذا أخذنا في الاعتبار أن المماليك كانوا يلجئون الى التشهير بالسلاطين والنيل من سلوكهم ، وقذفهم بما لا يليق ، تبريرا أمام الناس لوثوبهم عليهم واسقاطهم من عروشهم • وليس غريبا ان يأخذ المؤرخون لهذه الأحداث تبريراتهم فان معظمهم اما ينتمي الى طبقة الأمراء كبيبرس الدوادار ، وابن خليل الظاهري وابو الفداء أو يتولى منصبا من مناصب الدولة المملوكية كالمقريزي وابن تغري بردى •

ومن المعروف أن أمراء المماليك هم الذين أشاعوا اشتغال الناصر أحمد باللهو والعبث لاثارة الناس عليه « فقد أشيع على لسان ملكتمر السرجواني نائب الكرك ان الناصر أحمد عابث سيء السلوك • ولكن عندما تقابل السرجواني مع قوصون خاطبه قوصون بقوله : « أنت الذي عملت هذا كله ، وأنت قلت للامير أسندمر أن الامير أحمد يشرب ويمسك نساء الناس ، وهو مشتغل باللهو ، فقال السرجواني : ما هو صحيح ممن نقل الى الامير هذا الحديث ، وهذا وجهي ووجهه »(١٦٥) اذن استعمل قوصون والأمراء سلاح الاشاعات ضده ، كي يجدوا مبررا لابعاده عن السلطنة ، خاصة وأنه كان أكبر أخوته وأكثرهم قوة وأشدهم بأسا • ولنا أن نلاحظ بعضا مما ذكره المؤرخون عنه ، فابن حبيب يقول : « ياله ملكا سخيا عارفا ذكيا ، شجاعا كميا ، مهيب الشكل حسن المنظر

---

(١٦٥) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ أهل الاسلام ، ج ١ لوحة ١٧ «مخطوط» •

سريا»[١٦٦] ٠ أما ابن دقمان فيقول : « لم يكن في اخوته مثله لكنه لم يعط سعادة »[١٦٧] ٠ ويقول ابن قاضي شهبة : « كان أحسن اخوته شكلا ووجها صاحب بأس وقوة مفرطة »[١٦٨] ٠ أما أبو المحاسن فيذكره قائلا : « كان الناصر هذا أحسن اخوته وجها وشكلا ، وكان صاحب بأس وقوة مفرطة عنده شهامة »[١٦٩] ٠

٢ ـ تمسكه بالكرك مقرا لحكمه :

كان من الطبيعي بحكم نشأة الناصر أحمد وتربيته بالكرك ، أن يحبها ويحب أهلها ويصبح واحدا منهم ، فأبو المحاسن يقول : « فربي بالكرك وأحب أهلها وصارت له وطنا »[١٧٠] ٠ اذن كان الناصر أحمد ينظر للكرك كموطن نشأ به وتربى ، واتخذ من أهلها عشيرة ونصيرا ، الا أنه كان بسبب وجوده في الكرك بعيدا عن القاهرة جاهلا بمؤامرات الامراء ودسائسهم من أجل السلطنة ولما كانت الأنباء ترد اليه بما يجري هناك من قتل وسفك دماء ، وارتفاع سلطان وسقوط آخر ، لم يعد يثق بأحد من الأمراء والمماليك ، وأخذ يعمل على الابتعاد عنهم كما ألمه ما حل باخوته من اضطهاد ونفي وتشريد وقتل ٠ وهكذا كان عنصر الثقة عند قدومه الى مصر وتسلمه شعار السلطنة مفقودا بينه وبين الأمراء ، وقد رأينا من خلال سردنا للاحداث محاولات الامراء الموالين اقصاه عن الملك وهم في طريقهم الى مصر قادمين من الشام لمجرد أنــه سبقهم الى دخولها وحده ٠ كما رأينا اتفاقهم على الحجر عليه واقتسام السلطة بين عصبة الأربعة ٠

والناصر أحمد بحكم نشأته بعيدا عن قلعة الجبل لم يكن يحفــل بنواميس المماليك وعاداتهم باعتبار انهم يشكلون طبقة الاجتماعية ممتازة

---

(١٦٦) ابن حبيب : درة الاسلاك ، ج ٢ ص ٧٣ «مخطوط» ٠
(١٦٧) ابن دقماق : الجوهر الثمين ، لوحة ١٥٩ «مخطوط» ٠
(١٦٨) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٦٧ «مخطوط» ٠
(١٦٩) ابو المحاسن : المنهل الصافي ، ج ١ لوحة ١٣٩ «مخطوط» ٠
(١٧٠) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٧٢ ٠

منعزلة عن الشعب هي الطبقة الحاكمة والمتحكمة ، التي تشغل كـــل المناصب الكبرى بالدولة • أما أصحاب البــلاد الاصليين مـــن العرب المصريين او الشاميين فلا حق لهم في تقلد هذه المناصب ، لذلك خرج الناصر أحمد على هذه التقاليد ، وكسر نواميس المماليك وعاداتهم ، فاتخذ من أهل الكرك مسلميها ومسيحييها أعوانه وخواصه وقلدهم المناصب الكبرى في الدولة • فجعل يوسف بن النصال وأبا بكر البازدار من مقدمي الدولة ، واتخذ من أبي بكر حاجبا(١٧١) ، واختص بهما • الا أن هذا لم يعجب أمراء المماليك فاحتجوا على ذلك ، وأشاعوا أنهما « حكما في الدولة وتكبرا على الناس »(١٧٢) • ولم يكتف الناصر أحمد بذلك ، بل جعل من الرضى أحد نصارى الكرك كاتبه الخاص • وكان من المنطقي أن يرفض المماليك هذه السياسة وأن يثوروا على الأوضاع الجديدة التي تبيح ادخال العنصر العربي في الوظائف الكبرى في الدولة ، وكانت في الأصل وقفا على طبقة المماليك • كما اعتبروه خطرا على الامتيازات التي يحتكرونها ، لذلك اتفق طشتمر نائب السلطنة مع الأمراء الكبار عـلى الحجر على الناصر أحمد « وحط عــلى الكركيين ومنعهم مـــن الدخول اليه »(١٧٣) ولما استشعر الناصر أحمد بغربته في هذا الجو آثر الابتعاد عن القاهرة والمقام في الكرك عند قوم يثق فيهم كل الثقة وهو في هذه المحاولة يكرر ما أقدم عليه والده الناصر محمد من لجوئه الى الكرك عندما تفاقم الأمر في مصر وعندما أصبح لا يطيق الحياة تحت سيطرة أمراء المماليك ، محاولا أن يتخذها مقاما دائما ، فالناصر أحمد ووالده حاولا أن يجعلا من الكرك حاضرة ملكهما ولكنهما في بادىء الأمر لـــم يجرؤوا على الافصاح عن رغبتهما ، فلما انتقل كل منهما الى الكرك وبدأ يفصح عن رغبته قوبل ذلك من أمراء المماليك بالرفض • واذا كان الناصر

---

(١٧١) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٠٢ ــ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٦٠ •

(١٧٢) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٠٤ • أما ابو المحاسن فيقول « فحكما مصر في الدولة وتكبرا على الناس وسارا بحمق زائد » (أنظر : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٦١)

(١٧٣) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٠٦ ــ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٦٣ •

محمد سلبيا في تعبيره عن رغبته فان ولده الناصر أحمد كان شجاعة من أبيه عندما نقل كل ادارة السلطنة وخزانتها معه ، حتى أننا نستطيع القول بان الكرك أصبحت عاصمة دولة المماليك الاولى مدة شهرين تقريبا ولم يكتب لذلك الوضع أن يستمر أكثر من ذلك ٠

٣ ـ العامل الشخصي :

وكان للعامل الشخصي أثره في هذه الثورة فقد اقتسم الدولة كل من الاميرين الفخري وطشتمر ، فالفخري اختار نيابة دمشق ، وطشتمر نيابة السلطنة في مصر وبذلك أصبحت حاضرتا دولة المماليك تحت سيطرتهما ، وكان الناصر أحمد محقا فيما أقدم عليه للتخلص منهما ولكنه لم يوفق في اختيار الوقت الملائم ، فلم يصطنع سياسة الدسيسة والوقيعة للتفريق بين الصديقين الحميمين المتحالفين ليتخلص من كل منهما على حدة ٠ ذلك انه لم يرث عقلية أبيه الداهية الذي « كان يصبر الدهر الطويل عـــلى الانسان وهو يكرهه »(١٧٤) ، ثم يتخلص منه دون مشقة أو اثارة ٠ واذا كان قد نجح بسرعة في التخلص من أكبر خصومه ويمثلهم نائبا السلطنة في دمشق والقاهرة ، فان السرعة التي تم بها ازاحتهما من طريقة أثارت عوامل الحذر والريبة في نفوس الآخرين ونبهتهم الى حقيقة نوايا الناصر أحمد ، ولذلك بدأوا يتحرزون منه ويعملون على اقصائه بكل السبل ٠ وتزعم الامير بيبرس الاحمدي نائب صفد حركة المناهضة في بلاد الشام عندما حاول الناصر أحمد التخلص منه ، فالتف حوله أمراء دمشق ، وكاتبوا نائب حماة الحاج آل ملك ، ونائب حلب أيدغمش « فكان هذا أكبر الأسباب في خلع الناصر أحمد »(١٧٥) ٠ لذا اتخذ الأمراء في دمشق والقاهرة مقتل الاميرين الفخري وطشتمر ذريعة للقيام على الناصر أحمد وخلعه ٠ وعندما قام أمراء المماليك بحصاره في الكرك ، أبلى كل من الاميرين بيبرس الأحمدي(١٧٦) وعلم الدين سنجر الجاولي بلاء حسنا

---

(١٧٤) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٢١١ ٠

(١٧٥) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ٦٣٦ ٠

(١٧٦) يقول ابن دقماق في ذلك : « ثم جهز بيبرس هذا بحصار الملك الناصر احمد بالكرك ، فحصره مدة وبالغ فلم ينل منه قصدا » (أنظر : الجوهر الثمين : ج ١ لوحة ٣٧١ «مخطوط») ٠

في قتاله وأنزلا خسائر كبيرة بقواتـــه ، فكان لحقدهما عليـه أثره في اضعافه ٠

ونتساءل عن الدوافع التي حدت بأهل الكرك مسلميهم ونصرانيهم وأعرابهم الى الصمود في وجه أعنف وأشرس حصار شهدته الكرك مدة سنتين وشهر بشكل متواصل ٠

من تتبعنا لسير الأحداث في هذه المنطقة يتبين لنا أول كل شيء أنهم كانوا متعلقين بسلطانهم ، وكان هو أيضا متعلقا بهم يعد نفسه واحدا منهم : يتخلق بأخلاقهم ويتزيا بزيهم ، ولم يكن ذلـــك بالامر العجيب فالناصر أحمد عاش وتربى بينهم واتخذ من الكرك موطنا ، فلم يشعر بأي مشاعر للاغتراب في حياته بينهم ، اذ كان كركيا حقيقيا ظاهريا وباطنيا ، بعيدا عن الصفات التي تميز بها أمراء المماليك ٠ وقد استهجن ذلك أترابه من الأمراء ، ونعتوه بانه « يميل الى العوام »[١٧٧] ، والعوام بمفهوم ذلك العصر هم الشعب ٠ لذا وقفوا معه وآزروه ، يضاف الى ذلك أن سكان هذه البلاد شهدوا أعمال العنف والظلم والاستبداد التي كان ينتهجها السلاطين المماليك في بلادهم رأوا ما نال أميرهم المغيث عمر على يد الظاهر بيبرس وترحيل أبنائه عن الكرك وشاهدوا المصير التعس الذي آل اليه كل من السعيد والمسعود ولدى الظاهر بيبرس نفسه ، وكيف انتهى بهم الأمر بالنفي الى القسطنطينية ، ثم شهدوا الوقائع التي جرت للناصر محمد من اقصائه عن الحكم وابعاده الى الكرك ، ثم التجائه اليهم وثورته واستعادته لسلطنته الثالثة ٠ وهاهم يرون ما يحاك حول سلطانهم الناصر أحمد ، لذلك لا نعجب لانحيازهم اليه ونصرتهم لـــه وقيامهم بثورة عارمة ضد الوجود المملوكي نفسه ضحوا فيها بكل غال وتليد ٠

وقد دفع الملك الصالح اسماعيل وامراء المماليك في مصر والشام لاخماد هذه الحركة وكتم أنفاسها ، ثمنا غاليا لم يحدث مثله في تاريخ

(١٧٧) ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ الوحة ٦٧ «مخطوط» ٠

الاسلام ، فقد اشترك في هذه الحرب معظم نيابات الشام ومعاملاتها كما رأينا « وهلك الرعايا من التجاريد والفلاحون من السخر وحمل الاتبان وجر المجانيق وآلات الحصار »(١٧٨) ٠ واشترك معظم الأمراء في هـذه التجاريد « حتى أنه لم يبق بمصر والشام أمير الا تجرد الى الكرك مرة ومرتين »(١٧٩) وخسرت الدولة أموالا طائلة أنفقتها في اعداد هذه التجاريد، حتى خوى بيت المال الى حد اضطر الملك الصالـح اسماعيل معه الى الاقتراض من تجار الفرنجة في مصر لمتابعة الانفاق على عسكره ومواصلة قتال الناصر أحمد بالكرك والقضاء عليه كذلك ترتب على هذه الحرب كثرة الفتن ببلاد الصعيد ونواحي الشرقية(١٨٠) وقطعت السبل ، وغلت الاسعار في مصر والشام ، واضطر الناس في دمشق الى أكل الشعير(١٨١)٠ واجتثت أشجار الكرك ونواحيها ، واتلفت زروعها ، ولم يتخل أهل الكرك عن قضيتهم الا بعد أن نفذت أقواتهم بطول الحصار ، وأدركوا ألا أمل لهم في مواصلة الصمود خاصة وقد استخدم الصالح اسماعيل سلاح المال ٠ فأغرى ضعاف النفوس فانفضوا من حول الناصر أحمد ، وأدى ذلك كله الى أن « تخلى عنه أهل لكرك وضجروا من طول الحصار ووعدوا الأمراء بالمساعدة عليه(١٨٢) ٠ وانتهى الامر بتسليم المدينة ثـم

---

(١٧٨) الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج ٨ ص ٨٩ ٠

(١٧٩) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٧١ ٠

(١٨٠) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٥٨ ٠

(١٨١) ابو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ١٤٢ ـ الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ص ٢٥١ وانظر ايضا : ابن الوردي : تتمة المختصر ، ج ٢ ص ٣٣٥ ـ العمري : مسالك الابصار ، ج ١٦ ق ٣ لوحة ٧٦٠ «مخطوط» ٠ أبو الفلاح : شذرات الذهب ج ٦ ص ١٣٧ ـ ويقول ابو المحاسن عن الصالح اسماعيل : « مشقة كانت في أيامه من كثرة التجاريد الى قتال اخيه الملك الناصر احمد بالكرك فكانت السبل مخيفة » (أنظر : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٩٦) ٠ اما صالح بن يحيى فيقول : « وكان الشيء غاليا فكيل الدقيق بثمانية عشر درهما ، والخبز ثمان أواق دمشقية بدرهم ، والشعير الكيل بعشرة دراهم ، وكان غير ذلك من الاصناف متعذرة الوجود والحب رمان الرطل بأربعة دراهم وكذلك الجبن » (أنظر : تاريخ بيروت ص ١٠٧) ٠ ويقول ابن بهادر : « ووقع في هذه المدة ايضا الغلاء بدمشق حتى أكل الناس الشعير ، وبلغت الغرارة القمح بدمشق الى مائتين درهم فضة » (أنظر : فتوح النصر ، لوحة ٦٠٨ «مخطوط») ٠

(١٨٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٩١ ٠

سقوط القلعة • وقد ترتب على هذه الحروب اضعاف أسرة قلاوون فيما بعد ، اذ اصبحوا مجرد دمى يحركها الأمراء متى شاؤوا ، كما كان لها أثر كبير في تقلص الحكم في اسرتهم(١٨٣) • ويجب الا يغيب عن أذهاننا أن من أسباب صمود الناصر أحمد طوال هذه المدة انه توصل الى استخدام (المدافع) وكان لذلك آثاره البعيدة في امتداد أمره وشدة فتكه بمهاجميه الى حد ان قادة التجاريد عند قفولهم الى مصر والشام وكانوا يتعللون بتفشي الموت في صفوف عسكرهم وكثرة الجراحات فيهم(١٨٤) •

ولأول مرة في تاريخ دولة المماليك نشهد سلطانا لا يعتمد على المماليك في حمايته ، بل نشاهده يعتمد على العناصر العربيـة وهـم الأهالي الأصليون لمنطقة شرقي الاردن • ومن الغريب أن يعزي مؤرخو العرب سبب الفتن والثورات وفساد الحكم آنذاك الى عوامل جنسية فيقولون : « والجنسية علة الضيم »(١٨٥) • فالصراع الجنسي كان قائما ، حتى في صفوف المماليك أنفسهم : بين الجنس التركي والجنس الجركسي وأعتقد فيما أرى أن حركـة الناصر أحمد بالكرك كانت ثورة جنس بمفهوم ذلك العصر ، أي ثورة الجنس العربي على الجنس التركي ، ثورة تمثلت فيها الكراهية العنصرية للمماليك الذين مسهم الرق • وبسبب هذا استمات الطرفان في القتال مع ان معظم الثورات التي نشبت في الكرك قبل ذلك كان يدخل فيها عنصر المفاوضات والصلح والمهادنة ، كما فعل قلاوون مع الملك المسعود ، الا ان المماليك هنا رفضوا أي عرض للصلح أو المهادنة ، لان استمرار الاوضاع كما هي تمثل اهدارا لتقاليدهم بل تمثل خطرا أكيدا على وجودهم ولكن الجنس التركي تفوق في النهاية ، لأن المماليك آنذاك كانوا يمثلون قوة قتالية رهيبة ، وقد عبر المحدثون

---

(١٨٣) محمد جمال سرور : دولة بني قلاوون في مصر ، ص ٥٥ •

(١٨٤) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٥٠ • وفي هذا المعنى يقول ابن قاضي شهبة : « وقد تفاقم الامر وطالت الحرب وقتل خلق كثير من الجيوش ومن أهل الكرك » (أنظر : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٦٣ «مخطوط» •

(١٨٥) ابو المحاسن : حوادث الدهور ، ج ٢ ص ٤٨٥ ـ ابن الصيرفي : انباء الهصر بابناء العصر ، ص ٦ •

عن ثورات الاعراب بمصر ضد المماليك بأنها حركات وطنية(١٨٦) ، وثورة الكرك على هذا النحو ثورة وطنية . وقياسا على ذلك تكون ثورة الناصر أحمد بالكرك أول حركة قومية في منطقة شرقي الاردن بوجه خاص وبلاد الشام بوجه عام ضد السيطرة المملوكية . ومن هذا المنطلق نستطيع القول بان ثورة الكرك وقد انطلقت من مكان متحضر وشارك فيها العرب المسلمون والنصارى على السواء ، أول مظهر لانبعاث الروح القوميـــة العربية ضد السيطرة الاجنبية .

---

(١٨٦) ستانلي لينبول : سيرة القاهرة ، ص ١٨٠ .

الفصل السادس

أحداث المنطقة حتى قيام دولة المماليك الثانية

١ ـ في عهد الملك الصالح اسماعيل واخيه الملك الكامل شعبان والمظفر حاجي ٠

٢ ـ في فترة الفناء الاعظم (الطاعون) ٠

٣ ـ في سلطنة الناصر حسن الثانية وعهد المنصور محمد ابن حاجي ٠

٤ ـ أعمال كل من الملك الصالح صالح والناصر حسن في المنطقة ٠

٥ ـ المنطقة في عهد الملك الاشرف شعبان وحتى قيام دولة المماليك الثانية ٠

(١)

في عهد الملك الصالح اسماعيل واخيه الملك الكامل شعبان والمظفر حاجي

أمر السلطان الصالح اسماعيل الامير سيف الدين قبلاي بن عبد الله الحاجب بالبقاء في الكرك لتصريف أمورها الى أن يصدر مرسوم بتنصيب نائب لها . كما طلب منه أن يقوم بقدر الامكان باصلاح ما خربته الحرب وأتلفته فيها[١] . كذلك أصدر السلطان مرسوما حدد فيه عدد الأمراء والعساكر الذين تقرر ا قامتهم في الكرك ثم وجه الصالح اسماعيل الامير ملكتمر السرجواني نائبا للكرك على ما كان عليه قديما وصحبته مائة مملوك من مماليك قوصون وبشتاك للاقامة في قلعتها كجزء من قوتها ، وجهز معه الصناع والأموال لعمارة ما تهدم في المدينة والقلعة . فتولى السرجواني ترميم ما أخربته الحرب ، فأعاد بناء البرج والبدنتين[٢] ، كما قام بتضميد الجراح ، واشاعة الأمن والاستقرار في ربوع الكرك ونواحيها بعد هذه الحرب الطاحنة .

وفي أوائل سنة ٧٤٦هـ عزم الملك الصالح اسماعيل على أداء فريضة الحج . وبدأ يستعد لذلك . فأرسل الامير طقتمر الصلاحي الى البلاد الشامية بقصد جمع الأموال اللازمة لاعداد مهمات الحج وتجهيزها . من ذلك : شراء ستة آلاف جمل بأقتابها ، وألفي رأس غنم . وجميع ما يحتاج اليه السلطان في سفره كالعبي[٣] وغيرها من المهمات . ثم كتب الى

(١) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٦٢ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٩٣ ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ١ لوحة ٦٤ «مخطوط» .

(٢) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٦٦ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٩٣ .

(٣) العبي : مفردها عباءة ، ومنها نوع يسمى «الكبر» يرتديه رجال الدين والعسكريون على السواء ، ولونه أبيض في الغالب ، ونوع آخر يلبس في الايام الممطرة من قماش سميك له وبر يطلق عليه اسم «جوخة» وقد شاع استعماله في دولة المماليك (أنظر : ماير : الملابس المملوكية ، ص ٩٥ ، ٩٦) .

المسؤولين في الكرك والبلقاء بمنطقة شرقي الاردن بضرورة حضور العربان بجمالهم ، للمساعدة في نقل حاشيته • كما طلب من نائب الكرك ووالي البلقاء بحمل ألفي غرارة من الشعير الى العقبة ، بالاضافة الى الأصناف الأخرى التي يحتاج اليها السلطان في رحلة حجه(٤) • وبادرت طائفة من عربان الكرك والبلقاء بالحضور الى القاهرة ، وتسلموا مقدارا من المال لتجهيز جمالهم ، والاستعداد ليكونوا في خدمة السلطان •

وكان الملك الصالح اسماعيل قد فزع لرؤية رأس أخيه الناصر أحمد فزعا شديدا وارتاع لذلك بحيث أصبح شبحه يتراءى له في اليقظة والنوم، وانتابه الصرع والارق « وما برح يعتريه الارق ورؤية الاحلام المفزعة • وتمادى مرضه وكثر أرجافه » ، واشتد مرضه في أوائل ربيع الآخر ، فأبطل الحج ، وكتب الى الامير طقتمر يأمر بعودته الى الديار المصرية • وما زالت العلة تشتد بالسلطان ، حتى فاضت روحه في ٤ ربيع الآخر ٧٤٦هـ (٥) (١٣ أغسطس (آب) ١٣٤٥م) واتفق الامراء على تولية أخيه سيف الدين شعبان ، عرش السلطنة ولقب بالكامل ، وجلس على تخت السلطنة يوم وفاة أخيه • وانقضت أيام الصالح اسماعيل على « مشقة كانت في أيامه من كثرة التجاريد الى قتال أخيـــه الملك الناصر أحمد بالكرك »(٦) •

لم يحظ الملك الكامل سيف الدين شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون بتأييد معظم الأمراء(٧) • ففي ذي الحجة سنة ٧٤٦هـ أشيع أن هناك حلفا قد تم بين نائب دمشق يلبغا اليحياوي ، ونائب صفد الحاج آل ملك •

---

(٤) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٧٦ •

(٥) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٧٧ — العيني : عقد الجمان ، ج ٢٤ ق ١ لوحة ٧٤ «مخطوط» — ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٩٥ • اما ابن كثير فيقول انه توفي في ١٣ ربيع الآخر (أنظر : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢١٦) وابن دقماق جعلها في ٢٠ ربيع الاول (أنظر : الجوهر الثمين ، ج ١ لوحة ١٥٩ ، «مخطوط» •

(٦) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٩٦ — وانظر : المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٧٨ •

(٧) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٦٨٠ •

فكلف السلطان الامير منجك اليوسفي لكشف حقيقة هذا الامر ، غير أن الاميرين أنكرا ذلك ، وجددا يمين الولاء ، وجهزا بذلك محضرا قدم الى السلطان(٨) .

وفي أوائل سنة ٧٤٧هـ (١٣٤٦م) ، عزم السلطان على أداء فريضة الحج ، فندب الامير طقتمر الصلاحي للسفر الى بلاد الشام لجمع ألفي ألف درهم لهذه الغاية ، وطلب منه شراء الجمال والقماش والمهمات الاخرى التي يحتاج اليها السلطان وحاشيته في سفره(٩) . كما رسم بجمع الاموال والجمال من جميع نواحي مصر ، فضج الناس بمصر والشام بالشكوى بسبب المصادرات وما نالهم من أضرار . والظاهر ان بعض الامراء أشاروا عليه بضرورة ابطال حركة السفر للحج ، ولكنه لم يستجب لتوجيههم ، وأرسل الى الامير طقتمر الصلاحي بالشام يحثه على الاسراع بجمع المال واحضار ما ارسله بصدده(١٠) . فكتب يبغا اليحياوي نائب الشام الى السلطان يخبره بخراب بلاد الشام بسبب ما جمع من أهلها بالاضافة الى انتشار الجراد باعمال دمشق ومنطقة البلقاء ، ورعية للزروع هناك ، فارتفعت الأسعار حتى بلغت الغرارة بدمشق مائتين وخمسين درهما(١١) . وتقدم برجائه الى السلطان طالبا تأخير سفره هذا العام ، بسبب سوء أحوال الناس الاقتصادية . وعندما وصل هذا الكتاب وطولع في محضر من أمراء المماليك بمصر أقروه على رأيه وما زالوا يلحون على السلطان بتأجيل رحلته حتى وافق ، وكتب بذلك الى نائب دمشق . الا أن والدته ونساءه لم يقبلن ذلك وقوين عزيمته على السفر ، وعندئذ عاود المطالبة بجمع الاموال من جميع أنحاء البلاد ، وامر بالاستعداد لذلك . وطلب من الأمراء التأهب للسفر ، فشكوا رقة حالهم بسبب كثرة تجاريدهم لحرب الناصر احمد بالكرك ، ولكنه لم يقبل عذرهم فاشتد الامر على أهل مصر والشام « وكثر دعاؤهم على السلطان وتنكرت قلوب الامراء(١٢) ولم

---

(٨) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ١٢٤ .
(٩) ابو المحاسن : المصدر نفسه ، ج ٩٠ ص ١٢٤ .
(١٠) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١٣٢ .
(١١) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٧٠٢ ، ٧٢٨ .
(١٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١٣٤ .

يتردد يلبغا اليحياوي نائب دمشق في الجهر بمعارضته للسطان ، والخروج عليه ووجد استجابة من الامراء ونواب الشام جميعا ، فكتبوا الى السلطان يعددون عليه أخطاءه ومظالمه ، ثم كتب أمراء مصر بضرورة عزله • فاضطر الكامل شعبان الى التراجع عن عزمه في أداء الحج تهدئة للخواطر • وفي ٢٢ جمادى الاولى ارسل السلطان الامير منجك اليوسفي الى نائب الشام ليطمئنه برجوعه عما عزم عليه ، ويكشف أحوال البلاد • فعندما بلغ الامير منجك غور الاردن ، كتب الى السلطان يبلغه بان جميع أمراء الشام يؤيدون نائب دمشق ، وان عددا كبيرا من الامراء المصريين كاتبوه بالموافقة(١٣) • وحركه هذا الخبر على كبح جماح امراء المماليك بمصر فشن عليهم حملة شعواء وشرع في اعتقال كثير منهم ، فتنكرت له القلوب وكان ذلك آخر العهد بهيبته ، اذ تجرأوا عليه وحاربوه وأوقعوا بقواته الهزيمة • فاختفى في الدور السلطانية عند أمه ، فاعتقلوه وسجنوه ، وفي نفس الوقت أطلقوا سراح أخويه الامير حاجبي والامير حسين من سجنهما ، وكان السلطان شعبان قد اصدر امره بقتلهما في أعقاب هزيمته ولكن أمره لم ينفذ • فأجمع الامراء على تنصيب الامير حاجبي سلطانا مكانه ولقبوه بالملك المظفر ، وبايعوه بالسلطنة في أول جمادى الآخرة ٧٤٧هـ (١٩ سبتمبر (ايلول) ١٣٤٦م) ولما يتجاوز من العمر خمس عشرة سنة ثم قتلوا الملك الكامل شعبان في سجنه في ٣ جمادى الآخرة أي بعد جلوس أخيه على عرش السطنة بيومين(١٤) • وارسلوا بذلك الى نائب دمشق ، فسر لزوال دولة الكامل شعبان ، وبايع بقية الامراء للملك المظفر زين الدين حاجبي بن الناصر محمد بن قلاوون •

اشتد ضعف السلطنة المملوكية وانهارت سطوتها منذ قيام الناصر أحمد بثورته في الكرك ، وما زال مركز سلاطين المماليك يتدهور بصورة

---

(١٣) ابو الفداء : المختصر ، ج ٤ ص ١٥٠ ـ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ٢١٨ ـ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٧١٢ ، ٧١٤ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١٣٥ •

(١٤) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٧١٣ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١٤٠ وانظر ايضا : ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢١٩ •

واضحة بعد مقتله الى ان انتهى الامر بهم أن أصبحوا مجرد دميات في أيدي كبار أمراء المماليك ، الذين تمادوا في تحكمهم وسيطرتهم ، فكانوا يرفعون السلطان متى أرادوا ويقتلونه حيثما شاؤوا · فبعد أن أزاحوا الكامل شعبان من طريقهم وقتلوه في سجنه وأقاموا على السلطنة من بعده المظفر حاجبي أسرفوا في اظهار سطوتهم ، وعلى الرغم من ان السلطان الملك المظفر حاجبي أهمل أمور الدولة تماما وترك زمام الامور لنواب السلطنة وعكف على لهوه ومجونه مع عدد من النساء قيل أنه أولع بهن[١٥] ، الا ان ذلك لم يرض هؤلاء الامراء عن تصرفاته ، فما زالوا به حتى أخرج هؤلاء النساء من القصر ثم صاروا يضيقون عليه ويستبدون بالامور دونه ، وعندما حاول ان يعترض او يحتج او يرفع صوته ويستبد بعض الشيء بالامور دونهم[١٦] ، ركبوا بقواتهم وطلبوه وتسحب خواصه من حوله ، فولى هاربا · فأدركه الامراء ، وألقوا القبض عليه وذبحوه من ساعته وقطعوه قطعا ، وذلك قبيل عصر ١٢ رمضان ٧٤٨هـ[١٧] (١٧ ديسمبر (كانون اول) ١٣٤٧م) واتفقوا على تنصيب أخيه الامير حسين سلطانا مكانه ·

---

(١٥) شغف بثلاث نساء هن : اتفاق العوادة ، وسلمى ، والكركية (المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٧٢٥ — ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١٥٦) ·

(١٦) ذكر ابن تغري بردى : انه قتل بعض الامراء وسجن البعض وحاول نائب دمشق اثارة نواب الشام عليه ولكن السلطان تمكن منه وقتله (النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ١٦٣) ·

(١٧) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٧٤٤ — ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ١٧٢ ·

(٢)

في فترة الفناء الاعظم (الطاعون)

بويع السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون بالسلطنة في ١٤ رمضان ٧٤٨هـ (١٩ ديسمبر (كانون اول) ١٣٤٨م) ، وكان عمره يوم تولى السلطنة احدى عشر سنة[١٨] • وتولى الامير بيبغاروس نيابة السلطنة بالديار المصرية ، وشاركه في الحكم أخوه الامير منجك اليوسفي الذي تولى الوزارة ، فصار حكم مصر للاخوين بيبغاروس ومنجك السلاح دار[١٩] ، فاستبدوا بأمور الدولة والبلاد •

وفي هذه الاثناء تعرض العالم بأسره لوباء خطير انتشر انتشارا سريعا وعرف في المصادر العربية بالوباء او الفناء العظيم ، وكان ابتداؤه سنة ٧٤٢هـ (١٣٤١م) في بلاد الخط المجاورة للصين ، ثم انتقل الى بلاد الصين نفسها ، وهلك بسببه اعداد رهيبة من أهل الصين وبولغ في ذلك حتى قيل أنه « لم يبق منهم الا القليل »[٢٠] ثم اتصل الوباء ببلاد الهند وأزبك (بلاد القفجاق) ، ثم انتقل بواسطة الريح والمسافرين ، حتى عم بلاد الشرق جميعا • وامتد الوباء الى بلاد استنبول وقيصرية الروم (بلاد الاناضول) وظهر في بغداد • وفي مستهل جمادى الاولى ٨٤٨هـ (٩ أغسطس (آب) ١٣٤٧م) ابتداء الوباء بارض حلب[٢١] ، فعم جميع بلاد الشام واستشرى خطره حتى أباد أعدادا كبيرة من السكان وأهلك معظم سكان أغوار الاردن كما أفنى الكثير مـــن أهالي الكرك والبلقاء وعجلون[٢٢] • وبادت مدن

---

(١٨) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٧٤٥ – ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١٨٧ •

(١٩) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١٨٩ •

(٢٠) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١٩٧ •

(٢١) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٧٧٥ – ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١٩٧ •

(٢٢) ابن بطوطة : الرحلة ، ج ٢ ص ١٧٦ – المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٧٧٤ – ابو المحاسن :النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١٩٧ •

بأكملها مثل مارواه المقريزي وان كان يتضمن بعض المبالغة انه لم يبق أحد من سكان مدينتي اللد والرملة وانه لم يبق من سكان مدينة جنين الا عجوز واحدة خرجت منها هاربة(٢٣) .

ويؤكد ابن بطوطة الرحالة الذي عاصر هذا الوباء أنه هلك من مدينة غزة اثنان وعشرون ألفا بمعدل ألف شخص في اليوم(٢٤) . ومن الشام انتشر الوباء في مصر انتشار النار في الهشيم ، فأفنى أعدادا هائلة من سكانها ، ويذكر ابن بطوطة أن عدد الموتى بالقاهرة بلغ واحدا وعشرين ألفا في اليوم الواحد(٢٥) . استشرى الوباء في منطقة شرقي الاردن : جبالها وأغوارها وهلك بسببه « عربان البوادي وسكان الجبال والضياع »(٢٦) ولم تسلم الحيوانات منه ، فقد وجد في غور الاردن الكثير من الاسود والذئاب وحمر الوحش والخنازير والارانب وغيرها من الوحوش وقد ماتت بسببه(٢٧) . ومن بلاد الشرق الادنى الاسلامي انتقل الوباء عن طريق السفن التجارية الى بلاد الفرنج (اوروبا) فأصاب قبرص ، والاندلس وجميع بلاد افريقية ، وانتشر الى بلاد العالم المعروف آنذاك(٢٨) . وقد شاهد الرحالة ابن بطوطة هذا الوباء وعاين ضحاياه فعندما زار دمشق قال : « شاهدت أيام الطاعون الاعظم بدمشق في أواخر ربيع الثاني سنة تسع وأربعين »(٢٩) . كما شاهد حلب وحمص وعاد

---

(٢٣) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٧٧٤ .

(٢٤) ابن بطوطة : الرحلة ، ج ٢ ص ١٧٦ ، وانظر ايضا : المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٧٥ ــ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١٩٨ .

Jacob, History of palestine, P. 306.

(٢٥) ابن بطوطة : الرحلة ، ج ٢ ص ١٧٧ ــ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٧٧٢ .

(٢٦) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٧٧٤ .

Ziadeh, Urban life in Syria, P. 61.

(٢٧) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٧٨٤ ــ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٢٠٩ .

(٢٨) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٧٧٧ ــ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١٩٨ ــ عبد العزيز السالم : تاريخ الاسكندرية وحضارتها ، ص ٣٠٢ .

Ziadeh, Urban life in Syria, P. 61.

(٢٩) ابن بطوطة : الرحلة ، ج ١ ص ٦٠ .

الى دمشق وعجلون والقدس والخليل وغزة فوجد « معظمها خاليا من كثرة من مات بها من الوباء »(٣٠) وبالتدريج بدأ الوباء ينحسر عن البلاد الشامية والمصرية منذ شهر ربيـــع الثاني ٧٤٩هـ في الشــــام منتصف ذي القعدة في مصر(٣١) ٠

وقد تسبب الطاعون في تخريب عمران بلاد مصر والشام ، فانعدمت الزراعة لقلة المشتغلين فيها وموت الفلاحين « فكان الرجل يوجد ميتا والمحراث في يده »(٣٢) وأدى ذلك الى ضعف الانتاج الاقتصادي واختلال الامن وفساد الاحوال ٠ ففي أوائل سنة ٧٥٠هـ (١٣٤٩م) خرجت العربان عن الطاعة لضعف السلطة المركزية في القاهرة ، وكثرت الحروب بينهم ٠ كما اشتغل عرب الكرك والبلقاء باعمال النهب والسلب واحترف كثير منهم اللصوصية ، وتمرد بنو ربيعة وبنو نمير ، فحاول الامير جركتمر نائب الكرك أن يقضي على حركتهم ولكنهم أنزلوا بقواته هزيمة نكراء وقتلوا عشرة من اصحابه(٣٣) ٠ فكتب الى مصر بذلك ، فرسم السلطان للامير أرغون شاه نائب دمشق بتجهيز العساكر لمعاونة نائب الكرك والخروج لحربهم ٠ وبالاضافة الى هذه القبائل العربية قامت جموع العشير من ثعلبة والعائذ وجرم باجتياح أرض فلسطين والعيث في البلاد وقطع الطرقات على المسافرين(٣٤) ٠ وتمكنوا من أسر الامير يلجك نائب غزة ، ثم اندفعوا نحو الاغوار ، فاقتحموا القصير المعيني (الشونة الشمالية) وقتلوا فيه جماعة من الجبليين سكان جبال عجلون ، وعمال معاصر السكر ، ونهبوا ما في المعاصر من القنود والاعسال والسكر وغيره(٣٥) ٠ ولم يكتفوا بذلك ،

---

(٣٠) ابن بطوطة : الرحلة ، ج ٢ ص ١٧٦ ٠

(٣١) ابن بطوطة : الرحلة ، ج ٢ ص ١٧٦ ـ المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٧٧٢ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١٩٥ ٠

(٣٢) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٧٧٥ ـ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ١٩٨ ٠

(٣٣) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٧٧١ ، ٧٩٩ ٠

(٣٤) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٧٩٨ ٠

(٣٥) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٨٠٤ ٠

بل قصدوا القدس والخليل والرملة واللد ونهبوها واعتدوا على سكانها ٠ فأمر السلطان بخروج التجاريد اليهم من مصر والشام ، فلما علم العشير بذلك ولوا الادبار وهربوا في برية الحجاز(٣٦) ٠ وفي اثناء ذلك تولى الامير سيف الدين دلنجى نيابة غزة وحدث أن بلغه في رجب ٧٥٠هـ (اكتوبر (تشرين أول) ١٣٤٩م) ، أن جماعات من العشير تجمعت بقصد نهب البلاد ، فركب اليهم بقواته ، واجتمع بهم قرب اللد وبدأ في موادعتهم حتى تمكن من خداعهم وقبض على مائتين من زعمائهم واصطحبهم الى غزة حيث وسطهم(٣٧) ٠ وفي شعبان احتال الامير قبلاي على الامير ادى بن فضل أمير جرم فاعتقله ، وكان على عداوة مع الامير سنجر بن علي أمير ثعلبة ، فقدم به القاهرة حيث ضرب وأبناء عمومته ، وألزم بألف جمل ومائتي ألف درهم ، ثم سمروا وأرسلوا الى غزة ووسطلوا فيها ، فثار أخوادي ، وقصد الهجوم على غزة ، فكتب السلطان الى نائب الكرك ونائب صفد بالخروج لمساعدة نائب غزة ٠ وتمكن دلنجي بمساعدة قوات الكرك وصفد من قتله بعد معركة دامت اربعة أيام ٠ عندئذ تفرق العشير وضعف أمرهم ، فدخل قسم منهم الشرقية من ارض مصر ، ولكن السلطات المصرية تمكنت من القبض على ثلاثمائة منهم وصادرت ثلاثة آلاف جمل ، وسير الرجال الى القاهرة حيث استخدموا في العمائر الى أن هلك اكثرهم(٣٨) ٠ وبالقضاء على بني جرم اغتبظ سنجر بن علي أمير ثعلبة فضمن درك البلاد(٣٩) ، وعاد الهدوء والنظام يخيم على الديار الشامية والمصرية بعد فترة طويلة من الاضطراب واختلال الامن ٠

وهكذا ترتبت على الفناء الكبير نتائج خطيرة سياسية واجتماعية واقتصادية فقد أثر تأثيرا عميقا بالاضافة الى ما سببته حركة الناصر أحمد بالكرك من خسائر فادحة في الكيان السياسي والاجتماعي لدولة المماليك الاولى في مصر والشام ، وأدى في النهاية الى تدهور عام لم تبرأ منه هذه

(٣٦) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٨٠٥ ٠

(٣٧) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٨٠٥ ٠

(٣٨) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٨٠٨ ٠

(٣٩) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٨٠٧ ٠

الدولة لفترة طويلة بحيث فقدت مقوماتها وقدرتها على الصمود في وجه التوسع التيموري بعد ذلك(٤٠) ٠

وفي شوال ٧٥١هـ (ديسمبر (كانون أول) ١٣٥٠م) ، خرج الامير بيبغاروس نائب السلطنة للحج ، فاستغل السلطان الناصر حسن فرصة غيابه وألقى القبض على أخيه الوزير منجك اليوسفي ، وفي نفس الوقت أغرى السلطان عرب شطى وبني عقبة في الكرك ، وبني مهدي في البلقاء بالقيام مع الامير فضل بن عيسى بن مهنا الى مدينة العقبة في جنوب الاردن ومنع أي اتفاق قد يعقد بين طاز وبيبغاروس(٤١) ٠ ثم أرسل الى الامير طاز والامير بزلار أمير الركب يأمرهما بالقبض على بيبغاروس وارساله الى سجن الكرك ، فأدركها الرسول في العقبة وتمكنا من اعتراض بيبغاروس في الطريق وأخـذ سيفه وأرسلاه للقاهرة ٠ ثـم أرادا تسليمه الى طينال الجاشنكير رسول السلطان ، ولكن الامير طاز لم يلبث أن عدل عن ذلك واستجاب لرغبة بيبغاروس في أن يحج معه بناء على الحاحه ، وأرسل بذلك الى الناصر حسن(٤٢) ٠ فلما قضى الحج وقفلوا عائدين ، تسلم طينال رسول السلطان الامير بيبغاروس في بدر ، وتوجه به الى الكرك(٤٣) ٠ حدث ذلك في الوقت الذي شرع الناصر حسن في اجراء عملية تطهير كبيرة في صفوف الامراء ، فالقى القبض على كثيرين منهم أودعهم السجون ، كما أقدم على عزل الامير صرغتمش من وظيفة الجمدارية وأدخله الخدمة مع الامراء ، ثم ندبه بعد ذلك لكشف الجسور في الوجه القبلي(٤٤) ٠ ولكنه

---

(٤٠) محمد مصطفى زيادة : دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ، بحث في كتاب « التاريخ والآثار » الحلقة الدراسية الاولى ، القاهرة ١٩٦٢م ، ص ١٦٦ ٠

(٤١) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٨٢٦ — ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٢٢٢ ٠

(٤٢) ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٤٨ ، ٥١٣ — المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٨٢٨ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٢٢٤ ٠

(٤٣) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٨٣٥ — ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٢٢٨ ٠

(٤٤) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٨٢٥ — أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٢٢١ ٠

لم يلبث في شهر صفر ٧٥٢هـ أن خلع عليه وأقره رأس نوبة(٤٥) ، على ما كان عليه أولا . أوغرت هذه التصرفات قلوب الامراء على السلطان حسن ، فاتفقوا على خلعه وركبوا في ٢٧ جمادي الاخر ٧٥٢هـ (٢٢ أغسطس (آب) ١٣٥١م) لتنفيذ خطتهم ، ولما شعر السلطان بالخطر ، أعلن موافقته على التنازل عن العرش ، وأرسل اليهم النمجاة ودخل الى حريمه ، فأرسلوا اليه الامير صرغتمش في جماعة لالقاء القبض عليه فدخل عليه وحجزه في قاعة من قاعات القصر ووكل به من يحفظه(٤٦) . ثم اتفق الامراء على سلطنة أخيه الملك الصالح صالح بن الناصر محمد بن قلاوون ، وذلك في ٢٨ جمادي الاخر ٧٥٢هـ(٤٧)، (٢٣ أغسطس (آب) ١٣٥١م) . ولكن ما كاد السلطان الصالح صالح يتولى السلطنة حتى طلب أخاه حسنا ، فطيب خاطره وأسكنه معه في قصره ، وأجرى عليه من الرواتب ما يكفيه ، ورتب من يقوم بخدمته(٤٨) .

---

(٤٥) رأس نوبة : موضوعها الحكم على المماليك السلطانية ، والاخذ على أيديهم (أنظر . القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ص ١٨) .

(٤٦) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٢٣١ .

(٤٧) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٨٤٩ — ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٢٥٤ .

(٤٨) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٢٣١ .

(٣)

في سلطنة الناصر حسن الثانية وعهد المنصور محمد بن حاجبي

ثم تمكن الامير صرغتمش من القضاء على تحالف الامير بن مغلطاي ومكنلي بغا وألقى القبض عليهما ، فأمر السلطان الملك الصالح بارسالهما الى سجن الاسكندرية(٤٩) فازدادت ثقة السلطان فيه ، وأكرمه وخلع عليه ، وجعل اليه التصرف في امور الدولة كلها من الولاية والعزل والحكم(٥٠) . فركبه الغرور واستبد بالامور ، وعظم ترفعه على الناس ، وعارض الامراء في جميع افعالهم ، وصار يولى وظائف الدولة من يشاء من أعوانه فتنكر له الامراء ، وحدثت الفتنة بين الاميرين طاز وصرغتمش ، وحاول طاز قتله ، ولكن صرغتمش تمكن من التغلب عليه وألقى القبض على اخوته وكبار حاشيته(٥١) . ثم انه اتفق مع بقية الامراء الكبار على خلع الملك الصالح ، الذي كان منحازا الى الامير طاز ضده واعادة الناصر حسن الى السلطنة . فخلع الملك الصالح صالح في ٢ شوال ٧٥٥هـ (٢٠ أكتوبر (تشرين أول) ١٣٥٤م) ، وحبس بالقلعة(٥٢) ، في المكان الذي حبس فيه أخوه الحسن . ثم أفرج الامراء عن الناصر حسن وبايعوه بالسلطنة في نفس اليوم ، وهى سلطنته الثانية(٥٣) .

وقد ازداد نفوذ الامير صرغتمش في سلطنة الناصر حسن الثانية ، وانفرد بأمور الدولة ، فعظم أمره وأثرى وكثرت مواله وتاق الى الملك ،

---

(٤٩) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٢٥٩ .

(٥٠) المقريزي : السلوك ، ج ٢ ص ٨٦٠ — ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٢٦٨ . وانظر : ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ ص ٣٠٥ .

(٥١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٢٨٦ .

(٥٢) بقي في السجن حتى توفي في ذي الحجة سنة ٧٦١هـ (أنظر : الصفدي : أعيان العصر وأعوان النصر ، ج ٣ لوحة ١١٢ «مخطوط» — المقريزي : السلوك ، ج ٣ ص ٥٥ — ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٢٨٧) .

(٥٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢٥١ — المقريزي : السلوك ، ، ج ٣ ص ١ — ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٣٠٢ .

فقرر السلطان التخلص منه باتفاق مع الامراء • ففي أواخر شهر رمضان ٧٥٩هـ (أغسطـ (آب) ١٣٥٨م) ألقى القبض عليه وأودع في سجن الاسكندرية ، ومعه مجموعة من الامراء حيث قتل(٥٤) •واستقل الناصر حسن في تدبير أمور المملكة ، وصفا له الجو ، ولكن هذا الصفاء لم يطل أمده ، فقد ثار الامراء عليه بزعامة الامير يلبغا العمري الناصري ، فاقتتلوا معه فانهزم ودخل في قلعة الجبل ، وبات الجيش والامراء محدقين بالقلعة • فهم بالهرب في الليل على هجن كان عدها للهرب الى الكرك(٥٥) ، وعند بروزه من القلعة القى القبض عليه وادخل في دار يلبغا ، فقتله واخفى قبره(٥٦) • ثم اتفق الامير يلبغا مع الامراء على اختيار الامير محمد بن المظفر حاجي وبايعوه بالسلطنة في ٩ جمادي الاولى ٧٦٢هـ(٥٧) (١٨ مارس (آذار) ١٣٦١م) ، ولقبوه بالملك المنصور ، وهو أول من تسلطن من احفاد الملك الناصر محمد بن قلاوون • وقام الامير يلبغا بتدبير أمور الدولة • وفي عهد الملك المنصور محمد بن حاجي ، وقعت الفتن بين الفلاحين في قرى عجلون ، وانقسموا الى طائفتين : يمنية وقيسية ، واقتتل الفريقان وقتل من الطرفين اعداد كبيرة ، حتى أن قرية عين جنا القريبة من مدينة عجلون دمرت وقطعت اشجارها(٥٨) • وفسدت الامور هناك ، فجرد اليهم

---

(٥٤) المقريزي : السلوك ، ج ٣ ص ٤٢ ، ٤٤ ، وانظر ايضا : الصفدي : اعيان العصر واعوان النصر لوحة ١١٢ «مخطوط» ــ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢٦٢ ، ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ ص ٣٠٦ ــ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٣٠٨ ، ٣٢٨ •

(٥٥) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢٧٨ ــ ابن قاضي شهبة : الاعلام بتاريخ اهل الاسلام ، ج ٢ لوحة ١٥٩ «مخطوط» •

(٥٦) ولي الدين العراقي : الذيل على ذيل العبر ، لوحة ٢ «مخطوط» ــ المقريزي : السلوك ، ج ٣ ص ٦٢ ، ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ص ٣١٣ •

(٥٧) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢٧٨ ــ ولي الدين العراقي ، الذيل على ذيل العبر ، لوحة ٢ «مخطوط» ــ المقريزي : السلوك ، ج ٣ ص ٦٥ ــ ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٣ •

(٥٨) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢٨٩ ــ ذكر ابن كثير أن القرية هي (عين حيتا) ولكن القرية الموجودة بجانب عجلون هي قرية (عين جنا) ، وما زالت للآن • وقد ذكر النويري واديها في حادثة سيل عجلون ، والظاهر ان الخطأ في التنقيط (راجع الملاحق عن حادثة السيل والوادي) •

الامير علاء الدين أمير علي نائب دمشق عسكرا ، ولما وصلت التجريدة اليهم سعي قائدها الى الصلح بين الطرفين فاصطلحت عشائر الفلاحين ، واتفقوا وعاد الهدوء والاستقرار الى ربوع عجلون[٥٩] . ولكن هذا الاستقرار الذي عم البلاد لم يدم طويلا فقد اتفق الامراء على خلع السلطان ، فخلع في ١٥ شعبان ٧٦٤هـ[٦٠] (٢٧ مايو (آيار) ١٣٦٣م) ، وأقاموا مكانه ابن عمه الملك الاشرف شعبان بن حسين ، وكان طفلا في العاشرة من عمره .

---

(٥٩) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ص ٢٩٠ .

(٦٠) ولي الدين العراقي : الذيل على ذيل العبر ، لوحة ١٤ «مخطوط» ـ المقريزي . السلوك ، ج ٣ ص ٨٢ ، ٨٣ . وبقي المنصور مسجونا في الدور السلطانية من القلعة الى ان توفي في محرم ٨٠١هـ (أنظر : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص ٧).

(٤)

أعمال كل من الملك الصالح صالح والناصر حسن في المنطقة

قام الملك الصالح صالح ببعض الانشاءات العمرانية في منطقة شرقي الاردن منها تجديدة للمسجد المقام على قبر جعفر بن ابي طالب بمؤتة جنوبي الكرك ونستدل على ذلك من وجود نقش من خمسة اسطر على لوحة رخامية مثبتة على الباب الداخلي للمسجد ، نقرأ فيها النقش التالي :

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما جدد في أيام مولانا السلطان الملك الصالح صلاح الدنيا والدين صالح بن مولانا السلطان الملك الناصر محمد وذلك في نيابة المقر العالي السيفي (أرلان ؟) نائب السلطنة الشريفة بالكرك والشوبك المحروستين أعز الله أنصاره (بمباشرة ؟) الفقير الى الله تعالى (شمس ؟) الدين الهاروني في سنة اثنين وخمسين وسبعمائة(٦١) » ·

ولما ارتفع شأن صرغتمش وأصبح صاحب النفوذ الاول في دولة الناصر حسن شرع في التعبير سلطانه عن طريق البنيان · فالى جانب المدرسة والضريح والقبة التي انشأها في القاهرة(٦٢) · وجه صرغتمش اهتماما

---

(٦١) انظر نص النقش أيضا في :
Brunnow, Provincia Arabia, vol. 1, P. 14.
مصطفى الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ١ ص ٥٤٨ ، دائرة الآثار العامة ، قسم التسجيل ·

(٦٢) اختار الامير صرغتمش موقعا بجوار جامع ابن طولون ، واختط فيه مدرسته ، في رمضان ٧٥٦هـ (١٣٥٥م) (المقريزي : السلوك ، ج ٣ ص ٢٢) · استجابة لمظاهر الدين واشباعا ليتقوى او لتخليد ذكراه ، وكملت هذه المدرسة سنة ٧٥٧هـ ، وجعلها لتدريس المذهب الحنفي ، ورتب أن يتعلم فيها عدد من الطلبة الغرباء وأوقف لها اوقافا طائلة (انظر : وثيقة الامير صرغتمش ، الارشيف التاريخي بوزارة الاوقاف بالقاهرة رقم ٣١٩٥ تاريخ ٢٧ رمضان ٧٥٧هـ · قام بدراستها الدكتور عبد اللطيف ابراهيم ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، مايو ١٩٦٥م ، ومايو ١٩٦٦م) ·

خاصا بمنطقة شرقي الاردن ، ففي سنة ٧٥٧هـ (١٣٥٦م) بنى مدرسة في مدينة عمان(٦٣) ، لانشك في أنه انشأها لتدريس المذهب الحنفي تماما كمدرسته التي بناها في القاهرة • واهتم صرغتمش بمدينة عمان اهتماما خاصا ، وكانت مدينة حسبان مركز ولاية البلقاء آنذاك(٦٤) ، فعمد الامير صرغتمش الى نقل الولاية والقضاء منها الى مدينة عمان ، وما زال يهتم بعمان حتى « جعلت أم تلك البلاد »(٦٥) • ويوجد الان في قلعة عمان بقايا بناء (بجوار المتحف الحالي) ، اختلف الباحثون في تحديد وظيفته والعصر الذي انشىء فيه ، فاطلق بعضهم عليه (القصر العربي) وآخرون (القاعة) ، ويرى الاستاذ كوندر أن من جملة الحليات المعمارية الموجودة في هذا البناء ما يعود الى القرن الرابع عشر الميلادي(٦٦) • ولما كانت مدينة عمان قد اصبحت في منتصف القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) أهم مدينة في البلقاء ، بعد أن نقلت اليها الولاية والقضاء ، فانني أعتقد أن هذا البناء هو ما يسمى في المصادر العربية (بدار العدل) ، وأنه بنى في سلطنة الناصر حسن الثانية ، بناء على تعليمات الامير صرغتمش نفسه • البناء لا يعدو أن يكون قاعة واسعة أو ايوان كان يجلس فيها السلطان أو النائب أو الوالي

---

(٦٣) العبارة التي وردت في السلوك هي : « وفيها عمرت مدينة عمان من البلقاء للامير صرغتمش ، واعتمد المحقق في صياغة هذه العبارة على المخطوطتين أ ، ب • الا ان المخطوطة (ف) وردت فيها العبارة كما يلي : « وفيها عمرت مدرسة عمان من البلقاء للامير صرغتمش • وأرى أن الصيغة الاخيرة هي الاصح ، فمدينة عمان كانت عامرة آنذاك ، والمدينة لا تبنى لشخص ، اما المدرسة فهي التي بنيت للامير ، خصوصا وانه بنى مدرسة اخرى في القاهرة بنفس السنة (أنظر : المقريزي : السلوك ، ج ٣ ص ٣٠ وحاشية رقم ٢) •

(٦٤) راجع الفصل الرابع عن والي حسبان وحركة الناصر محمد بن قلاوون من الكرك ، ثم زيارة الناصر اليها •

(٦٥) المقريزي : السلوك ، ج ٣ ص ٣٠ •

(٦٦) كوندر بعد وصفه للبناء يرى أنه يمكن اعادته الى الفترة العباسية والى عهد المأمون بالذات ولكنه لا يجزم • انظر :

Conder, The Survey of eastern Palestine,P.63.

في أيام معينة ومعه القضاة لفض المنازعات بين الناس ، أو يقوم مفتيان بهذا الامر وحدهما(٦٧) • وقد ذكرت المصادر عن وجود دار للعدل في مدينة الكرك في هذه الفترة(٦٨) •

---

(٦٧) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ص ١٩٢ ، ٢٢٥ •

يقول المقريزي : عن دار العدل : « واركبوا امير علي الى الايوان المعروف بدار لعدل وأجلسوه على تخت الملك » (السلوك ج ٣ ص ٢٧٦) • ويقول المقريزي أيضا : « وفرش الايوان الذي يقال له دار العدل من قلعة الجبل ببسط جدد » (السلوك ج ٣ ص ٥٣٠) • أما أبو المحاسن فيقول : « جلس الملك الناصر فرج بدار العدل • أعني بالايوان من قلعة الجبل ، على عادة الملوك » (النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ص ١٧٣) ويقول ابن الصيرفي : « وفي يوم الخميس كانت الخدمة بالايوان المسمى بدار العدل » (نزهة النفوس والابدان ، ج ١ ص ٣٧٧ ، ٤٠٠) •

(٦٨) راجع الفصل الرابع وجلوس محمد بن قلاوون بدار العدل بمدينة الكرك •

(٥)

المنطقة في عهد الملك الاشرف شعبان وحتى قيام دولة المماليك الثانية

بعد التجربة المريرة التي مرت بها الاسكندرية بغزوة القبارصة المحرم ٧٦٧هـ (كتوبر (تشرين أول) ١٣٦٥م) ، وقع الخلاف بين السلطان الاشرف شعبان ، والامير يلبغا الخاصكي الاتابك · فحاول الاخير بمعاونة مماليكه الاجلاب(٦٩) عزله وتولية أخيه آنواك بن حسين(٧٠) ، ولكن أهالي القاهرة وقفوا الى جانب السلطان ومماليكه ، وتمكنوا من التغلب على يلبغا واعتقاله بقلعة الجبل · ولكن بعض الامراء الساخطين على يلبغا قتلوه بسيوفهم في ١٠ ربيع الاخر ٧٦٨هـ(٧١) (١٤ يسمبر (كانون أول) ١٣٦٦م) ، وعندما حاول مماليكه الاجلاب الانتقام لمقتل استاذهم ألقى القبض على عدد كبير منهم وقتل آخرون ، وحبس بعضهم في سجن الكرك ومن هؤلاء : برقوق وبركة ، والطنبغا الجوباني ، وجركس الخليل ، وآقبغا المارداني سجنوا في جب مظلم بقلعة الكرك عدة سنين(٧٢) · وهكذا تشتت شمل المماليك اليلبغاوية وفرح الناس بزوال دولة الاجلاب لما كانوا يقاسونه على أيديهم من عسف وظلم وجود(٧٣) · ونستدل من ذلك على أن الكرك اصبحت في أواخر عصر دولة المماليك الاولى منفى للثوار وسجنا مظلما لهم ·

---

(٦٩) المماليك الاجلاب : هم المماليك الذين يجلبون من بلادهم كبارا ، وكانوا يعملون هناك بالمهن المختلفة ، ولم يكونوا على دراية تامة بالفروسية ، وقد أساءوا الى الناس وظلموا وجاروا وكثرت شرورهم في مصر والشام (أنظر : حكيم أمين : قيام دولة المماليك الثانية ص ١١٧) ·

(٧٠) المقريزي : السلوك ، ج ٣ ص ١٣٤ ·

(٧١) المقريزي : السلوك ، ج ٣ ص ١٣٧ ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٤٠ ·

(٧٢) المقريزي : السلوك ، ج ٣ ص ١٥٥ ·

(٧٣) المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٥٣ ·

والظاهر أن منطقة شرقي الاردن لم تعد تلقى العناية الكافية من السلاطين بعد واقعة الناصر احمد ، فلم تحظ بما كانت تحظى به من عناية واهتمام في السنين السابقة ، وساعد على خرابها واضمحلال شأنها ما عانته ابان الوباء الاعظم الذي أثر تأثيرا عميقا على عمرانها ٠ وفي سنة ٧٧٠هـ (١٣٦٨م) تعرضت لمحنة جديدة عندما اجتاحتها أسراب هائلة من الجراد أتى على محاصيلها الزراعية ، واكثر ماعانت منه منطقة عجلون التي « امتلات منه المدينة وغلقت الاسواق ، وطبقت أبواب الدكاكين والطاقات ، وسدت الابواب »[٧٤] ، حتى أنه دخل الى جامع عجلون وشغل الناس عن الصلاة ، وانتنت المدينة لكثرة ما قتلوا منه ٠

ولم يرد عن منطقة شرقي الاردن ذكر في المصادر العربية في عهد الاشرف شعبان الا في مناسبتين ، أولاها عندما ابتدأ عمارة مدرسته برأس الرميلة تجاة قلعة الجبل بالقاهرة[٧٥] ، صفر ٧٧٧هـ (يوليو (تموز) ١٣٧٥م) ، فقد اوقف لها في جملة ما اوقفه للانفاق عليها اوقافا في شرقي الاردن ٠ ولقد صلت الينا وثيقة حجة وقف السلطان الاشرف شعبان مؤرخة في ٣ جمادي الاولى سنة ٧٧٧هـ[٧٦] شملت وقفا للسلطان في منطقة شرقي الاردن ، يتكون من بستان وحمام بوادي الكرك[٧٧] بالاضافة الى وقف قرية آدر كلها الواقعة شرقي الكرك[٧٨] ٠ وقد أوردت لنا هذه الوثيقة وصفا تفصيليا للبستان ومحتوياته الدور وبنائها ، والحمام واقسامه ، والقرية وحدودها وما تحويه من بيوت وصهاريج وأراض[٧٩] ٠

---

(٧٤) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج١ ص ٤٥٧ ٠

(٧٥) المقريزي : السلوك ، ج ٣ ص ٢٥١ ، ٢٧١ — ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٦٧ ٠

(٧٦) ولما كانت الحجة ناقصة من اولها وآخرها لذا لم نتبين على ماذا أوقف هذه الاوقاف ، الا اني أرى أن بعض هذه الاوقاف قد وقفه على مدرسته بالقاهرة كما هي العادة ٠

(٧٧) انظر نص وقف البستان والحمام بوادي الكرك في الملاحق ٠

(٧٨) لا تزال قرية آدر باقية للآن على بعد أميال شرقي الكرك على الطريق المؤدي من الكرك الى الطريق الصحراوي ٠

(٧٩) انظر وثيقة حجة وقف السلطان الاشرف شعبان بدار الوثائق القومية بالقاهرة رقم ٤٩ محفوظة رقم ٨ ٠

والمناسبة الثانية عندما اعتزم السلطان الاشرف شعبان التوجه الى الحجاز لاداء فريضة الحج في رجب ٧٧٨هـ(٨٠) · فقد أمر السلطان باخراج اخوته وبني اعمامه من ذرية الى مدينة الكرك للاقامة فيها الى مدينة الكرك للاقامة فيها الى حين عودته من الحج خوفا من أن يثب احدهم بمساعدة بعض الامراء الى عرش السلطنة – فأخرجوا في ١٩ شعبان سنة ٧٧٨هـ (أول يناير (كانون ثاني) ١٣٧٧م)(٨١) وعلى أثر ذلك خرج السلطان الاشرف شعبان الى الحج في أواخر شوال بتجمل كبير ، ومعه الامراء والقضاة والعساكر ، وخزانة من المال محمولة على عشرين جملا · بالاضافة الى قطارين من الجمال تحمل أنواع البقول من الشمار والنعناع والسلق والكزبرة مزروعة في محاير خاصة لتكون في خدمة مطابخ السلطان(٨٢) · ولم يزل ركب السلطان سائرا حتى وصل الى مدينة العقبة في ٢٩ شوال ، فاناخ على ساحل البحر هناك · وأثناء اقامته في العقبة قدم نائب الكرك فأوصاه السلطان بصنع اعداد من بسط الكرك المشهورة ، وطلب منه ارسالها الى قلعة الجبل بالقاهرة(٨٣) · وفي هذه الاثناء كان الامراء الذين صحبوه في رحلته للحج قد اتفقوا على الاطاحة به ، وكانوا قد عقدوا العزم والسلطان بعد في القاهرة على أن تتم حركتهم في طريق الحجاز · وعلى الرغم من فشل محاولة الامراء لقتله في العقبة وفراره الى القاهرة ، وما ترتب على ذلك من ابطال مرحلة الحج وسير البعض الى القدس والبعض الى مكة والبعض الى القاهرة ، فان أمراء المماليك في القاهرة عزلوا السلطان شعبان ونصبوا ابنه علي مكانه قبل أن يصل اليها شعبان · فلما بلغه تفاصيل ما وقع أثناء غيابه ، حاول الاختفاء عن اعينهم ، ولكنهم اكتشفوا موضعه وساقوه الى قلعة الجبل وخنقوه في ٦ ذو العقدة ٧٧٨هـ ·

---

(٨٠) المقريزي : السلوك ، ج ٣ ص ٢٦٩ ·

(٨١) ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٦٤ – المقريزي : السلوك ، ج ٣ ص ٢٧٠ ·

(٨٢) المقريزي : السلوك ، ج ٣ ص ٢٧٣ – العيني : عقد الجمان ، ج ٢٤ ق ٢ لوحة ٢٠٢ «مخطوط» ·

(٨٣) المقريزي : السلوك ، ج ٣ ص ٥٣٠ – ابن الصيرفي : نزهة النفوس والابدان ، ج ١ ص ١١٤ ·

كان من نتائج هذه الفتنة أن تمكن طائفة المماليك الاجلاب من السيطرة على زمام الحكم في مصر وانقرضت بذلك دولة المماليك الاولى(٨٤) ، فقد أتاح السلطان المنصور علي لهؤلاء المماليك فرصة التسلط على أمور الدولة والتحكم في شؤونها . حتى صاروا من كبار الامراء واصحاب الاقطاعات الكبيرة « ومن حينئذ تغيرت أحوال البلاد بتغير أهلها »(٨٥) . ومن بين الذين قفزوا الى صفوف الامراء الكبار برقوق العثماني(٨٦) ، وذلك في ربيع الاول سنة ٧٧٩هـ ، وكان في أول أمره مجرد مملوك صغير من طائفة المماليك اليلبغاوية الذين أرسلوا الى سجن الكرك ، ثم افرج عنه بأمر من الاشرف شعبان بعد أن قضى فيه خمس سنوات(٨٧) .

وقد تمكن الامير برقوق بعد سلسلة من الاحداث والفتن والثورات من التوصل الى مدة الحكم وتملك البلاد مؤسسا بذلك دولة الجراكسة(٨٨) . وعلى الرغم من انصراف دولة المماليك الاولى في أيامها الاخيرة عن اعمال الاصلاح والانشاء والتعمير بسبب الفتن التي استشرت في البلاد ، والحروب المتواصلة بين الجراكسة والاتراك ، فقد شهدت منطقة شرقي الاردن بناء جديدا واعتنى به الجسر الذي أمر الامير برقوق ببنائه في ذى الحجة سنة ٧٨٢هـ على نهر الاردن ما بين بيسان ودمشق وكان طوله ١٢٠ ذراعا وعرضه ٢٠ ذراعا ، وكان هذا البناء آخر عمل انشائي يقام بالاردن في عصر دولة المماليك الاولى(٨٩) .

---

(٨٤) المقريزي : السلوك ، ج ٣ ص ٢٨٦ .
(٨٥) المقريزي : السلوك ، ج ٣ ص ٢٨٩ .
(٨٦) المقريزي : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٣٠٨ .
(٨٧) ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ص ٤٦٢ ، ٤٧٢ ـ المقريزي : الخطط ، ج ٣ ص ٣٩٢ .
(٨٨) يقول المقريزي : «وملك البلاد وقام بدولة الجراكسة» (السلوك ، ج ٣ ص ٣١٦) .
(٨٩) وأقوم الآن باعداد بحث عن تاريخ المنطقة في عصر دولة المماليك الثانية .

كشف بأسماء الاماكن

ج

ح

فهرس موضوعات الكتاب

(القسم الأول)

صفحة

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

صفحة

الفصل الخامس

صفحة

الفصل السادس

من منشورات وزارة الثقافة والشباب
شرق الاردن في عصر دولة المماليك الاولى

دكتور يوسف درويش غوانمه

١٩٧٩

جمعية عمال المطابع التعاونية ـ عمان

الثمن دينار واحد